مكتبة ياسمين

جيرارد دي كورتانز

عُشّاقُ كُويُوَاكَان

ترجمة: صلاح بن عيّاد

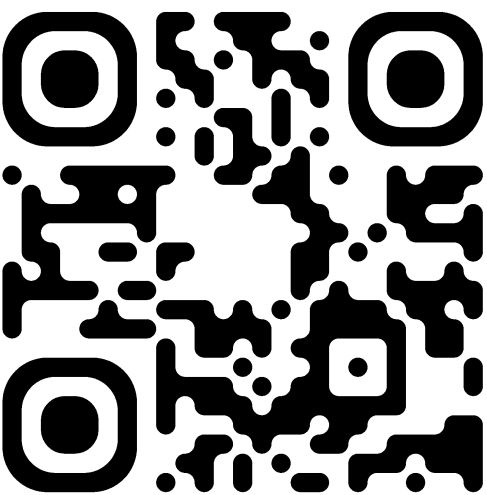


صفحة ٧

يسعدنا انضمامكم إلى قناة



معكم نكبر ونستمر بكل جديد



عشّاقُ كُويُوَاكَان

جيرارد دي كورتانز



telegram @
yasmeenbook

عشّاقُ كُويُوَاكَان

ترجمة
صلاح بن عيّاد



صفحة ٧

كتاب: عشّاقُ كُويُوَاكَان
المؤلّف: جيرارد دي كورتانز
ترجمة: صلاح بن عيّاد

الطّبعة الأولى: 2025
التّرقيم الدّوليّ: 978-9938-989-19-9

حقوق الترجمة العربية محفوظة
©صفحة سبعة للنّشر والتّوزيع

E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (+966)583210696
العنوان: الجبيل، شارع مشهور، المملكة العربية السعودية

جميع آراء المؤلف الواردة في هذا العمل وخلافه تُعبِّر عنه وحده وليست مسؤولية دار النشر أو أي جهة أخرى متصلة بها من الجهات والهيئات الثقافية التنظيمية أو المانحة وغيرها.
تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة

www.page-7.com

telegram @
yasmeenbook

الإهداء

إلى دياني دي مارغيري

«الهدفُ الأساسيُّ من حياتي هو أن ملء العيْشِ»

فريدا كاهلو

«دوام الحبِّ من دوام المُتعة»

فريدا كاهلو

telegram @
yasmeenbook

1

20 سبتمبر 1936، غادرتْ ناقلة النّفط «رُوثْ» ميناءَ أوسْلو. كانت درجة الحرارة تقلّ عن العشر درجات. وكان الثّلجُ يتساقطُ نُدفًا خفيفةً فوق الجُرْف البحريّ الضيّق وكذلك فوق التّلال المُحيطة كثيفة الأشجار. ستبلغ النّاقلة ميناء «تامبيكو» في غضون ثلاثة أسابيع إنْ لم يطرأ طارئٌ يعطّلُ مسيرَهَا. بالإضافة إلى حمولتها من الوقود، كانت النّاقلة تُقِلُّ حمولةً أخرى أكثر فرادةً: رجلًا وامرأةً.

إذا كان الرّجل والمرأة قد خيّرَا هذه الباخرة البطيئة على غيرها فذلك لأنّهما يَنْويان اختلاسَ العبور بأبسط الطّرُقِ. وبدقّة أكثر، ارتأتْ السّلطاتُ النّرويجيّةُ الّتي تُوكَل إليها مسألة سلامتهما أنّ عبورهما على متن سفينةٍ عاديّةٍ أمرٌ محفوفٌ بالمخاطر.

في الحقيقة، كان الرّجل والمرأة متخفّيَيْنِ. كان برفقتهما شرطيٌّ يُدعى «جوناس لي». وبالرّغم من أنّ القبطان «هاغبارت واغي» قد تخلّى لهما عن مقصورته الخاصّة إلّا أنّهما ممنوعان من استخدام الجهاز اللّاسلكيّ للتّواصل مع الخارج، أمّا المسدّسُ الّذي كان بحوزة الرّجل فإنّه مطالبٌ بتسليمه إلى «جوناس لي» عند انتهاء الرّحلة. وبما أنّهما الرّاكبان الوحيدان على سفينةٍ فارغةٍ فسيكون من المُتاح لهما أنْ يغادرا مقصورتهما في أوقاتٍ يحدّدها القبطان أو الشّرطيّ. صحيحٌ أنّ الرّجل والمرأة قد أصبحا الآن على مَتْن النّاقلة غير أنّهما لا يزالان على الأراضي النّرويجيّة وهما السّجينان اللّذانِ حُرّرا حُرّيّةً مشروطةً.

من المؤكّد أنّهما غادرا أخيرًا، غادرا والخوف يسكن جوفيْهما وكانا لأسبابٍ وجيهةٍ يعتقدان أنّ عبورهما المحيط الأطلسي يمكن أنْ تستغلّه المنظّمةُ الإجراميّةُ

وتحوّله إلى «حادثٍ» بما أنّهما اختارَا الإفلات من سطوة الرّأي العام ومداورة كلّ الصّحف لا سيّما الصّحف المُعادية الّتي لم تكفّ عن مطاردتهما وحتّى الرّفاق الّذين لطالما وقفوا إلى جانبهما.

بعد ساعاتٍ من الإبحار، شعرا بما يشبه الخَدَر بسبب شخير المُحرّكات واهتزاز النّاقلة المتواصل، كانا يراقبان المدى من كوّة صغيرة في مقصورتهما: أمامهما لا غير البحر يمتدّ قاتمًا وكثيفًا بمياهه الّتي تبدو مثل غابةٍ.

2

بالرّغم من حصولهما على حقّ اللّجوء من طرف رئيس الجمهوريّة المكسيكيّة «لازارو كارديناس» نفسه، مقابل أنْ يتعهّدا بعدم ممارسة أيّ نشاطٍ سياسيٍّ وأن يفرضا على أتباعهما بألّا ينظّما أيّ تظاهرةٍ لاستقبالهما من شأنها أنْ تتسبّب في اضطرابات ممكنة، فـ«الأصدقاء المجهولون» كما تقول المرأة بلغةٍ تغلب عليها العاطفة: «كانوا في الطّرف الآخر من العالم قدْ عملوا على خلاصهما»، في الأصل، لم يكن هؤلاء الأصدقاء يتجاوزون الاثنيْنِ: صحفيّ ورسّام.

في الحقيقة، المهندس الرّئيسيّ الّذي كان وراء مقدمهما هو «الصّديق المجهول» الثّاني: الرسّام. وهو رجلٌ طُرِد من الحزب الشّيوعيّ منذ سبتمبر 1929، وقد انظمّ حديثًا، في ليلة عيد ميلاده الخمسين، إلى صفوف الرّابطة الشّيوعيّة الأمميّة.

إنّه الرّجل ذاته الّذي لطالما اعتبروه على مدى سنواتٍ طويلةٍ من أعظم رسّامي الجداريّات في عصره إلّا أنّه لم يعد اليوم «يملك من رائحة القداسة شيئًا» وفق التّعبير الشّائع. فبعد منعه من دخول الاتّحاد السّوفيتيّ السّتالينيّ، تردّت أوضاعه حتّى في بلده الخاصّ. وقد عمد منتقدوه منذ وقتٍ قصيرٍ إلى إلقاء الحمض على لوحاته الجداريّة بالقصر الوطنيّ وبأروقة شارع الجمهوريّة الّتي وضع فيها كلّ فنّه، الأروقة الّتي لم تعد اليوم أكثر من مقبرةٍ للسيّارات. عندما أنجز جداريّاته على المباني العامّة في المكسيك وجّهوا إليه تهمة تلقّي الأموال من الشّيوعيّين، وعندما أنجز بعضها الآخر وهي جداريّات تعليميّة على حيطان نيويورك اتّهموه ببيع ضميره للرأسماليّة الأمريكيّة.

لاحقته الشّائعاتُ الأكثر جنونًا. هو المزهوّ والكاذب ومستنبط القصص الّتي من شأنها أن تنيّم السّامع واقفًا، كان دائم جرّ المياه إلى طواحين أعدائه. يُحكى أنّه وُلِدَ وترعرع في أعالي الجبل، هناك سهرتْ على تربيته هنديّةٌ كانت قديمًا ركيزةً من ركائز بيت دعارة في مدينة «غواناخواتو»، وأنّه ظلّ لزمنٍ طويلٍ يكرع الحليب مباشرةً من ضرع عنزةٍ، وأنّه عاش تجربته الجنسيّة الأولى وهو بعد في التّاسعة من عمره مع مربّيةٍ بُروتستانتيّة. يُحكى أيضًا أنّه أكل اللّحم البشريّ وأنّه دخل عوالم الشّعوذة الّتي ورثها عن الأجداد وأنّه دائم التّجهّز بمسدّس لا يتردّد في استخدامه مَتَى شاء، فتراه يطلق النّار على الفُونوغرافات والمصابيح الزّيتيّة ونُقّاد الفنون دائمي السُّخط وحتّى على العشّاق المُتنافسين.

لقد كان غولًا وزنديقا ومغويًا للنّساء بالرّغم من دمامته. لا يُمكن للرّجل والمرأة ألّا يتعرّفا عليه ما إنْ يريانه واقفًا في انتظارهما على الرّصيف. إذ له وجهٌ طفوليّ، وجبينٌ بارزٌ وناعمٌ في آنٍ، له عينان واسعتان ومتباعدتان، سيتفاجآن مثلهما مثل كلّ من يَلْتَقِيه بِجَمْعِهِ بين النّعومة والقوّة، بيديه الصّغيرتيْنِ قياسًا مع جسده المهول، بمزاجِهِ المُتقلّب، وبذكائه شِبْهِ الوحشيّ. هذا الرّجل، هو دِييغُو ريفيرا.

3

بعد أسبوعٍ، ضاعفت النّاقلة سُرعتها وحلّت الأيّامُ المشمسةُ محلَّ الأيّامِ المُتجمّدة الّتي شهدتْها بدايةُ الرّحلة. أحيانًا، كانت الباخرةُ المُثقلةُ تغوصُ عميقًا بين الأمواج المُتراقصة وأحيانًا أخرى كانت تستوي لتتقدّم في حركةٍ متصاعدةٍ. كانت الكتلة السّوداء والزّرقاء تَشُقّ عباب البحر ملء ضجّةٍ مُنتظمةٍ مُخلّفةً خلفها جناحيْنِ مهولَيْنِ من الزّبد الأبيض. لم يكن هنالك شيء يمكن رؤيته عدا الفراغ الأفقيّ الّذي يرسمُ حدودَ البحر.

على متن النّاقلة، تنتظمُ الحياة. حتّى أنّ نوعًا من الرّوتين يتّخذ مكانه. صباحًا، كان الرّجل يعملُ على مقالاتٍ مُخَصَّصَةٍ لمُحاكمات مُوسكو الّتي تَشْغَل السّاحة السّياسيّة السّوفييتيّة حينذاك، مقالاتٌ ربّما سيجمعها ذات يومٍ في كتابٍ يضع له عنوان: «جرائم ستالين». بعد الظّهر، كانَ يقرأ كُتُبًا تتحدّث عن المكسيك، هذا البلد الّذي لا يعلم عنه شيئًا بالرّغم من أنّه سيستقبلهما. أمّا إذا رغب في الاسترخاء، فكان يلجأ إلى قراءة سيرة «السّير بازيل زهاروف»، مالك السّفن والاقتصاديّ اليونانيّ الّذي وُلِد في إسطنبول، وهو رجلٌ يلتقي معه في اعتبار الرّأسماليّة العالميّة منظومةً فاسدةً إلى حدّ النّخاع. وكان أحيانًا، يعمد إلى فتح دفترٍ صغيرٍ أزرقَ، مذكّراته، حيثُ يسجّل بعض المُلاحظاتِ محاولًا قدر الإمكان ألّا يُفرط في الحزن.

أمّا المرأةُ فلم تكن قادرةً على التّكيّف مع حياتها الجديدة الّتي انقلبتْ رأسًا على عقبٍ منذ ذلك اليوم، أي منذ 20 فبراير من سنة 1932، اليومُ الّذي صدر فيه مرسومٌ حكوميٌّ يقضي بسَحْبِ الجنسيّة السّوفييتيّة منهما وبذلك يمنعهما

من العودة إلى روسيا زاجًّا إيّاهما في مسارٍ حياتيّ لا يخلو من مخاطر، لقد أصبحا بِمُقْتضى ذلك المرسوم دائميْ البحث عن ملجإٍ تحت تهديد مستمرّ مأتاه إمكانيّة تعرّضهما لأيّ هجومٍ في أيّ لحظةٍ من طرف روسيّين بِيضًا كانوا أو حمرًا.

كان ما أسمتْهُ المرأة «منفاهما الدّائم» قد انطلق قبل ذلك التّاريخ بكثير، أي منذُ سنة 1928، منذ نفيهما إلى «آلما آتا»[1]، منذ إسطنبول، منذ الأوديسّا، منذ إقامتهما في جزيرة برينكيبو، منذ كاديكويْ. وتعاقبتْ الأحداثُ، من وصولهما إلى مرسيليا في يوليو 1933 إلى إقامتهما في رويان وسان باليه فبانيير دي بيغور وباربيزون، ثمّ طردهما من قبل حكومة دالاديبه ممّا أجبرهما على العيش دون تأشيرةٍ محرومينِ من كلّ موردٍ، هِيَ أحداثٌ زادت الأمر تعقيدًا. لم تكن الأشهر الأخيرة الّتي قضّياها في فرنسا سوى سلسلةٍ من الكوابيس والخيبات والمصائب المتعاقبة. العزلة والحراسة المشدّدة ومراقبة مراسلاتهما وقطع الهاتف عليهما ومنع الكتب عنهما والجرائد والزّائرين هذا بالإضافة إلى: تهديدات مستمرّة بالقتل. وبما أنّهما لم يتمّ منحهما الإقامة في جزيرة ريونيون أو في مدغشقر فقد عاشا متنقّلينِ من فندق إلى آخر ومن منزل صديق إلى آخر: في ديجون وسان بوال وشامونيكس وبورغ أوبراس وغرونوبل ولا ترونش وليون وأخيرا في دومين حيثُ تمكّنا من قضاء سنةٍ بكاملها في منزل لوران بُّو، مُعلّمِ الصّبيان.

لم تكن إقامتهما الأخيرة في النّرويج سوى هبوطٍ تدريجيّ إلى الجحيم وصولًا إلى اعتقالهما في قرية سوندبي أين أقاما عدّة أشهر تحت رقابة ثلاثة عشر شرطيّا قبل أن يتمكّنا من مغادرة أراضي النّرويج، هذا البلد الهادئ والقاسي والخلاّب في آنٍ، والّذي انتهى بأن استأجر لهما ناقلة النّفط «رُوثْ».

على مدى كلّ تلك السّنوات، لم يسْلموا من شيء. مثلما حدث لهما في اليوم الّذي سبق طردهما من مدينة أوسلو مباشرةً، فقد جاء طبيبهما ومحاميهما وموظف

---

(1) آلما آتا، مدينة في كازاخستان، اسمها حاليا ألماتي.

مصلحة الضّرائب، وبعد أن قدّموا مذكّراتهم تباعًا من أجل التّثبّت من تسويتها قاموا بمصادرة حسابهما البنكيّ.

- فيم تفكّرين، سأل الرّجل ذات مساء وهو يتأمّل المرأة بينما كانت بصدد الخربشة على خشب الكوّة المتهالك بأظافرها.
- أفكّر في باربيزون، أجابت ضاحكةً.
- لا أرى مضحكًا في هذا الأمر.
- ألا تتذكّر هياج الصّحافة بعد أيّامٍ قليلةٍ من وصولنا إلى باربيزون؟
- لا، قال الرّجل قبل أنْ يعود للانكباب على كتاب بين يديْهِ.
- تحدّث الصّحفيون وقتذاك عن أجنبيّيْنِ غريبيْ الأطوار، يعيشان متقوقعيْن على نفسيهما، لا يشربان سوى الحليب ولا يلتقيان أحدًا.
- لا، لا أتذكّر شيئًا من كلّ ما تقولين.
- لقد كانوا يعتقدون أنّنا مهرّبيْنِ ومزوّريْنِ. حتّى أنّهم تحدّثوا عن المخدّرات والاتّجار بالنّساء البيض!
- انتهى كلّ ذلك بإلغاء ترخيصٍ كان سيمكّننا من الإقامة الدّائمة في فرنسا، أليس كذلك؟
- كنت متأكّدةً من أنّك تتذكّر كلّ شيءٍ.
- أتذكّر، هذا بديهيّ، لكن، لا حاجة لعودتك الدّائمة إلى كلّ الّذي جرى. انسيْ كلّ شيء، ألا تطمحين إلى النّسيان؟

وفي مساء آخر، بينما كان البحر هائجًا والنّاقلة تهتزّ اهتزازًا خطيرًا، كان الرّجل والمرأة ينظران إلى بعضهما البعض، هكذا تعوّدا على أن يفعلا من حين إلى آخر، يحاول كلّ واحد منهما أن يقرأ أسئلته ذاتها في عين الآخر: «كيف ستجري الأمور في المكسيك... هذا إن تمكّننا من الوصول؟». تساؤلاتهما متطابقة، إلى جانب الخشية ذاتها الّتي تتجدّد بتجدّد يومها: قبل رحيلهما، لم يكفّ النّاس على

القول إنّهما في البلد الّذي يتوجّهان إليه، أي في المكسيك، يمكن لمن هبّ ودبّ أن يستأجر قاتلًا مقابل دولاراتٍ قليلةٍ.

4

كانتْ لـ«صديقهما المجهول»، دييغو ريفيرا زوجةٌ. هي زيجتُهُ الثّالثة. وكانا منذ ارتباطهما سنة 1929 –عندما كان هُوَ في الثّانية والأربعين وهي في الثّانيَةِ والعشرين– قد انفصلا عديدَ المرّاتِ ليعودا إلى بعضهما في كلّ مرّةٍ. للزّوجة الشّابة أصولٌ هنديّة واسبانيّة من ناحية الأمّ أمّا من ناحية الأبِ فلها دماءٌ ألمانيّة بل ويهوديّة مجريّة من أصول رومانيّة. كانت غايةً في الجمال، تختالُ في زيّها الوطنيّ المكسيكيّ ومجوهراتها الفاخرة... كانت تحبّ النّبيذ والجنس ودائمة إطلاق الشّتائم في كلّ الاتّجاهات مثل سائقي العربات.

وبعد تعرّضها لحادثِ مُروّعٍ شارفَ على هلاكها، بعد نجاتها الّتي كانت بما يُشبه المُعجزة، وجدتْ المرأة نفسها مضطرّةً لمجابهة عددٍ من عمليّات الإجهاض وعمليّاتٍ جراحيّة أخرى أجبرتْها على وضْعِ الكورسيهات الطبيّة. أمضتْ زمنًا طويلًا معلّقةَ الرّجليْنِ متدلّيةَ الرّأس، تعرّضتْ لعديد تجلّطات الدّم وعاشتْ فترةً طويلةً بين روائح «الكلوروفورم» والضّمادات والإبر والمشارط. كثيرًا ما ضُمّدتْ وجُرِّحتْ وأُخْمِدتْ بالمسكّنات. غير أنّها كانت من اللّواتي ينتمين إلى ذلك الجيل الصّلبِ صلابَةً حقيقيّةً، ذلك الجيل المُنحدر من الثّورة المكسيكيّة، ذلك المسكون بالصّراعات والحماس الّذي لا يَنْضُبُ. هو جيلٌ نشأ في جوّ من النِّضَالات من أجلِ قضايا عادلة. وبما أنّ المرأةَ كانت عضوًا في الحزب الشّيوعيّ فقد كانت ترى في التزامها السّياسيّ طريقة لإثبات جدارتها بالحياة وتجاوز الآلام.

لقد كانتْ حيّةً بحقٍّ. وكانتْ، كما لمْ يتوقّعْ أحدٌ، سعيدةً بحياتِهَا تلك. لذلك كانت دائمًا ما تقول: «أفلاطون مجرّد أحمق في اعتباره للجسد مقبرةً تسجننا،

تمامًا كما تكون الرّخويّةُ سجينةً لمحارتها». ولذلك فقط صرختْ من أعلى كلّ سطوح المكسيك: «أنتم لمْ تفقهوا شيئًا يا رفاق، إنّي لا أتمسّك بالمعاناةِ بلْ أتمسّكُ بأصالتها!» كما كانتْ في كلّ مرّةٍ تدخل فيها إلى قاعة العمليّاتِ تُمشّط شعرها بعناية وتضع البُودرة على وجهها وأحمرَ قانيًا على شفتيْها ثمّ تتوجّه للجرّاحين هاتفةً: «تحيا الحياة!»

كانت تمارس الرّسم مثل دييغو. وهو ما يعني أنّها كانتْ تترجمُ المعاناةَ إلى فنّ، وكانت مثل ملك «ميداس» المعروف بتحويل البُرَازَ إلى ذهبٍ. فالرّسم بالنّسبة إليها كانَ بمثابةِ التّعويذةِ.

من المُؤكّد أنّها كانتْ في بداية سنة 1937 أقلّ شهرةً من دييغو، غير أنّها كانت قد أنجزتْ إلى تلك الآونة لوْحاتٍ مُذْهلةً وقويّةً وجرّبت الزّيت والبَاسْتِيل وقلم الرّصاص. كانت أعمالًا تتصّف بالغرابة وتجمع بين الفكاهة والعنف. ففي إحدى لوحاتها المجزّأة، نرى امرأةً ممزّقةً بطعنات من سكّين وإلى جانبها يقف المجرمُ ماسكًا بيده اليُمنى خنجرًا يقطرُ دمًا. وكانت في مستشفى «هنري فورد» قد أنجزتْ لوحةً حيثُ رسمتْ نفسها وهي تستحمّ عاريةً في دمها. كانتْ إذّاكَ قدْ خضعت لعمليّة إجهاضٍ فنراها تمسك بيديْها ستّة حبال سريّةً مُتّصلةً بأجنّةٍ لها أعمدةٌ فقريّةٌ: أجنّة على شكل حلزونٍ وزهرة أوركيد وعظام حوضيّة... «أليْست رسمةً ذاتيّةً عظيمةً؟» كانتْ توشوشُ في أذن كلّ من يأتي ليتأمّلُ لوحتَهَا تلك.

في اللّحظة الّتي كانت فيها النّاقلة النّفطيّة مُتوجّهةً إلى تامبيكو، كانتْ قد خضعتْ لعمليّةٍ جراحيّةٍ ثالثةٍ على مستوى قدمها اليُمنى، تمّ على إثرها إزالة عظامها السّمسميّة. وبالرّغم من أنّ التئام الجرح كان قد استغرق الوقتَ الكافيَ إلّا أنّ القرحةَ الجلديّة لم تختفِ نهائيًا. كانت تشعر بالتّوتّر الدّائم وعلى مشارفِ فقدان الشّهيّة نهائيًا كما هيَ عادتها، بالإضافة إلى الألم الّذي لا يبارح عمودها الفقريّ، الألم الّذي لا ينتهي. غارقة هي في كلّ أنواع المهدّئات الّتي كانت

تلتهمها مع جرعاتٍ من التّاكيلا. وبالرّغم من كلّ تلك الحبّات الّتي كانت تُطلق عليها اسم «بذراتها الصحيّة» فإنّها ستكون هناك على رصيف الميناء في استقبال الرّجل والمرأة. أمّا اسمها فهو: ماجدالينا كارمن فريدا كاهلو.

5

وبينما كانت النّاقلة تواصل تقدّمها مُتوخّيةً مسالك غير معتادةٍ، متجنّبةً الاقترابَ من الشّاطئ، مغيّرةً مسلكها، كان الوقتُ يمرّ وسط بحرٍ مُتراوحٍ بين الهياج والهدوء. الأوّل من يناير سنة 1937، أطلق مدفع ناقلة روث طلقتيْنِ هزّتا المحيط من عزلته، طلقتان كانتا تعبيرًا عن مستقبل أكثر أمانًا رافقهما صوتُ صفّاراتٍ- لا إجابة تردّدتْ في أرجاء البحر. لمْ يجد الرّجل والمرأة الشّجاعة كيْ يتبادلَا تهانيَ العام الجديد. كانا يتشبّثان بحاجز السّفينة من أين تعوّدا على خروجهما الاعتياديّ وكانا غارقيْنِ في تأمّل البحر. لا غير جوناس لي الّذي بادر بتهنئتهما بأسلوبٍ مبالغٍ في لباقته.

كانَ الرّجلُ الغارق في قراءة كتبه المُتحدّثة عن المكسيك يشعر رغم كلّ شيءٍ بدبيب ما يُشبه الأمل في روحه، أملٌ لطالمَا بدا له مُتمنّعًا وغيرَ مُلائمٍ للظروف العامّة. فهذا البلد أينَ تتردّدُ ذكرى «زاباتا» و«بانشو فيلا» بكلّ عنفوانٍ، ما يزالُ في طور محاولة تأسيس هويّةٍ مّا انطلاقًا من ماضيه وقيودٍ فرضها الأوروبّيون في كلّ المجالات الثّقافيّة والدّينيّة وحتّى في الحياة اليوميّة. ثمّة تغييراتٌ جذريّة واصلاحاتٌ كبرى بصدد الحدوث. لقد أصبحت المكسيك مركز جذبٍ لا يُقاوم.

توافد على المكسيك ممثّلون كثرٌ عن طلائع أجنبيّةٍ، قَدِم مبدعون من العالم بأسره، فنّانون من فرنسا واسبانيا وألمانيا وأمريكا، تحوّلت المدينة السّخيّة إلى ملجإ يقصده ضحايا الاستبداد: لجأ إليها الرّوس فارّين من الاضطهاد السّتالينيّ، والجمهوريّون الإسبان مطرودين من نظام فرانكو، واليهود الأوروبيّين

مُطاردين من النّازيين، والإيطاليّون ملفوظين من الفاشيّة الموسيلينيّة. في انتظار الرّجل عالمٌ جديدٌ إذنْ.

للحياة أحيانًا أنْ ترتّب لتلك المصادفات العجيبة: منذ عشرين سنة خلت، كان الرّجل والمرأة قد غادرا أوروبّا عبر البحر. طردتهما فرنسا ليتمّ نقلهما إلى الحدود الإسبانيّة، وتمكّنا في مدينة برشلونة من العثور على سفينة نقلتهما إلى نيويورك.

وفي السّابع من يناير 1937، كتب الرّجل في دفتر مذكّراته الأزرق: «العام الّذي انتهى لتوّه سَيُدَوَّن في التّاريخ، تاريخ قابيل بالتّحديد».

في غضون يومَيْنِ، ستلامس النّاقلة الحدود المكسيكيّة. سألت المرأة الرّجلَ وهي الّتي تتفهّم قلقه الممزوج بالفرح لأنّها تشاركه الحياة منذ فترة طويلة:

- لن نعود إلى أوروبّا مجدّدًا، أليْسَ كذلك؟

لم يُجِب الرّجلُ لأنّ قلبه كان في تلك اللّحظات يغصّ باضطرابٍ كأنّه نابعٌ من الجحيم. لذلك، صمتت المرأة مثلما تفعل في العادة صمتًا مُتحفّظًا وخاليا من كلّ عاطفة. ظلّت تنظر في مرآة الكابينة أمامها حيث يرتسمُ وجهٌ ذو ملامح رقيقة، وجهٌ كانَ آيةً في الجمال بالأمس القريب، وجهٌ ما يزال يحتفظ ببعض تلك الرّقة ويعكس لطفًا كبيرًا وهو محاطٌ بشعرٍ أشقر ميّالٍ إلى الرّماديّ. إنّها في الخامسة والخمسين من العمر، اسمها فهو: ناتاليا ايفانوفنا سيدوفا.

أمّا الرّجل، وقد تخلّى نهائيًا عن صبغ شعره في محاولةٍ لإخفاء هويّته، وبعد أنْ استعاد عثنونه الّذي تعوّد على إزالته زمنًا طويلًا فقد بلغ الثّامنة والخمسين. كان دائم الشّكوى من ضعف ذاكرته ومن عدم قدرته على النّوم دون حبّاتٍ منوّمة. وكان يتساءلُ دائما إنْ كانَ شعوره بالشّيخوخة شعورًا نهائيًّا أم مؤقّتًا.

- ناتاليا، أفل شبابي منذ زمنٍ بعيدٍ لو تدرين، لكنّي الآن أشعر أنّ مجرّد الذّكرى الّتي أحتفظ بها من سنوات شبابي قد تبخّرتْ إلى الأبد.

اسم الرّجل هو ليف دافيدوفيتش برونشتان غير أنّه معروف باسم ليون تروتسكي. حينذاك، كانت العصافير تصخب في ممرّات السّفينة في إعلانٍ عن الاقتراب من الأراضي المكسيكيّة الّتي كانت تلوّح في الأفق.

6

كان ميناء تامبيكو ميناءً صناعيًّا محضًا محاطًا من كلّ جوانبه بمُستنقعاتٍ كئيبةٍ وكان بالإضافة إلى ذلك مُنجرفًا بسبب تواتُرِ الفيضانات والأعاصير. أمّا المدينة الّتي ما تزال مُحتفظةً ببعض المباني الاستعماريّة القديمة المُشيَّدة منذ القرن السّادس عشر فيسيطر عليها زمرةٌ من المحتالين ومن مالكي النّاقلات النّفطيّة. في الشّوارع، تتدافع حشودٌ متنوّعةٌ من المبشّرين الإنجيليّين والكُتّاب العامّين وصغار الباعة المُتجوّلين والمومسات والسّكارى الّذين كانوا يغادرون أوكار القمار مُترنّحين. إلى ذلك المكان، يوم 9 يناير 1937، رستْ النّاقلة «رُوثْ» بَعْدَ رحلةٍ دامت عشرين يومًا.

بعد عدّة ساعات انقضتْ في التوغّل العشوائيّ بين سُفن الشّحن والنّاقلات وقوارب الصّيد، أوقفت سفينتنا محرّكاتها أخيرًا في مكانٍ يتوسّط الميناء. ظلّ ليون تروتسكي جامدًا في مكانه: من الطّبيعيّ أن يكون عملاءُ المخابرات السّريّة الرّوسيّة مُنتشرين في كلّ مكانٍ لذلك رفض النّزول قبل أن يأتي لاستقباله أصدقاءٌ يَثِقُ فيهم. وصل زورق صغيرٌ ذو محرّك نفطيّ أين رأى العلم المكسيكيّ مرفرفًا استقرّ إلى جانب النّاقلة فانقشعتْ بعض مخاوفه. على متن الزّورق كان يقف الجنرال «فرانسيسكو موجيكا»، وزير الاتّصالات والأشغال العامّة وقد جاء خصّيصًا لاستقبالهما مُحمّلا برسالة ترحابٍ من الرّئيسْ «لازارو كارديناس».

ليون تروتسكي في بدلته «التّويد» وبنطلونه الغُولْف، ناتاليا سيدوفا بقبّعةٍ على رأسها وتنّورة ضيّقة تصل إلى الرّكبتيْنِ وبكعبيها العاليين نزلا السّلم المعدنيّ من أعلى النّاقلة إلى أسفلها. وهما يعتليان المنصّة، تمّ استقبالهما من طرف

مسؤولين حكوميّين بالإضافة إلى تروتسكيّين أمريكيَيْن هُمَا: «جورج نوفاك» و«ماكس شاكتمان» وقد رحّبا بقدومه ترحابًا حارًّا. كانتْ أرض المكسيك بالنّسبَةِ للمُسافريْنِ أرضًا للحريّة الموعودة لكنّ شكوكًا ظلّت تُساورهما: هل حانتْ ساعة تخلّصهما من مخاوفهما الّتي لازمتهما ما يكفي؟ هل حانت ساعة سماحهما للفرح المكبوت في أعماقهما بأنْ يتفجّر أخيرًا بعد كلّ هذه السّنين؟

من عمق المجموعةِ، انسلختْ امرأةٌ آيةٌ في الجمال وتقدّمَتْ ناحيتهما، عانقتهما بحرارةٍ وقبّلتهما ثمّ حدّثتهما عن دييغو ريفيرا الّذي كانَ مقيمًا في المستشفى وهو الأمر الّذي منعه من القدوم لاستقبالهما.

- إنّه يبلغكما أسفه الشّديد قالتْ مُختتمةً: يُعاني زوجي من مشاكل مُستمرّة في الكليتيْنِ...
- أنت فريدا كاهلو؟ سألت ناتاليا.
- نعم. أجابت المرأةُ الّتي لا حدود لجمالها، وهي عاجزةٌ تمام العجز عن زحزحة عينيْها المصّوبتيْنِ إلى الرّجل الّذي كانَ يقف قبالتها مباشرةً.

إنّها لا تكاد تستوعبُ اللّحظةَ. إذ هي تقف أمام ليون تروتسكي، ذاك الّذي كانَ رئيسًا لمجلس العمّال في سانت بطرسبرغ وهو بعد في العشرين من العمر، أي سنة 1905، والّذي أسّس الجيْش الأحمر والّذي كان يقود شارة خمسة مليون جنديًّا...

بعد أن انتهتْ الإجراءات الشّكليّة، أرسل تروتسكي للرّئيس «كارديناس» برقيّةً عبّر فيها عن عميق امتنانه وأكّد مرّةً أخرى على التزامه التّامّ بعدم التّدخّل في الشّؤون الدّاخليّة للبلد. بعد ذلك، تمّ اصطحاب المسافريْنِ إلى الفندق أين كانت تنتظرهما غرفةٌ متواضعةٌ لكن مريحة ونظيفةٌ.

كانت المسافة القصيرة الفاصلة بيْنَ الميناء والفندق كافيةً كيْ تَتبيّن لهما حقيقة المدينة الّتي بدتْ لهما قبيحةً وملوّثةً. مدينة ذكّرتهما بباكو العاصمة الأذربيجانيّة.

من نافذتها المطلّة على ساحة «الآرماس»، كانا قادريْنِ على رؤية الكاتدرائيّة حديثة البناء، وهي عبارة عن خليط من الفولاذ والخرسانة، بأشكالٍ تنحو منحى النّمط القوطيّ، بأرضيّةٍ مزيّنة بالصّلبان المعقوفة كما يُسمّونَهَا، وكانت تتراءى لهما في البعيد منصّة مخصّصة للموسيقى وهي عبارةٌ عن قبّةٍ معدنيّةٍ مُشيّدةٍ على الطّراز الموريّ.

- إذن، هنا يبدأ كلّ شيء. قالتْ ناتاليا.

لم يُجِبْ ليون. كان هائم الفكر في عطر فريدا. لطالما التقى بنساء يتضوّعنَ بالعطر نفسِهِ إلّا أنّ الأمر معها اختلف كثيرًا: «شوكينغ دي شيابارِيلّي». يعرف كلُّ رجلٍ حسّاس للجمال الأنثويّ قصّة زجاجة العطر الشّهيرة تلك الّتي نحتها «ليونار فيني» على شاكلة تمثال «ماي وست» النّصفيّ.

7

من الغد وفي السّاعات الصّباحيّة الأولى، تحرّك القطار الرّئاسيّ «هيدالغو». في المقدّمة، ومباشرةً بعد غُرفة القيادة كانت توجد عربةٌ فولاذيّة يحرسها جنودٌ قصار القامة توقّف نموّهم واضعين أزياء من القُطْنِ الباهت. كانَ هُناك عدد منهم يقفون على سطح القطار ماسكين ببنادقهم: المراقبون. وكان على متن تلك العربة: ليون تروتسكي، ناتاليا سيدوفا، الجنرال بلتران ممثّل رئيس الجمهوريّة وعدد آخر من الحرّاس الشّخصيّين المدّجّجين بشتّى أنواع الأسلحة، وفريدا كاهلو. قبل أن يتمكّن ليون تروتسكي وناتاليا سيدوفا من الوصول إلى العربة، كانا مضطرّيْن لشقّ جمْعٍ من الصّحفيّين الّذين كانوا في انتظارهما. وبينما كانا يتأهّبان للصّعود إلى العربة وجدا نفسْيهما وجها لوجه مع أحد أعوان الشّرطة فما كانا منهما إلّا أنّ همّا بالتّراجُع مسكونيْنِ بالخوف نفسه الّذي لطالما عاشاه والّذي يُترجم إلى الكلمات التّالية:

«إنّهم ينقلوننا إلى سجن آخر...»

غير أنّهما في هذه المرّة كانا مخطئيْن. فما إن تحرّك القطار مرّة أخرى حتّى قُدّمت لهما مشروباتٌ ساخنةٌ وما به يسدّان الرّمق. وُضِعت جرائد اليوم على ذمّتهما إلى جانب جهاز راديو وهاتف. حتّى أنّ الجنرال بلتران أراهما مرطبان زجاجيّ مليء بالمُربّى قائلًا:

- يُمكن أن تضعا منه في شايكما، أليْسَتِ الطّريقةُ الّتي تعتمدونها في بلدكم للتّحلية؟

تمّ قطع الستّمائة كيلومترًا الّتي تفصلُ تامبيكو عن مكسيكو في عشر

ساعاتٍ. كانت مواقع مثلَ بانوكو وتميبوال وهيجوتلا ومولانحو وباتشوكا مواقعَ مُهملةً لا يعرفها أحدٌ، وكانت ملتهبةً بحرّ الشّمس تنتشر فيها أشجار النّخيل هنا وهناك وبعض نبات الصّبار البرّي ونباتات شوكيّة أخرى. أحيانًا، كان القطار يتخلّلُ قاماتٍ حجريّة عملاقة لها ألوان الصّدف وأحيانًا أخرى يدخلُ مساراتٍ ضيّقة تحفّها من الجانبيْنِ حواجز نباتيّةٌ شديدةُ الخضرةِ. أمّا عندما يصلُ إلى إحدى المحطّاتِ فتتناقصُ سرعته ليبرزُ من الرّواق المُجانب للمقصورة ضابطٌ في زيٍّ كاكي وفي قبضته مُسدّسٌ أوتوماتيكيّ مطليٌّ بالنّيكل، كان الضّابطُ بملامحه الغريبة المختبئة خلف شاربيْهِ السّميكيْنِ يعمد إلى إسدال السّتائر ولا يفتحها إلّا بعد تجاوز الحاجز. رغم ذلك، يُتاح لليون تُروتسكي وناتاليا سيدونا بأنْ يريا صفوفًا من الباعة المتجوّلين الواقفين على مرّ المحطّة عارضين في سلالٍ ما يبيعونه من فواكه وتبغ وفطائر مُحلّاةٍ وبطاقات يانصيب وكُنفِتِ التّين الشّوكيّ وصيصان وسجائر. كانت النّسوة يضعْنَ شالًا أسود على رؤوسهنّ أمّا الرجالُ فقد كان معظمهم في ملابس تجمع الأبيض والأسودَ والأزرق أحيانًا نادرةً.

قبل كيلومتراتٍ قليلةٍ من مكسيكو توقّف القطارُ في منطقة ريفيّةٍ منبسطةٍ.

- لا تخشيا شيئًا، نحنُ نفعلُ ذلك من أجل سلامتكما. قال الجنرال بلتران.

كانت هناك سيّارتا «دودج» كبيرتان بحمرة داكنة بصدد الانتظار بجانب السّكّة الحديديّة. في السيّارة الأولى كانَ هناك «فريتز باخ» وهو مناضل اشتراكيّ من أصل سويسريّ و«أنطونيو هيدالغو» رفيق معارك قديم لإيميليانو زاباتا[1]. أمّا في السيّارة الثّانية فكان هناك ضابط شرطة مكلّف بحمايتهما. يمكن لهما الصّعود في الثّانية رفقة المرأة المدعوّة فريدا.

---

(1) إميليانو زاباتا 1879-1919، ثوريّ مكسيكيّ بارزٌ تحوّل فيما بعد إلى رمز قوميّ.

وبينما كانوا على وشك الشّروع في نقلهما إلى السيّارتيْنِ، لمحوا جمعًا غفيرًا من النّاس وقد برزوا فجأةً من الغابات المُحيطة، كانوا يلوّحون بلافتاتٍ أُعدّت خصّيصًا لاستقبال «الرّفيق تروتسكي» صادحين بأغاني ثوريّةٍ مدهشةٍ تَصْحَبُها أصواتُ أبواقٍ عسكريّةٍ وقيثارات. في الآن نفسه، برزتْ مجموعةٌ ثانيةٌ منْ خلف سيّارتيْ «الدّودج»، مجموعةٌ بدتْ معاديةً للأولى. كانت ترفعُ أعلام الحزب الشّيوعيّ وتلوّح بها في الفضاء، وكان الرّجال والنّساء الّذين يكوّنونها يغنّون أغانيَ رُكّبتْ على أنغامِ النّشيد العسكريّ لـ«بانشو فيّا»[1] من تلك الّتي تُردَّدُ في صالونات الرّقص:

الحشرة التّروتسكيّة، الحشرة التّروتكسيّة

تعجز عن المشي

لأنّها لا تصلُ، لأنّ الذّكاء ينقصها

كيْ تقاوم.

وفي الوقت الّذي كانت فيه المجموعتانِ تقتربان من بعضهما البعض، تمكّن ليون تروتسكي وناتاليا سيدوفا وفريدا كاهلو من الاندفاع إلى داخل إحدى السيّارتيْن الّتي انطلقتْ على وجه السّرعة، بينما لجأ رجال الشّرطة المُتشبّثين بجانبيْ السّيّارة إلى إطلاق النّار في الهواء في محاولةٍ لتفريق المُتظاهرين.

في بادئ الأمر، لم يرغب أحدٌ في التّكلّم. ساد الصّمتُ غريبًا داخل السّيارة، كان مزيجًا من الحزن والخوف. وكانت ناتاليا سيدوفا تتمسّك بيديْ زوجها. أمّا فريدا العالقة بين تروتسكي وباب السّيّارة فإنّها لم تكن تعرف ماذا تقول، كانت تشعر بجسد الرّوسيّ العظيم المُتقوقع على ذاته وباهتزازاته الخفيفة من حينٍ إلى آخر. وبعد انتهاء الطّريق المستوية المحفوفة بالأشجار، توغّل الموكب الصّغير في

(1) بانشو فيا 1878-1923، من أبرز القادة الثّوريّين المكسيكيّين. انظمّ للجيش المكسيك سنة 1910.

درْبٍ طويلٍ ووعرٍ قبل أن يشرع في عبور سلسلةٍ من الأحياء السّكنية الّتي كان كلّ حيّ منها أكثر فقرًا من الآخر. الحلمُ المكسيكيّ، هل هو حقًّا بصدد التّلاشي رغم أنّه وُلِدَ لتوّه؟

تواترت حركةُ الزّحام سريعًا. ومن بين سلسلةٍ من العمارات المُتصدّعةِ، ظهرت عربات التّراموای الصّفراء وهي تسير في سرعةٍ جنونيّةٍ، وحافلات الفورد غير المتوقّعة وهي مترهّلة ومكتظّة بالرّاكبين، وأمواج من السيّارات الّتي كانت تثير ضجيجًا رهيبًا مثل ذلك الّذي تحدثه الخردوات الحديديّة، وصفوفٌ لا نهائيّة من الفلّاحين ومن الجنود ومن النّساء اللائي كنّ محمّلاتٍ بالرّضّع ومن الحمير الّتي كانت ترزح تحت حمولاتٍ ثقيلة.

- نحن في مدخل مكسيكو، قالت فريدا.

كانت تلك كلماتها الأولى. ردّت عليها ناتاليا سيدوفا بإيماءة من رأسها والجالسُ إلى جانبها بابتسامةٍ.

مكسيكو المدينةُ المُصمّمةُ على شكل رقعة شطرنج والّتي شُيّدتْ على أنقاض عاصمة الحضارة الأزتكيّة التّاريخيّة، بدتْ شوارعُها من تحت سماءٍ كأنّها من البورسلين ممتدّةً على مدى شبكاتٍ ومربّعاتٍ خضراء ومباني استعماريّة يغزوها الغبارُ، هذا بالإضافة إلى بعض العمارات الحديثة المُنتشرة هنا وهناك والّتي كانت في طوْر البناء وأخرى ما تزالُ في طوْر الهدم. لم يكن ليون تروتسكي وناتاليا سيدوفا يصدّقان ما تراه أعينهما، كانَا مندهشين وهما يكتشفان مدينةً لا تُشبه أيّ مدينة شاهداها من قبل، بحيطانها المغطّاة بلوحاتٍ جداريّةٍ هائلة رُسمت لتمجّد فضائل الفلّاحين والعمّال وأنصار «زاباتا» ولتسخر من الرأسماليّين والمحافظين والكهنة الّذين كانوا يبدون في هيأةٍ ذليلةٍ بوجوههم الّتي يغلبُ عليها التّجهّم. لقد بدت مكسيكو مدينةً في طور الانتقال من حالة إلى أخرى بحقّ، انتقالٌ لا يخلو من بعض السّمات العريقة الّتي تعود إلى عصور غابرة. قالت فريدا مفسّرةً:

- ظلّتْ مكسيكو مدينةً مسطّحةً لزمنٍ طويلٍ. لقد كانت عبارةً عن مبان قليلةٍ مكوّنةٍ من أكثر من طابقيْنِ بينما كانت سطوحها تُكوّن مدينةً ثانية فوق الأولى.

كانت ناتاليا مسكونةً بالوساوس لذلك سألت عن الفندق الّذي سينزلان فيه. انفجرت فريدا ضاحكةً ثمّ أجابت:

- لكنّكما، ستقيمان عندنا في كويواكان!

أبدى تروتسكي بعض القلق. كان يشعر كأنّ سيّارة الدّودج بصدد العبور من شوارع عبرتها من قبل.

- غران فيرّيتيريا دي لا بالما، قال ملاحظًا، لقد مررنا من هذا المكان مرّتيْنِ.

لم تُتح له فريدا إنهاء جملته:

- ذلك متعمّدٌ، من أجل مغالطة العدوّ... كلّ شيء يسير على ما يُرام، اطمئنّا.

كان يمكن لليون تروتسكي وناتاليا سيدوفا أن يكونا سعيديْنِ لولا هذا الكائن الغريب الّذي كان برفقتهما منذ بداية الرّحلة. فهما المحميّان داخل «الدّودج» المنيعة يبدوان مثل سائحيْنِ بصدد اكتشاف مدينةٍ ورديّةٍ تنتشر فيها الكنائسُ والقصور والفنادق الخاصّة الّتي تُحاكي فنادق باريس والمباني ذات الرّدهات الكبيرة المطليّة حديثا والمزيّنةُ بشرفاتٍ حديديّةٍ. ظلّت السيّارةُ مُستغرقةً في رحلتها عبر شوارع ضيّقة وأخرى واسعة. وكان يتهيّأ لهما رؤية عاشقيْنِ يتبادلان القبل في صمتٍ في كلّ زاوية من زوايا الشّوارع الّتي يمرّان بها.

أمام وزارة الحربيّة، ظلّت ناتاليا سيدوفا ترمُقُ الجنود في أزيائهم الزّيتونيّة الّذين كانوا بصدد تغيير نوبات الحراسة بضرب أعقاب بنادقهم على صناديق الذّخيرة. شعرت المرأة بما يُشبه الاطمئنان. أمّا عندما انعطفت «الدّودج»

مع شارع المتمرّدين لتتوغّلَ فيه بكلّ السّرعة الممكنة، شعر ليون تروتسكي ببعض الاسترخاء. فكويواكان، المدينة الّتي يقصدونها هي إحدى الضّواحي الواقعة على تخوم مكسيكو. هذه التجمّعات السّكنيّة الّتي بدأت بالانتشار في مساحات تفصل المدينتيْنِ لم تكن في الماضي أكثر من مجرّد مستنقعاتٍ وأراض ممتدّة. من شبابيك «الدّودج» نصف المفتوحة، تسلّلت نسمةٌ باردةٌ محمّلةٌ برائحة الأوكالبتوس والنّخيل المنتشرة في منتزهاتٍ غير بعيدةٍ.

أخيرًا، تباطأت السّيّارتان وتوقّفتا عند زاوية التقاء شارعيْ الأليندي ولندن.

- ها قد وصلنا، قالت فريدا مشيرةً إلى بيتٍ كبيرٍ غير بعيدٍ، بيتٍ ذي طابقٍ واحدٍ جدرانُهُ مطليّةٌ بالأزرق «الكوبالت» الصّارخ، تخترق الجدرانَ شبابيكُ بمربّعاتٍ زجاجيّةٍ صغيرةٍ. وكانت الأشجارُ تُلقي بظلالها المتحرّكةِ على صَفٍّ من المصاريع الخشبيّة الخضراء.
- ما أروع هذا اللّون! قالت ناتاليا سيدوفا.
- إنّه لونٌ يتماشى كثيرًا مع الأحمر والأخضر، إنّه اللّون الّذي يحميك من الأرواح الشّريرة، أجابت فريدا.

كان في انتظارهم شخصٌ عملاقٌ مستندٌ بظهره إلى باب البيت وكان غارقًا في تأدية حركاتٍ ترحيبيّةٍ واسعةٍ.

- هل هو دييغو، دييغو ريفيرا؟ سأل تروتسكي واضعًا يده على يد فريدا.
- نعم. أجابت بكلّ بساطة، وهي تشعر بالارتياح على إثر نجاحها في أداء مهمّتها دونَ عوائق.

8

اندفعت المجموعة الصّغيرة سريعًا إلى داخل البيْتِ في أجواء من القبُلات والأحضان. فيما عدا الحادثة الّتي جدّت عند مغادرتهم القطار، يمكن القول إنّ الأمور تمّت على أحسن وجهٍ. ثمّة لحظةٌ خاطفةٌ توقّف خلالها الزّمنُ: تلك اللّحظة الّتي تلت معانقة دييغو ريفيرا وليون تروتسكي، اللّحظة الّتي نظرا فيها إلى بعضهما البعض. بالنّسبة لدييغو ريفيرا، فإنّ ليون تروتسكي هو الرّجل الّذي كان لينين قد اختاره، وهو الأجدر بقيادة العملاق السّوفييتي، والوحيد الّذي حافظ بشكل ملموسٍ على الحالة المثاليّة للثّورة، الرّجل الّذي يُعجبه أكثر من غيره في هذا العالم والّذي رسمه في جداريّاته الشّهيرة على أنّه «زعيم الطّبقة الثّوريّة العالميّة». أمّا بالنّسبة لتروتسكي، فإنّ الرسّام المكسيكيّ هو ذلك المناضل الشّرس ضدّ القوى الرّأسماليّة الغاشمة وضدّ كلّ أشكال الاستغلال. إنّه الّذي صرف كلّ الأموال الّتي جناها من مؤسّسة روكفلر في رسم نسخةٍ من جداريات «راديو سيتي» على مباني المدرسة الجديدة للعمّال، والّذي وضع لينين في قلبِ جداريّته الأشهر الّتي عنوانها: «الإنسان، سيّد الكون». نعم، هذا هو دييغو ريفيرا الّذي حيّاهُ على أنّه «أعظم من ترجم الثّورة الرّوسيّة إلى فنّ»، والّذي بفضله أيضًا، ها هو يستعيد حريّته وكرامته.

- الفنّ عندما يكونُ جيّدًا مثل فنّكَ، يسمو بروح الإنسان، قال تروتسكي.
- السيّاسة، عندما تُمَارَسُ من قِبَلِ أناسٍ مثلك، تجعل الإنسان في حالٍ أفضل، أجاب ريفيرا.

استمرّت محادثة الرّجليْنِ إلى أن انتهت بهما إلى استنتاجٍ واحدٍ أوحد: لقد أصبحت سياسةُ اليوم أكثر تدميرًا ممّا كان عليه الدّين في القرن الخامس عشر.

فريدا، وهي تأخذ ناتاليا سيدوفا من ذراعها، اقترحت عليهما أن يقطعا هذه المحاورة السيّاسيّة حتّى يستريح الضّيفان وأنْ ترافقهما في جولةٍ للتعرّف على هذا المنزل حيثُ ولدتْ، المنزل الّذي أصبح منزلهما هما أيضًا:

- كما أقترح بأن يكفّ كلّ واحد منّا على مخاطبة الآخر في صيغة الجمع. اللّعنة، نحن لسنا بورجوازيّين!

يتكوّن المنزل المضاءُ بشكلٍ كبيرٍ ممّا يقارب خمس عشرة غرفةً، وهو يغصّ بالزّهور والتّماثيل الصّغيرة العائدة إلى زمن ما قبل كولومبس وباللّوحات الفنيّة أيضًا. هناك غرفٌ كثيرة على ذمّتهم، واحدة للحرس الشّخصيّ، وغرفة طعام حيثُ تتركّز طاولة مربّعةٌ من خشب الصّنوبر وخزانة ملابس، في هذه الغرفة يمكن لهما استقبال كلّ الأصدقاء الّذين يرغبان في الالتقاء بهم، كما يوجد مطبخ حيثُ يتوفّر ما لذّ وطاب من الطّعام وأخرى شاسعةٌ ومضاءةٌ أكثر من غيرها تمّ إفراغها من كلّ دمى يهوذا المصنوعة من العجين الورقيّ الّتي كانت تملؤها وهي الغرفة الّتي يمكن لتروتسكي أن يجعل منها مكتبَهُ إلى جانب الغرفة الّتي وُضعت فيها حقائب ناتاليا وليون. ما تزال هناك غرفتان إضافيّتان وهما مغلقتان إلّا أنّهما تصلحان أنْ تكونا مخزنيْنِ. وأخيرًا، هناك غرفةٌ مليئة بالطّاولات والكراسي ورفوف كتب غير مرتّبةٍ بعد. المنزلُ كلّه على هيئة نصف دائرةٍ تحدّ فناءً وبوّابات كبيرةٍ مفتوحةٍ على بعضها البعض.

- هذا الفناء يعود إلى ما قبل زواج والديّ، قالت فريدا. كان يُستخدم كغرفة طعامٍ خارجيّة. عندما كنتُ طفلةً، أقمنا فيه عديد الحفلات.

لم تستطع ناتاليا حَبْسَ دُموعِهَا وهْيَ ترى النّباتات الاستوائيّة الّتي كانت تتشبّث بالجدران وباقات عبّاد الشّمس المُنطلقة في الفضاء من مزهريّات عملاقةٍ صُنِعت من الفخّار والعدد الكبير من طيور الحَمَامِ الّتي كانتْ مُقيمةً في أعشاشها المبنيّة في بعض الأواني. في وسط الفناء تماما، كان هناك هرمٌ ذو مُدرّجاتٍ تتركّز

عليها عدّةُ تماثيل تعود إلى عهد ما قبل كولومبوس. وكان نقيق الببّغاوات يأتي من بين أوراق شجرة الجكرندة بأزهارها الأرجوانيّة الهائلة. كان هنالك طيورٌ من كلّ الأنواع بصدد الغناء أو الصراخ في أقفاصها وهناك أشجارُ البوغنفيليا والبرتقال ونباتات الصبّار الّتي كانتْ تؤلّف مجتمعةً جنّةً صغيرةً داخل هذا الفناء أين يُمكن التّجوّل والتّمتّع بأشعّةِ الشّمس. إذا ما أضفنا إلى كلّ ما تقدّم القطط ذات الشّعر الكثيف والكلاب ذات الألوان الغريبة، فإنّ هذا الفناء يشكّل وحده كونًا قائمًا بذاته، سفينةَ نوحٍ الّتي ستُنجيهما من موتٍ محتومٍ.

لا يمكن لهذا الجمال أنْ يُنسيَهم الواقعَ. غير أنّ دييغو كانَ مطمئنّا. لا وجود لما يدعو للقلق، فقد أُتُّخِذت كلّ التّدابير اللّازمة لحمايتهما. تمّ غَلْق النّوافذ المطلّة على الشّارع نهائيًّا، تمّ شراء المنزل المجاور بحديقته لتجنّب أيّ هجومٍ يمكن أنْ ينطلق منه، ثمّة جدارٌ من الآجر ينبغي بناؤه في أسرع ما يمكن وذلك من ناحية الرّصيفِ الواقع أمام المدخل مباشرةً. كما تمّ الاتّفاق على تمركز ضبّاط شرطةٍ أمام المنزل طوال النّهار وعلى تخصيص حرسٍ خاصّ- متركّبٍ بالأساس من تروتسكيّين مكسيكيّين وعملةٍ من صفوف الشّباب والمعلّمين والمثقّفين- والّذي سيتعاقبون على الحراسة الليليّة، وهم يكوّنون قرابةَ الثّلاثين رجلًا مُسلّحًا. سيضطلع شقيق «لوبي مارين»، زوجة دييغو السّابقة بمهمّة طبيبهما الشّخصيّ، وسيوضعُ عددٌ كافٍ من الخدم على ذمّتهما لتلبية كلّ ما يرغبان فيه.

انتهوْا من جولتهم داخل الكازا أزول[1]، لذلك قرّر دييغو وفريدا الانسحاب حتّى يسمحا لضيفهما ببعض الرّاحة. أبدتْ ناتاليا بعض الحرج. أن يتركا لهما منزلهما، هذا جيّد، لكن، إلى أين سيلجآن؟ انفجرت فريدا ضاحكةً.

---

(1) الكازا أزول: تعني البيت الأزرق. اخترنا الإبقاء على تسميتها في لغتها الأصليّة، لأنهّا التّسمية الأكثر شيوعًا.

- عندما لا نكون منفصلين، والانفصالُ أمرٌ يحدثُ غالبًا، فإنّنا نعيش في سان أنخيل، وهو حيّ قريبٌ جدّا من هنا! حتّى أنّه بإمكاننا أن نزوّدكم بالبهارات متى احتجتموها في مطبخكم!

لم تكن فريدَا تعتقد أنّ بإمكانها أنْ تُجيبَ أفضل ممّا أجابتْ. بعد أقلّ من ربُع ساعةٍ من مغادرتهما، عاد دييغو مدفوعًا بعدم الاطمئنان على ضيفيْهِ، عاد مسلّحًا بمدفع رشّاش من النّوع «طومسون» لحراستهما بنفسه. تمكّن ليون في نهاية المطاف من إقناعه بضرورة العودة إلى منزله. لأنّه كانَ مسلّحًا بدوره ومحميًّا كما ينبغي أن تكونَ الحمايةُ من طرف ضبّاطٍ مختصّين وهو لا يريدُ أنْ يبدوَ مُجْحفًا في استغلال حسن ضيافتهما. رضخ دييغو لطلبه مرغمًا، وغادرهما من جديد بعد أن عانق ليون بحرارة وبعد أن قبّل ناتاليا بعمقٍ. ناتاليا الّتي كانت ترشق عينيْها على كاتدرائيّة تامبيكو من نافذتها والّتي تذكّرت ما قالته خلال ذلك اليوم: «لا، ها هنا يبدأ كلّ شيء. نحن في كوكبٍ جديدٍ، كوكب فريدا ودييغو».

كانت ليلة ليون الأولى ليلةً مضطربةً. فَفِي الوقت الّذي كانت فيه ناتاليا مُستغرقةً في نومها بعمق، نهض هو عديد المّرات. كانَ في كلّ مرّة يلجأ إلى الفناء أين كان يحاول استنشاق روائح الفجر أو رائحة طمي البُحيرة الآزتكيّة أو رائحة زبد سكّان المكسيك الأصليّين، حاول ذلك مرارًا دون جدوى. لا شيء يمكن فعله حيال ذلك. عادةً ما ترفضُ الرّوائح الغابرة العودةَ- تلك الرّوائح الّتي طالما قرأ عنها في الكتب الّتي حدّثتْهُ طويلًا عن المكسيك، روائحُ لا تختلف كثيرًا عن الأحلام. في النّهاية، استيقظت ناتاليا وانضمّتْ إليه.

9

في الأيّام الّتي تلتْ إقامتَهُمَا في الكازا أزول استرجع تروتسكي حماسه الّذي لطالما ظنّ أنّه فقده إلى الأبد. لم يكن مَقْدَم «جون فان هايجونورت»، الشّابّ الوسيم وطويل القامة ذو الخمسة وعشرين عامًا، الّذي أصبح منذ أكتوبر سنة 1932 سكرتيرَهُ الخاصّ ومُترجمَهُ وحارسَهُ الشّخصيَّ إلى هذا المنزل بالحدث الهيّنِ. لقد تمكّن في وقتٍ قصيرٍ من تركيز مكتبه وتعيين مساعديه وتوزيع مهمّة كلّ واحد فيهم، حتّى أنّه تمكّن من العثور على رقّانةٍ روسيّة بارعةٍ، «ريتّا جاكوفليفنا»، الّتي شرعتْ في العمل منذ السّادس عشر من يناير. كان تروتسكي قد وضع خطّة عملٍ تهدف بالخصوص إلى تغطية النّفقات الجارية: نظّم ندواتٍ تخوض في القضايا السّياسيّة الرّاهنة، أجرى مقابلاتٍ صحفيّةً مدفوعةَ الأجر، بل وتجاوز ذلك إلى بيع نُسخٍ من مراسلاته السّياسيّة. وإذا تبيّن أنّ كلّ ذلك غير كافٍ فإنّه مستعدّ ليقترح على أحد النّاشرين إنجاز سيرة لِلِينين وأخرى لِستالين نفسِهِ، الأمر الّذي استنكرته ناتاليا تمامًا، لأنّها تعتبر كتابة سيرة ألدّ أعدائه وأشرس منافسيه حطًّا من قيمته في نظر الجماهير.

في الأيّام الأولى، أباح تروتسكي لنفسه التّمتّع برفاهيّة القيام بجولاتٍ قصيرةٍ في شوارع كويواكان، المدينة الّتي كانت والدة فريدا تُسمّيها «القرية». وهكذا أصبح من الممكن رؤيته غير بعيدٍ عن ساحة «هيدالجو» ومنتزه «السُّونتونير» أو بالقرب من القنوات المائيّة القديمة ذات الأسيجة النّباتيّة اليانعة وصولًا إلى ساحة «الكونسبسيون» أين يوجد بيتٌ قديمٌ مطليّ بالأحمر القاتم، بيتٌ يُقال إنّه كان ينتمي للدّونا مارينا، رفيقة درب «كورتيس»، والّتي تحوّلت فيما بعدُ إلى إحدى رموز الخيانة والتّخابر مع الدّول الأجنبيّة.

لكن، إذا كان تروتسكي بصفته السّياسيّة قادرًا على تأسيس فريقٍ فعّالٍ في وقتٍ وجيزٍ وعلى اتّخاذ كلّ الاحتياطات اللّازمة في تنقّلاته، احتياطاتٌ وصلت إلى درجة رفضه دعوة من الجنرال كارديناس، لأنّه شعر أنّ أعداءه لن يتردّدوا في قراءة نوعٍ من التّواطؤ بينه وبيْن الرّئيس المكسيكيّ، فإنّه بصفته الإنسانيّة كانَ عاجزًا على مجابهة تفاصيل الحياة اليوميّة.

حتّى أنّه ذات صباح، وحينَ طرقت كريستينا الباب، وهي شقيقة فريدا الصّغرى الّتي كانتْ مُجْبرةً على مغادرة الكازا أزول وتركه لتروتسكي بعد أن كانت تقيم فيه مع أطفالها، جاءت لتأخذ بعض الملابس الّتي نَسِيَتْها في غمرة خروجها الطّارئ. وبما أنّ لا شيء في الحياةِ يحدثُ مصادفةً، فإنّ تروتسكي نفسه كان في استقبالها بعد أنْ سمح لها ضبّاط الشّرطة بالدّخول إلى المنزل الّذي كان ملكًا لها منذ وقتٍ ليس بالبعيد.

كانت الشّابّةُ قصيرةً، مُمتلئةَ الجسم، جميلةً وجذّابةً بميْلِ زُرقة عينيْها الواسعتيْن إلى الخضرة، وكانت شقيقةَ فريدا قبل أن تكونَ يدَها اليُمنى، شقيقتها الّتي تُشارِكها في كلّ صغيرةٍ وكبيرة، في الأفراح والأطراح. وبما أنّ ناتاليا لم تكن في المنزلِ فقد أُتيح لتروتسكي البقاء معها لبعض الوقت أطلعتْهُ خلاله على بعض جوانب حياتها. أسرّت له بروحها المرحةِ بحقٍّ أنّها على عكس فريدَا الّتي يرى فيها الجميع كلّ الميزات المُمكنة، تُلقّبُ بـ«الشابّاريتا» أي القزمة. وأنّ الجميعُ يعتبرونها خرقاءَ وغبيّةً وأنّهم يستكثرون عليها تمتّعها بكامل صّحتها في حين أنّ أختها ضاقت الأمرّين في مواجهة عدّة عمليّاتٍ جراحيّةٍ وحوادث سيرٍ إلى جانب أمراض عديدةٍ أخرى.

لم يتمّكن تروتسكي من قول شيء، كان واقعًا تحت سحرها. ظلّت الانفعالاتُ تتقاذفه دون أن يجد لها أيّ تفسير إلى أنْ قفزت الشّابّةُ من مكانها كما تقفز الرّاقصة سائلةً إيّاه إن كانَ قد شاهد الرّسمة الّتي أنجزتها لها أختُها.

- أيّ رسمةٍ؟ سألها.

- هذه المعلّقة خلفنا مباشرةً، فوق الأريكة!

كانت كرستينا في اللّوحة المقصودة ترتدي رُوبًا أبيض وكانت مكشوفة الصّدر...

وقبل أن تغادر ويداها مُحمّلتان بأكياس تحتوي على الملابس الّتي جاءت لأخذها، أجبرت تُروتسكي على أن يعدها بمرافقتها ذات يومٍ ليقدّم لها الآيس كريم أو عصير جوز الهند المُصقّع في «البلاتزا»، البار الأكثر شُهرةً في كويواكان.

منذ ذلك اليوم، لم يَكُفَّ تروتسكي عن السّعي وراء اكتشاف المكان الّذي تعيش فيه كريستينا، وهو في الحقيقة، يقعُ على بُعد بضع بناياتٍ قليلةٍ في شارع لندن. كان تُروتسكي يقضي أيّامه في وضع الاستراتيجيّات وتوجيه الأسئلة حتّى أنّه تخلّى عن عمله نهائيًا ليُسَخِّرَ معظم وقته في محاولة العثور على عنوان الشّابّة. أبدى «جون فان هايجونورت» معارضته الشّديدة لمشروعه ذلك، فحاول أنْ يُثنيَه عنه بدفْعِهِ إلى الاستمرار في إملاء كتاباته. لكنّ تروتسكي الّذي كانَ يقضي ساعاتٍ وساعاتٍ أمام لوحة المرأة ذات الرّوب الخليع بدا أبعد من أنْ يتراجع عمّا أقدم عليه. لم يعد هناك شيء آخر يهمّه، إلى درجة أنّ ناتاليا الّتي لم تكن تشكّ في شيءٍ بطبيعة الحال كانت قد استخدمتْ كلّ الوسائل لإقناعه بقبول الدّعوة الّتي وُجِّهت إليهما من قِبَلِ فريدا وديبغو للاحتفال بمقدمهما مُعتذريْنِ عن عدم إقامته قبل ذلك.

- لا يمكننا الرّفض يا ليون. هذا مستحيلٌ، مستحيلٌ. قالت ناتاليا حازمةً.

- لن ننجح في العثور على منزلهما...

ناتاليا الّتي كانت في العادة هادئةَ الطّباع وجدتْ صعوبةً كبيرةً في الحفاظ على هدوئها.

- إنّه على بُعد بضعة شوارع من هنا، في مفترق بيْنَ شارعي «كالي بالماس» و«أفينيدا ألتافيستا»، ليس الأمر معقدًا بالمرّة!
- كلّ المنازل متشابهةٌ...
- هما بنايتان مكعّبتان متقابلتان يجمع بينهما ممرّ صغير: البناية الوردية الكبيرةُ خاصّة بدييغو، أمّا البناية الصّغيرة الزّرقاء فهي لفريدا حيثُ تقيم ورشتها، حولهما هنالك سياج من نباتات الصبّار ذات الجذوع الأنبوبيّة، هل رأيت في مكسيكو بناياتٍ كثيرةً شبيهةً بهاتيْنِ البنايتيْن؟ وأضف إلى ذلك أنّ جون درس الطريق جيّدًا.
- إنّها مؤامرة، أقسمُ على ذلك. لقد قضيتُ حياتي في مواجهة المؤامرة تلو الأخرى. ما أنت إلّا متآمرةٌ يا ناتاليا إيفانوفا سيدوفا!
- وما أنت إلّا رأس بغل، يا ليف دافيدوفيتش برونشتاين، أجابتْ وهي تبتسمُ لأنّها تأكّدتْ حينذاك من وصولها إلى مبتغاها.

10

- بمسدّس في اليد، أيّها الحقير! زعق دييغو وهو واقفٌ فوق كرسيّه ساكبًا للمرّة الألف كأس التّكيلا في جوْفِهِ.

حول الطّاولة المزيّنة بأكاليل من الورود الحمراء المُشكّلة لعبارة «يحيا تروتسكي»، اجتمع ما يقاربُ الثّلاثين شخصًا الّذين كانوا يناوشون المتحدّث بالتّصفيق وإطلاق الصّرخات العالية وتقليد أصوات الحيوانات. أنطونيو هيدالغو، الموظّف السّامي صلب الدّولة، مرافق تروتسكي ومنسّق العلاقات بين الحكومة ومختلف الأجهزة الأمنيّة السّاهرة على حمايته، تكفّل بأنْ يُقدّم بعض المعلومات الخاصّة بالحاضرين:

- هُنا، غوادالوبي مارين، زوجة دييغو السّابقة. هناك، خوان غوزمان، مصوّر فوتوغرافيّ مولودٌ في ألمانيا. على يساره، تشوتشو بايسايجيس، صديق فريدا منذ الطّفولة. تلك، هي أورورا رايس، رسّامة اللّوحات الجداريّة. وذاك، هو كارلوس شافيز مدير الأوركسترا السّمفونيّة...

قاطع دييغو الاستعراض فجأة، تهيّأ لتقديم إعلانٍ رسميٍّ مَهيبٍ حتّم الصّمت المطلق:

- سيّداتي وسادتي، ليون تروتسكي وناتاليا إيفانوفا سيدوفا.

وجهٌ مكلّلٌ بشعر رماديّ، هيئةٌ متعاليةٌ، جسمٌ في تمام اعتداله، صدرٌ قويّ، ظهرٌ عريضٌ وصلبٌ، هكذا رأت فريدا رجلًا لم تتسنّ لها رؤيته كما ينبغي من قبل، رجلًا ظنّت أنّه قصيرٌ لسبب لا تعرفه، في حين أنّ طوله قد يتجاوز المتر وثمانين سنتمترًا. بدتْ فريدَا واقعةً تحت سحره، لذلك أعلنت:

- ليجلس ليون على يميني وناتاليا على يساري.

ثمّ طلبت من الجالسين فسح المكان لهما، الأمر الّذي أثار صخبًا بهيجًا.

اتّخذ «جون فان هايجونورت» و«أنطونيو هيدالغو» مكانيْهما وهما مسلّحان بمسدّسين مشدوديْن إلى حزاميْهما، وقفا أمام المنفذيْنِ الوحيديْنِ المفتوحيْنِ على المطبخ الفسيح حيثُ تدور مأدبة العشاء: الباب والنّافذة.

- اسمحوا لي، أيّها الأصدقاء الأعزّاء، بأنْ أعيد الحكاية من بدايتها...

- لتفعل ذلك ونحن نأكل أرجوك، قالت فريدا مُقاطعةً ومشيرةً للخدم بأن يشرعوا حالًا في وضع الطعام ثمّ أضافت موضّحةً بصوتٍ عالٍ: بعد عقود من الهيمنة البرجوازيّة والأطعمة الفرنسيّة، يسرّني أن أدعوكم إلى وجبة مكسيكيّة صِرْفَةٍ: فلفلٌ حلو محشوّ، إكليل الجبل اليانع على فطائر الجمبري والتّين الشّوكي، الفاصوليا السّوداء المقليّة المغموسة في الجبن وأخيرًا فطائر الذّرة المقرمشة.

- تلك أطباقي المفضّلة، قال دييغو مُتوجّها للوافديْنِ الجديديْن، منزّلًا حكايته في السّياق نفسه.

دافيد ألفارو سيكيروس، أحد أهمّ ركائز الحزب الشّيوعيّ المكسيكيّ وواحد من الثّلاثة الّذين يُعَدّون من أعظم رسّامي الجداريات إلى جانب خوسيه كليمنتي أوروزكو ودييغو، كان قد اتّخذ منذُ زمنٍ بعيدٍ موقفًا حاسمًا وواضحًا، موقف المُتعصّب المطلق، في تعريفه لنفسه على أنّه «فنّانٌ جنديّ». فبعْدَ أن شارك سيكيروس في الثّورة المكسيكيّة وفي الحرب الأهليّة الإسبانيّة صار الجميع يعتبرونه قاتلًا حقيقيًّا. وكان من أشدّ معارضي دييغو ريفيرا عندما أعلن عن مغادرته للحزب، لكنّه لم ينجح البتّة في الحطّ من قيمته. وما زاد الطّينَ بلّةً، أنّ الدّيكيْن المتناحريْن وجدا نفسيْهما يعتليان المنصّة نفسها على إثر اجتماعيّ شعبيّ جدّ في مكسيكو قبل أيّام قليلةٍ.

- ذلك الوغد وصفني بـ«الثّوريّ المزيّف» وبـ«الانتهازيّ الحقير»، لقد صرخ في الميكروفون ليعلنَ على الملإ أنّ عملي كان عمل «صنائعيٍّ بسيطٍ ذي مخيّلةٍ محدودةٍ».

- وكيف كان ردّة فعلك؟ سألت المؤرّخة أنيتا برينّر وهي تسقي حبّات الفلفل المحشوّة أمامها بمرق يجمع مذاقه بين الحلاوة والحموضة.

- وصفته بالقاتل، قلت له إنّه كان من الأجدر أنْ يعنونَ لوحته الجداريّة «مسيرة الإنسانيّة نحو الثّورة» بـ «مسيرة لاعقي مؤخّرة ستالين» ثمّ أشهرتُ مسدّسي.

- مسدّسك؟ قالت زوجة تروتسكي في ردّ لم تتمكّن من حبْسه.

- نعم يا ناتاليا، مسدّسي.

- وماذا بعد؟

- أخرج مسدّسه هو الآخر، ورحنا نلوّح بالمسدّسيْنِ من فوق رأسيْنا دون أن نكفّ عن تبادل كلّ أنواع الشّتائم.

- هذه هي المكسيك... همست فريدا في أذن ليون.

تابع دييغو قوله:

- ثمّ أطلقنا النّار في الوقت نفسه. تسبّبنا في تساقط بعض شظايا الجبس من السّقف، بدأ الحاضرون بمغادرة القاعة. ثمّ أُعْلِن عن وصول الشّرطة، فما كان منّا إلّا أنّ رحلنا كلٌّ في اتّجاهه، هذا في انتظار المرّة القادمة! أعدكم بأن أطلق النّار على خصيتيه!

أخذ الكلمةَ سالفادور نوفو، الشّاعرُ، والصّحفيّ الشّهيرُ وهو إلى جانب ذلك عشيق فريدا السّابق، كانت لكلماته وقعُ الاستنتاج:

- وهكذا يا أصدقائي الأعزاء وجدتُ عنوان مقالتي القادمة. سأصف هذه الدّراما السياسيّة الجماليّة بـ«التمثّل البارع للصّراع السّتالينيّ ضدّ

البلشفيّة اللّينينيّة».

- وأنت ماذا ترى، يا عزيزي ليون؟ سأل دييغو.

سارعت فريدا إلى أن تجيب في مكانه:

- أصدقائي الأعزّاء، أيّتها الرّفيقات والرّفاق. ليون لا يرى شيئًا، إنّه غارق في اكتشاف المطبخ المكسيكي وإنّه يريد الأكل في سلام!

أمام ذهول تروتسكي الّذي بدا بوجهه مُتعوّدًا على كلّ شيء إلّا على أنْ يتعرّض لمثل هذا الموقف، انفجر الجميع ضاحكين، وكان هو، العظيم ليف دافيدوفيتش برونشتاين أوّل الضاحكين، بدا مُعجبًا بوقاحة فريدا، هذه المرأة الّتي تريد استغلال كلّ لحظات الحياة، إذ العالم من حولها ليس إلّا ذريعةً أزليّةً للعبث.

حتّى وأن حاول البعض في مناسبات كثيرة العودة بالحديث إلى السّاحة السّياسيّة بهدف معرفة إن كان للمكسيك الحقّ في الّتفاخر بكون ثورتها سبقت الثّورة الرّوسيّة بسبعة أعوام، فهي الّتي فتحت الباب على مصراعيْه للمطالب البروليتاريّة في القرن العشرين، إلّا أنّ المواضيع الّتي أثيرت خلال السّهرة كانت أخفّ بكثيرٍ. كانَ ليون تروتسكي في قمّة السّعادة وهو يلمس حياةً من نوعٍ آخر، ويكتشف طريقةً مُغايرةً للوجود والتصّرف.

- ينبغي الاحتفال بكلّ شيء، ما فتئت فريدا تقول، ينبغي الاحتفال بالولادات الجديدة وأعياد الميلاد وكلّ الحفلات الشّعبيّة والدنيويّة والدّينيّة- ينبغي الرّقص دائمًا حتّى مع الأموات.

كأنّه لم يضحك بهذا الشّكل منذ عقودٍ، ضحكًا بلا شيء يقيّده ولا ندمٌ. هذا ما ذكّره بإقامته في باريس بين سنتيْ 1914 و1916، قبل أنْ ترحّله السّلطات الفرنسيّة. لم تكن الحياةُ حينذاك تُكلّف شيء. كان وأصدقاؤه في «مونبارناس» يقضون ساعاتٍ طويلةً حول طاولات مقهى «الرّوتاندا» أو «الدّوم» ويتدفّؤون

بقهوة بالحليب وبالتّخطيط لتغيير العالم. ذات يومٍ، أعطاه لِيبْيُونْ صاحبُ «الروتاندا» 5 فرنكاتٍ ثّم قال له: «اذهب لتجد لك امرأة، فإنّ لك نظرة مجنون». يا لذلك الشّباب وتلك الحريّة وذلك اليقين بأنّ كلَّ شيءٍ على ما يُرام وجديد، ها إنّه يعثر على تلك الثّقة هنا، كأنّها لم تهتزّ يومًا.

في قلب هذا الجَمْع النّافر، القائم على الضّحك والاستفزازات، على بعض أشكال الحريّة الذّكية، ينبغي القول إنّ فريدا كانت ملكة الحفل دون منازع. وإذا ما كانت خلال الجزء الأوّل من السّهرة على ذمّة دييغو فإنّها في الجزء الثّاني كانت ملكًا لنفسها بالكامل. قضت ساعاتٍ وهي تُردّدُ بصوْتها الرّفيع أغانيَ «الكورّيدوس» وأبياتًا من «الماليغوانا»، وهي تشتُمُ مثل سوّاق العربات المجرورة، وهي ترصف عبارات سيئةً على أخرى أكثر سوءًا، وهي تستنبط أسماء تصغير في كلّ مناسبة تُكيّفها مع كلّ شخصٍ من الحاضرين، «دكتوريكوس» لأصدقائها الأطبّاء، «شوليتوس» لأصدقائها الذّكور، «شاباريتاس» للنّساء قصيرات القامة، أطلقت على نفسها أسماء مثل «التشيكيتا»، «فريدوتشا»، وكانت لا تُنهي جملةً دون أن تكلّلها بقهقهةٍ قويّةٍ.

-«الكاركاخادا».

في هذا البلد، وبرغم الثّورة، فأنّ المرأة ظلّت في وضعيّة تمنٍّ، حتّى في المناطق الميسورة فإنّ النسّاء لأجل خدمة رجالهنّ لا غير، فَيَبْقِينَ واقفاتٍ طوال تناول وجبة العشاء، لذلك كانت فريدا تُعامل على أنّها استثناءٌ رائعٌ.

حوالي الثالثة صباحًا، عاد الجميع إلى منازلهم.

كان «ليونسيتو» ثملًا وسعيدًا. «ليونسيتو» هو الاسم الّذي أطلقته عليه فريدا قبل أن يقبّلها من ثغرها ويُلقي بنفسه داخل السّيّارة. كانت ناتاليا بعيدةً على أن تتقبّل مبالغة مضيّفتها وخصوصًا عندما عبّرت صراحةً عن رغبتها في عيْش تجربة «الظاهرة المثليّة الأنثويّة» بكلّ تفاصيلها، الأمر الّذي لا يمكن ألّا يترك في تروتسكي أيَّ أثرٍ.

- هل تذكُرُ ما قلته لي بعد حفلة ليلة رأس السّنة عندما كنّا في منزل كامينيف سنة 1926؟

- لقد مرّ على ذلك عشر سنوات، الأمرُ من الماضي البعيد. أجاب.

- قلت لي حينذاك: «لا يمكن لي أن أتحمّل هذا! خمور وفساتين وثرثرة! كأنّنا في مبغًى!»

- أنت محقّة يا ناتاليا. في ذلك الزّمن، لم أكن أدخّن ولا أشربُ الخمور. كنت أنام منتصف اللّيل. وكانت تسليتي مقتصرةً على الصّيد البرّي أو البحريّ. كنت أسعد بمجرّد جولةٍ بين القصب كلّ فجر، بمراقبة البطّ البريّ، بنصب الشّباك، بتسلّق مرتفعات غابةٍ تسلّقا ينتهي بإطلاق النّار على دبّ بنيّ. كان هناك رياحٌ عاتية وثلوج وماء متجمّد. لكن، في هذا البلد، ثمّة حياةٌ أخرى على ذمّتنا يا ناتاليا. وهذه الحياة تروق لي. في حدود الّذي وصلنا إليه، سيكون من الأفضل لنا أن نعيش كلّ لحظةٍ بعمق، أنت تعلمين...

لم يكن تروتسكي يعتقد أنّه قادر على التّحدّث بهذه الطّلاقة ذات يوم. كان على «جون فان هايجونورت» أن يحوم حول الكازا أزول مرّاتٍ عدّةً قبل أن يدخل الكراج المطلّ على شارع اللّيندي. لقد رأى أنّ عدد الرّجال المُحتمين بالشّرفات أو المتستّرين بجذوع الأشجار أو المندسّين في ظلمة اللّيل عدد مبالغ فيه بعض الشّيء، باختصار كبيرٍ لقد اعتقد لوهلةٍ أنّ الشّارع يغصّ بالضّلال المشبوهة. من المؤكّد أنّ الشرطة المكسيكيّة تسهر على حماية تروتسكي على مدى أربع وعشرين ساعةً. لكنّها ليست الوحيدة السّاهرة على مراقبته مراقبة مشدّدةً. ثمّة السّلطات الأمريكيّة أيضًا الّتي رفضت تمكينه من حقّ اللّجوء، والّتي كانت قد أرسلت بعض «المراقبين»، ومثلها فعل الحزب الشّيوعيّ المكسيكيّ الّذي كانَ يُطلع موسكو على كلّ تحرّكاته.

أفسدت ملاحظة ناتاليا تلك السّهرة بالنّسبة إليه. لذلك نام دون أن يقبّلها لكنّه كان متأكّدًا من شيء: لم تعد كريستينا من تقضّ مضجعه بل هي فريدا.

11

في الأسابيع الموالية، التقت فريدا بتروتسكي عديد المرّات. نشأت بين الاثنيْن صداقة حقيقيّةٌ. كانت فريدا تُحبّ المجيء إلى شارع اللّيندي وكان ليون يسعد باستقبالها في مكتبه. كان بيديْه المتركّزتيْن على حافّة الطّاولة ثمّ بتحريكهما حركاتٍ غامضةٍ، يخوض في المواضيع السّياسيّة الّتي تعوّد على الخوض فيها في كلّ مرّة: ولاؤه لحكومة منحته حياةً جديدةً، المقارنة بين خصائل كارديناس ولينكولن، الحقيقة المُحزنة المتعلّقة بتأكّده من أنّ الفرنسي «ليون بلوم» لن يكون أبدًا بالقوّة المطلوبة حتّى يصمد أمام الهجمات الفاشيّة. وذات يوم، بينما كان يداعبُ بإحدى يديْهِ تمثال يهوذا، شارد الذّهن، أسرّ لفريدا باعترافٍ فريدٍ: «لو لم أكن هناك سنة 1917، في سانت بطرسبورغ بالتّحديد، ما كانت ثورة أكتوبر ستحدث».

مثّل الاعتراف منعرجًا حاسمًا. فقد طلبت منه فريدا التّخلي عن المواضيع السياسيّة على الأقلّ في محاوراته معها. كانت تريد أن يحدّثها في مواضيع أكثر حميميّة ووديّة، كانت تريد أن يحدّثها عن نفسه. قَبِلَ مقترحها دونَ تردّدٍ. لذلك، حدّثها عن كوخ المزارعين المُغطّى بالقشّ المقسّم إلى خمس غرفٍ ضيّقة، هناك حيث وُلد وشبّ عوده إلى أن بلغ العاشرة من عمره. تحدّث بعاطفة عن أمّه الّتي كانت تقرأ له في أيّام الشّتاء الباردة «بكلّ جديّةٍ وهدوءٍ» الحروفَ الأبجديّةَ الّتي كان قبل ذلك قد قصّها إلى جُزيئات وألصقها حرفًا إثر آخر على ألواح النّافذة المزيّنة بالجليد. تذكّر شبه باكٍ المجلّة الصّغيرة الّتي طبعها بمساعدة أحد أقربائه الأكبر سنًّا، كان على غلاف المجلّة رسوم لألعاب الهواء الطّلق، تلك الألعاب الّتي لم تكن تستهويه هو الّذي لم يتعلّم التزلّج ولا السّباحة. حدّثها عن

الوئام الّذي كان يسود مدينة «أوديسا» بين اليهود واليونانيّين والرّوس. حدّثها بالخصوص وبشكلٍ مطوّل عن ذلك الشّعور الثّوريّ الّذي كان توالد في داخله منذ الطفولة: لقد علم بصفةٍ مبكّرةٍ جدّا أنّه ينتمي لسلالة أولئك المُتمرّدين الّذين يكرّسون حياتهم لتقدّم بني البشر.

كشفت له فريدا في أيّ غرفة من الكازا أزول وُلِدتْ ذات صباح على السّاعة الواحدة: حدّثته عن أغاني «الكورّيدوس» الّتي كانت تغنّيها بصوتها الحادّ مقابل سنتيمٍ واحدٍ هي وأختها «كريستي»، عن تخفّيها وأختها داخل خزانة تفوح برائحة الجوز، عن المشاعر الّتي لم تتغيّر مع الزّمن كلّ مرّةٍ تذكّرتْ الثّورة المكسيكيّة. حدّثته عن تلك المشاعر الّتي دفعتها للانضمام إلى الشّباب الشّيوعي وهي في الثّالثة عشرة من العمر.

- ألَمْ نتّفقْ على عدم الخوض في السياسة؟ قال تروتسكي ملاحظًا.

- هذا ليس حديث السّياسة بل العاطفة...

في أوقاتٍ أخرى، كانا ينطلقان في جولةٍ في شوارع كويواكان المُبلّطة، فيتلهّيانِ بمخادعة الحرّاس الشّخصيّين. كانا بخطوات قليلةٍ يصلان «زوكالو» السّاحة الرّئيسيّة للمدينة، ثمّ ينتقلان إلى ساحة السّوق، فيتخفّيان داخل محلّات بيْعِ القبّعات وبيْن بائعي خرزات التّمائم الفضيّة والشّالات النّسائيّة، وبائعي القوارص وقصب السّكّر والفواكه المُسكرة وشرائح اللّحم المملّح. على أرضيّة السّوق، كانت تُفرش الحصُرُ والطّينُ المشويّ وأهراماتٌ من الخضرواتِ. في الشّوارع الجانبيّة، كانت النّسوة يجلسنَ حلقاتٍ حول أطباقٍ مليئة بورقٍ وبأسماء بُرتقاليّةٍ وفضيّةٍ. وعندما يحلّ الظّلام، كان الباعة يُوقدن مشاعل من الصّفيح، فكانت الأضواء تتراقصُ لتلفح وجهيهما من قريبٍ. من حينٍ إلى آخر، كان صوتُ أغاني الماریاتشي[1] يصدح عاليًا مقابل بضعة بيزواتٍ.

---

(1) الماریاتشي: أسلوب موسيقي تقليدي من المكسيك تمت إضافته من قبل منظّمة اليونسكو إلى قائمة التّراث العالمي سنة 2011.

ذات يومٍ، عادا من سوق «ميلكور أوكامبو» القريب من الكازا أزول محمّليْنِ ببطّيخة.

- انظر، قالت فريدا، ما أروعها من فاكهة! هي خضراء تمامًا من الخارج، أمّا من الدّاخل فتجمع بين الأحمر والأبيض الصّارخيْنِ. أمّا نباتُ الأغاف فهو قرمزيّ على شاكلة رحبّة رمّانٍ مرقّطة بالبُنّيّ. وأمّا فاكهة البتايا فلقشرتها لون الفوشية، قشرةٌ تنغلقُ على لبٍّ ذي لون رماديّ شاحبٍ تنتشر عليه نقاطٌ صغيرةٌ سوداء. هذا بديع، أليْسَ كذلك يا ليون! أريد أن أقول لك إنّ للفواكه والزّهور لغةً وإنّها تعلّمنا عدّة حقائق مخفيّةً...

ثمّ تناولت حبّةً من ثمار السّابُوتي وبطيخةً وقشطةً هنديّةً وحزمةً من الموز الورديّ، أضافت إلى ذلك بضع حبّات الأفوكادو ووضعتها في سلّة.

- أليست لوحة رائعةً من لوحات الطّبيعة الصّامتة؟

تُروتْسكي، كان فوق الغيوم من فرط الفرح.

يا لهذه الحياة الجديدة، يا لهذه السّعادة! كانا يذهبان إلى السّينما أيضًا، فيحتاران في اختيار أيّ قاعةٍ يدخلانها: الكازار، فينيكس، المُونديال، قصر التّريانون، الألاميدا. بعد انتهاء الفلم، كانت فريدا تدعوه أحيانًا لتناول العشاء في واحد من المطاعم الصّينيّة المُنتشرة في «شارع بوكاريلي». خلال الأمسيات، كانا يتنعّمان بتناول تورتيلّا الذُّرَةِ المُزيّنة بالجبن وقشور لحم الخنزير. في أحيانٍ نادرةٍ، وبالمتعة نفسها، كان ليون يذهبُ لزيارة فريدا في منزلها الثّاني في حيّ «سان أنخيل». على إثر زيارته الأولى، لم يَنْجَح في القيام بجولة كاملةٍ كما لم ينتبه للأثاث ذي الطّراز الحديث: من طاولاتٍ وكرَاسٍ وكَنَبَاتٍ ذات ركائز أنبوبيّة من الفُولاذ المصقول بالإضافة إلى مقاعد أخرى ووسائد مُغلّفةٍ بجلد أخضر ليمونيّ. لم ينتبه أيضًا للقرميد الأحمر الّذي يشكّل السّقف، ولا للجدران البيضاء بياضًا ناصعًا ولا حتّى للأرضيّة الصّفراء- إنّه بيتٌ ذو هندسة رائعة...

رافقتْهُ فريدا في جولةٍ في كامل المنزل، كانت تَقْفِزُ أمامه مثل راقصة باليه: في الطّابق الأرضيّ، هناك المرآبُ الّذي حوّلته إلى مخزنٍ، في الطّابق الأوّل هناك غرفة طعامٍ ومطبخٌ صغيرٌ، في الطّابق الثّاني، هناك ورشةٌ وهي في الوقت نفسه غرفة نومٍ متبوعةٌ بفتحاتٍ عريضة مزجّجةٍ وحمّام. أخيرًا، فوق السّطح المنبسط توجد شرفةٌ من أيْنَ يبدأ ما يُشبه الجسر الضّيّقَ الّذي يؤدّي إلى ورشة دييغو. في تلك الشّرفة ذاتها، روى لها ذات مساءٍ أنّه بينما كانَ يُجري حوارًا هاتفيًّا مُباشرًا في قاعةٍ من قاعات مبنى الشّركة المكسيكيّة للهاتف، كان الحوارُ مع تروتسكيّين أمريكيّين في اجتماعٍ رسميٍّ، انقطع الاتّصالُ فجأةً بسبب تدخل سافلٍ قام به عملاء أمريكيّون وروس، أعداءٌ اجتمعوا مُبادهةً من أجل قضيّةٍ جيّدةٍ.

- فعلوا ذلك لإسكاتك! قالت فريدا.

- بكلّ تأكيدٍ! أجاب ليون.

فريدا، الّتي كانت في الأيّام الأولى متحفّظة، انتهتْ بأن تكشف له عن لوحةٍ ما تزالُ تشتغلُ عليها في الغُرفة الكبيرة بالطّابق الثّاني. كانت قد رسمت نفسها جالسةً على حافّة سرير وكان بجانبها دميةُ حمّامٍ عاريةٍ، جامدةٍ، بملامح شبه غبيّة. لم تكن أمّا مع طفلها بل امرأة تجلس إلى جانب دميةٍ بلا روح.

قال ليون:

- هذه وحدتك، أليْسَ كذلك؟

بعد صمتٍ طويلٍ قضته فريدا في التّردّد، أجابت:

- نعم، تمامًا.

- وماذا ستسمّينها؟

- «أنا ودميتي»... عنوانٌ مؤقّتٌ...

بدا لها الأمرُ في غاية الغرابة. كيف لهذا الرّجل القادم من الجانب الآخر من الأرض أن يعرفها ويفهمها بهذا العمق. كادت أن تعترف له بأنّها بدأت في

إنجاز هذه اللّوحة بعد إجهاض تلقائيّ آخر، لكنّها تراجعت وقالت في نفسها إنّ الوقت لا يزالُ مبكّرًا جدًّا، لا يمكنها أن تعترف له بأشياء بمثل هذه الحميميّة. لذلك، أخذت يده وقبّلتها ثمّ قالت له «شكرًا». حركةٌ جعلته يرتبكُ كثيرًا.

بعد بضعة أيّامٍ من ذلك، عاد ليون إلى منزل «سان أنخيل». اعترضه دييغو الّذي كانَ يُغادر بعد أن أغلق الباب بعنفٍ. كانت فريدا في الدّاخل باكيةً ومستلقيةً على سريرها في غرفة نومها- الورشة. لقد تخاصما مرّة أخرى، تخاصما بجديّةٍ هذه المّرة. لم تعد فريدا تتحمّل. لقد حاول على مرأى منها أنْ يكلّف شابّةً من الجيران بالتّعرّي حتّى تكون موديلًا يرسمه، وكيْ يبيّنَ لها طبيعة العلاقة الّتي يمكن أن تربط الرّسّام بموديله، قبّل شفتيْها. كانت فريدا تُكرّر بقولها:

- يجرؤ ذلك أمامي! يجرؤ ذلك أمامي! لأنّه يعرف أنّي أكرهُ هذا الأمر بالذّات، أن يحشر لسانه في فم امرأة أمام عينيّ، هذا يُشعرني بالتقزّز بكلّ بساطة! إنّه يتعمّد فعل ذلك كيْ يغضبني، وغضبي يجعله يتبوّل في سرواله من الفرح!

لم يكن ليون يعرف ما يصنعه ولا كيف تكون ردّة فعله.

- انتهت قُدرتي على التّحمّل، حقّا. في المرّة السّابقة، ارتجلَ نظريّة كاملةً ليُقنعنا أنّ العذراء حبلت بيسوع بعد أن اخترقها شعاعٌ جاء من عمق الكون. وأن ذلك حدث لنساء أخرياتٍ شأنَ طبّاختنا، وهي المرأة الرّيفيّةُ الّتي كانت وقتذاك قد حبلت منه! إنّه يعاملني على أنّي غبيّةٌ! النّاس يقولون: يا له من حكّاء ماهر، متحدّث لبق! كان عليهم أن يقولوا: إنّه كذّاب ماهرٌ! كلّ ما أطمح إليه هو أن أقتلع خصيتيْ ابن القحبة هذا حتّى أنتَهِيَ من كلّ المشاكل إلى الأبد!

فريدا الّتي كانت في قمّة غضبها، أسرّت لليون أن «تروتسكيّة» دييغو لم تكن سوى كذبة كبيرة. لقد اعتنق التّروتسكيّة لأنّه كانَ يسعى إلى تحقيق برنامجه

السّياسيّ في عمق اليسار الثّوريّ، وهو في الحقيقة خارج الحزب الشيوعي جملة وتفصيلا، إنّه يبحث على الدّعم بوصفه فنّانًا لا غير.

- لو نظرنا إلى الأمر من ناحية العقل يا ليون، إنّه بلا قناعات! هل يبدو لك تروتسكيّا؟ لا تُصدّق ذلك!

كانت اعترافات فريدا في غاية الحميميّة ولم يكن ليون يعرف بأيّ طريقةٍ يتلقّاها. وضمن الاعترافات نفسها، علم أنّها وديبغو يتخاطبان بشكلٍ رسميّ عندما يكونان بمفردهما، وأنّهما يتعاملان كما يتعاملُ طفلٌ مع أمّه، وأنّ العظيم ديبغو ريفيرا يتحدّث في تلك اللّحظات مثل رضيعٍ يحبو على أربعٍ محرّكًا المائة خمسين كيلوغرامًا الّتي يزنُ كيفما أراد. عَلِمَ ليون أيضًا أنّه كائنٌ لا يكتفي من الجنس، لذلك هو دائم الخيانة، وأنّه لا يُعوّل عليه «على المستوى العاطفيّ»، وأنّه دائم الانسحاب فلا يكون «هنا في الأوقات الصّعبة»... في الواقع، لقد كانت العلاقةُ بين فريدا وديبغو في غاية التّعقيد.

- أنا في حالة حزن وقلق كبيريْن حتّى أنّي لم أعد راغبةً في ممارسة الرّسم يا ليون. وضعيّتي مع ديبغو تزدادُ سوءًا يومًا بعد آخر. بعد أشهرٍ عشتُها متقلّبةً في العذاب، اعتقدت أنَّ الأشياء ستتحسّنُ قليلًا، لكنّ العكس تمامًا هو الّذي حدث. أنا تلك المرأة الّتي رأيتها، وحيدةً وبلا أطفال، تُدخّنُ سيجارتها وجها لوجهٍ مع دُميةٍ مُحنّطةٍ.

كانت فريدا قد رسمتْ خُطّةً مكيافيليّةً. نظرًا لأنّها شعرت ببعض الانجذاب لتروتسكي مُنذ بداية لقائهما، هي الشّيوعيّة، فقد عزمت على التقرّبِ أكثر من هذا الإنسان العظيم. كانت الفكرة تُدور في رأسها مُنذ مُدّةٍ لتتّضح ذات يومٍ بينما هما عائدان من سوق الزّهور، كانا يشقّان أكاليل من الزّهور المُعدّة للجنازاتِ والمرصوفة على منصّاتها، من أمام أقزامٍ في قبضاتهم باقاتٌ من البنفسج والزّهور المائيّة الّتي راحتْ تذبل في الهواء، من أمام أكوامٍ من الورود

المقطوعة، أكوامٍ خضراء وصفراء وفضيّة وسوداء وحمراء تفوحُ برائحة الموت النّاعم وبكلّ ذلك الحشد من الرّجال المسلّحين والأطفال المحمولين بين أذرع آبائهم والنّساء المنحنيات تحت حزمٍ ثقيلةٍ. استوحت فريدا خطّتها الميكافيليّة من قلب هذه المكسيك المتراوحة بين البهجة والغضب العميق. خطّة ستترك على دييغو جرحًا لن يُشفى منه أبدًا.

وذات أمسيةٍ وعلى إثر زيارةٍ لها لليون وناتاليا قالت متوجّهةً لليون وهي على وشك المغادرة:

- قد يكون علينا أن نذهبَ إلى صالون «لوس أنجلوس». يُقالُ عندنا: «من لا يعرفُ لوس أنجلوس لا يعرف مكسيكو».

ثمّ أضافتْ بالإنجليزيّة: مع كلّ حبّي.

- كلّ حبّي أيضًا، أجاب تروتسكي باللّغة ذاتها.

انتبها كلاهما إلى أنّهما استخدما الإنجليزيّة للتّعبير عن مشاعرهما لأنّهما يعرفان أنّ ناتاليا تجهل كلّ ما يتعلّق بهذه اللّغة. أربكهما ذلك، أربكهما هذا الانسجامُ، هذا السّر المُشترك. إنّه أفضل ما يكّللا به شهر فبراير، بحرارته الشّديدة، ونباتاته الّتي تبدو مشوّشةً تمامًا مثل الحواسّ.

12

عند وصول تروتسكي إلى الكازا أزول، كانتْ أعماله اليوميّة روتينيّة في البداية وكانت تتمّ في كنف اللّطف والهدوء. لكنّه في الأيّام الأخيرة، أصبح مُختلفًا ومتوتّرًا. كان في كلّ مرّة يقرأ على ناتاليا فقرات يُسطّرها بالأحمر، فقرات تبدو له الأكثر عنفا في صفحات الجرائد الشّيوعيّة المكسيكيّة الّتي كانت تصله أوّلا بأوّل:

- استمعي إلى هذا: «لا يعدو تروتسكي سوى أن يكون بويارٍ مضّادّ للثّورة وهو مسافر هنا وهناك مع خدمه وحشمه». وإلى هذا: «البيت الأزرق: الوكر الجديد للحرس الأبيض». ثمّ إلى هذا: «حان الوقت لاتّخاذ كلّ ما يلزمُ للتّعبير عن موقفنا الصّارم ضدّ هذا المرتدّ»!
- ليفيونوتشيك، هدّئ من روعك. لقد عشت الأمر نفسه في فرنسا والنّرويج وفي كلّ مكانٍ مررنا منه...
- هلّا كففتِ عن مناداتي بـ «ليفيونوتشيك»، إنّها تسمية سخيفة.
- أيّها «الأسد الصّغير»، أليْسَ لطيفًا؟

وهو يضعُ صحيفة اتّحاد العمّال المكسيكيّين أمام ناظريْ ناتاليا، شرعَ في الصّراخ بأعلى صوته:

- وهناك قمّة! ختامها مسكٌ!
- هذا بديهيّ، فذلك الاتّحاد معقل ستالينيّ، أين سكرتيره الأوّلُ كومباردو توليندو الّذي هو عميل للكرملين...
- اقرئي يا ناتالوشكا، اقرئي أتوسّل إليْكِ لا تزيدي في توتّري.

أذعنت ناتاليا لأمره وقرأت:

- «ثمّة أخبارٌ مؤكّدةٌ عن تورّط الرّئيس كارديناس في مُصادرة ملكيّات المُساهمين البريطانيّين الأمريكيّين بتحريضٍ من تروتسكي، لذلك نعلنُ نحنُ العُمّال، أعضاءُ النّقابة المكسيكيّة بأعلى صوتٍ أنْ لا تسامح ولا هدنة مع هذا الحقير المدعوّ ليف دافيتوفيتش برونشتاين، وأنّه لا بدّ من طرد زعيم الثّورة المُضادّة هذا وعدوّ الشّعب الصّيني والحكومة الإسبانيّة والبروليتاريا! أمّا بالنّسبة لدعمه لـ...»

لم يستطع تروتسكي انتظار انتهائها من قراءة المقالة، غادر مكتبه مُطبِقًا الباب ذا المربّعات الزّجاجيّة الملوّنة. لم تنزل الأمطار المكسيكيّة منذ مدّةٍ طويلةٍ ولم تُبلّل الصُّمغي الّذي يشدّ بلّور النّوافذ، لذلك، ها إنّ الألواح الزّجاجيّة تتساقط هذه الأيّام الواحد بعد الآخر، مُحدثةً أصواتًا يتردّدُ صداها في كامل أرجاء البيْتِ... عندما وصل إلى الفناء، حاول التّخفيض من توتّره. لكنّ نظرةً إجماليّةً لحياته بدت له ملوّنةً ببعض المرارة: صداقته مع فريدا الّتي لا تكفّ عن التعمّق، صحّته الّتي هيَ في طور التّحسّن على ما يبدو، وهذه المقالات اللّعينة الّتي سرعان ما تعيده إلى واقع حاله العميق: يكفي أنْ يسعد للحظة أو أخرى من حتّى يأتي الشّقاء ليطرق بابه.

إلّا أنّ الأسوأ كانَ في طيّ الأيّام المُوالية. إذ لمْ يكتفِ الشّقاءُ هذه المرّة بأن يطرق بابه، لقد جاء ليخْلعه خلعًا أحدث صوتًا شبيهًا بصوت الرّعد. فبعد بضعة أيّامٍ من الصّفاء قضاها في منزل هيدالغو الرّيفيّ في منطقة «بويوركيز» القريبة من مدينة «كويرنافاكا»، انطلقتْ أشغالُ محاكمةٍ جديدةٍ له في موسكو. ثمّة سبعة عشر شخصًا اتّخذوا أماكنهم في قفص الاتّهام ومن بينهم تروتسكي المتّهم الرّئيسيّ الّذي سيُحاكمُ غيابيًّا. من ضمن التّهم العديدة الموجّهة له، التّهم الّتي يفوق بعضها بعضًا سُخفًا وعبثيّةً -تخريب السّكك الحديديّة، سرقة موادّ غذائيّة، محاولات اغتيال ستالين بتسميم حذائه وجَلِ شَعْرِه- إلّا أنّ ما أثّر فيه

أكثر هو: اتّهامُهُ بتوقيع اتّفاق سريّ مع هتلر وامبراطور اليابان حول التّحريض على الحرب من أجل استعادة السّلطة في روسيا! هذا يستوجبُ ردًّا فوريًّا. ومن منطلق استحالة بقاء أيّ إنسانٍ وُجّهت إليه تُهمةٌ مكتوف الأيدي، فقد تشكّلت لجنةٌ أمريكيّةٌ واضطلعت بالدّفاع عن تروتسكي، ساعدتْها على مهمّتها تلك لجنة تحقيقٍ في خبايا محاكمة موسكو بإشراف من الفيلسوف جون ديوي، الأستاذ ذائع الصّيت في العالم بأسره والّذي حضوره وحده كفيلٌ بأنْ يضمن كلّ الجدّيّة الممكنة.

على مدى أسبوعٍ بأكمله، تحوّلت الكازا أزول إلى ملجإ: حرّاسٌ يفتّشون المشاركين، بوّاباتٌ موصدةٌ بعارضاتٍ خشبيّة، حواجز يبلغ سمكها الستّة أقدام صُنعت من الآجر والإسمنت وأكياس من الرّمل القائمة على مدى الرّصيف. في داخل المنزل، عمدتْ ناتاليا إلى إخفاء لوحةٍ فنيّة كبيرةٍ لإحدى العُراة الإسبانيّين وهي لوحةٌ تعود إلى القرن التّاسع عشر كانت تتوسّط عدّة لوحات أخرى، مخافة أنْ تدفع أحد الصّحفيّين الّذي يصطادون في المياه العكرة إلى اتّهام تروتسكي بالشّذوذ الجنسيّ. بعد مناقشاتٍ لا نهائيّةٍ بيْنَ أعضاء اللّجنة الخمسين دوّنها بدقّةٍ «روث أجيلوف» التروتكسيّ الأمريكيّ الشّابّ، انتهى الجميع إلى بلورة وثيقةٍ مكتوبةٍ بالإنجليزيّة أين تصدّوا لكلّ التّهم الموجّهة إلى تروتسكي تهمةً إثر أخرى: إرهاب، تجسّس، تخريب، خيانة، محاولة تسميم...

13

على مدى تلك الأيّام المشؤومة، لم يتمكّن ليون من الالتقاء بفريدا سوى لمرّة واحدةٍ. من أجل ذلك اللّقاء، اضطرّ لخداع حُرّاسه الشّخصيّين وضبّاط الشّرطة المتمركزين في خارج المنزل. كان جون فان هايجونورت، المُخلص له من ضمن مخلصين كثر، على مقود السيّارة بينما كان تروتسكي ممدّدًا بين المقاعد الأماميّة والخلفيّة واضعًا على جسمه بطانيّة! دبّت الحياة فيه بمجرّد لقائه بفريدا الّتي أطلعته على رسمٍ بقلم الرّصاص تحت عنوان «الحادث». في الرّسم شابّة مستلقيةٌ على نقّالة من نقّالات الصّليب الأحمر إلى جانب حافلة مصطدمةٍ بتُرامٍ في مكانٍ يتنشر فيه القتلى والجرحى.

- كنتُ في التّاسعة عشر من العمر عندما أنجزتُ هذا الرّسم، قالت فريدا ثمّ أضافتْ وهي تقبّلُ خدّ ليون: أنا سعيدةٌ برؤيتك. لقد اشتقتُ إليْكَ.
- اشتقتُ إليك أيضًا.
- حسنًا، ماذا عن هذه المحاكمة؟
- قلنا إنّنا لن نخوض في السّياسة...
- الأمر مختلف هذه المرّة.
- انتهتْ المشكلة تقريبًا. ثمّة ضوءٌ بصدد التّلويح في آخر النّفق قالَ بلهجة مازحةٍ سُرعان ما حوّلها إلى جديّةٍ مفاجئةٍ: لماذا أطلعتِني على هذا الرّسم؟
- لم أكشفه لأحد من قبل. ولا حتّى دييغو. لأوّل مرّة رسمتُ أمرًا تعرّضتُ له.

- تعرّضتِ له؟

- الفتاة الّتي على النّقالة هي أنا. عمري وقتذاك ثمانية عشر عامًا.

خلال تلك الأمسية، روت فريدا وهي ملاصقةٌ لِلِيون ما جرى خلال ذلك اليوم المُرعبِ من أيّام سبتمبر 1925، كانت على متن الحافلة الّتي اصطدمتْ بالتّرام. كانت في رُوبٍ خفيفٍ سقط من على جسدها من قوّة الاصطدام لتجد نفسها عاريةً تماما ومطليّةً بصباغٍ مُذهّب سقط من إناء أفلت من يديْ أحد الرّكاب الّذي كان على ما يبدو دهّانَ منازلٍ. «الرّاقصة، الرّاقصة...» ردّد العابرون. اخترق جزءٌ من حاجز سُلّم الحافلة خاصرتها ليخرج من مهبلها. كانت الأضرار أكبر من أن توصف: كسور في العمود الفقري والأضلاع وفي عنُق عظم الفخذ، كسور في الرّجل اليسرى إلى حدود القدمِ الّتي هُرست تمامًا، خلعٌ في الكتف اليُسرى وفي عظم الحوْض إلخ...

- لوهلةٍ ظنّ الجميع أنّي ميّتةٌ. ذلك صحيحٌ تمامًا، لأنّه في ذلك اليوم، مات شيءٌ ما في داخلي إلى الأبد. فأنا مثلًا لم أعد قادرةً على الإنجاب، قالت بصوتٍ مُنكسرٍ. ثُمّ أضافت بعد صمتٍ وجيزٍ: اعذرني، لديْكَ ما يشغلك، لا تنقصك قصصي القديمة.

- هي ليست قصصًا قديمةً، فريدا. شكرًا لأنّك تُسرّين لي بكلّ تلك اللحظات الصّعبة الّتي عشتِهَا.

- ثمّة شيء لابدّ أن تفهمه ليون... المكسيك جميلةٌ في الظّاهر. شمسُها مشرقة كلّ يوم، أشجارها مزهرةٌ بألوانٍ زاهية، الحفلاتُ تتعالى في كلّ ركنٍ من أركان شوارها، لكنّها في العُمق مثقلةٌ بالقساوة والألم والدّمار. يعلمُ ذلك كلّ أولئك الّذين يعيشون في مكسيكو منذ أجيالٍ: «الصّرخة المكسيكيّة صرخةٌ تنبع دائمًا من الكُره». لا تنسَ هذا أبدًا.

كانت الأوقاتُ الّتي يقضيها مع فريدَا أوقاتٍ ضروريّةً دائمًا، لا يهمّ إن كانت سطحيّة أو عميقةً، فهي أوقاتٌ لا غنى عنها. ليس لأنّه لم يعد يحبّ ناتاليا، فبينهما ما يزالُ هنالك ذلك الوئامُ البديع والعفويّ، ذلك التّفاهم حول الأشياء الصّغيرة أو الكبيرة، الّذي يسمح دائمًا بهامش لتعليقات لاذعة من هذا الجانب أو ذاك. أمّا فريدا فتعود به إلى مشاعر لطالما ظنّ أنّه نَسِيَهَا مع الزّمن. لم يكن بينهما تواصلٌ فكريّ كبيرٌ، حتّى أنّه كان يشعر باختلاف كبيرٍ بينهما حول عدّة مواضيع، اختلافاتٌ تجعلهما بعيديْنِ كلّ البعد عن بعضهما. لكنّهما كانا دائمًا ما يُدهش الواحد منهما الآخر بنقائهما المُشتركِ، بعاطفتهما الجيّاشة المُشتركة، بانضباطهما المُشترك يجعلهما حامليْنِ لتطلّعٍ بلا حدود. لم يكن الجنس من تلك الأشياء المطروحة بعدُ، لكنّهما كانا يعلمان تمامًا أنّ في انتظارهما لحظة مّا ممكنةٌ. إذًا، ففريدا بالنّسبة إليْهِ نوعٌ من البعثِ: معها كلّ شيء ممكنٌ، إنّه يعلمُ ذلك تماما. لأنّ كلّ ما عاشه معها كان مُمكنًا ومتجدّدًا. لذلك، عندما حدّثها عن حبّه للطّبيعة ولصيد الأسماك، عن اهتمامه بعلم النّباتات، كانَ كمن يُعيد عيْشَ تلك الأشياء لأوّل مرّة. «كانت جزيرة برينكيبو مغطّاةً بأشجار الصّنوبر الّتي ينبعث منها عبقٌ قويّ يملأ الأجواء. كانت تربتها حمراء. بحرها وسماؤها كانا يتّخذان ألوانًا تتغيّرُ بمرور السّاعات». هكذا كان ليون يحدّث فريدا الّتي كانتْ تُسافر مع حكاياته إلى «روسيا» مّا حتّى تكاد تلامسها بأناملها، روسيا بفجرها وشفقها الأرجوانيّيْنِ وخصوصًا عندما يروي لها قصصه عن رحلاته القديمة إلى سيبيريا لصيد الذّئاب، عندما كان ليون الرّيفيّ في أوجه، خفيفًا يشدُّ حبلًا منقّعًا بالشّحم ليحد نصف دائرة عملاقة يستحيل على الوحش المرور منها حيًّا.

قبل أن يقفل راجعًا إلى الكازا أزول طلبت منه فريدَا أن يُسدِيَ لها معروفًا بأن يعدها على الفور بالتّالي: عندما تنقضي حبائلُ هذه القضيّة السيّئة، سيرافقها إلى «نادي الأزتيك» حيثُ الجدرانُ المغطّاة بورق الشّوكولا الفضيّ، هناك

حيثُ يمكنهما الاستماع إلى أغاني «كوكيتو» الشّهيرة، ملكة الرّومبا وامبراطورة الكوبليه، هناك حيثُ يمكنها شرب كؤوس من المارغيريتا المثلّجة.

14

لمْ تكن تساقطات الرّبيع قد بدأت بعدُ، الأمطارُ الغزيرة الّتي نزلت في اللّيلة الماضية لا تعدو إلّا أن تكونَ عرضيّةً. على مكسيكو كانتْ تُخيّم أجواءٌ غريبةٌ، وهي حالها كلّما انتهى فصلٌ ليبدأ فصلٌ جديدٌ. بعد أسابيع من انتهاء مهمّة الفيلسوف «ديوي»، انطلق ليون في كتابة بعض البطاقات لفريدا. كان يدسّ بها في الكُتب الّتي يجلبها من أجلها، الأمرُ الّذي كانَ يحدث دائمًا على مرأى ومسمعٍ من أشخاصٍ آخرين بمن فيهم ناتاليا وديبغو، ناصحًا إيّاها في كلّ مرّةٍ بقراءة التّحفة الفنيّة الّتي يضعها بين يديْهَا.

في البداية، كانت فريدا تتقبّلُ تلك البطاقات مُغتبطةً وكانت تعتبرها مجاملاتٍ لطيفةً منه لذلك اكتفت بقراءتها دون الرّدّ عليها. لكن، ذات صباحٍ، أقبل ديبغو الّذي خرج لتوّه من علاقةٍ غير مستقرّةٍ مع لاعبة تنّس ليستأنف أخرى مع «إيوني روبنسون» وهي امرأةٌ عرفها منذ سبع سنواتٍ خلت، ليخبرها أنّ عليه الرّحيل لثلاثة أيّام إلى مدينة تولوكا من أجل استكمال عملٍ مع عارضة شابّةٍ فرغ لتوّه من لوحةٍ تتخذها موضوعًا، وهي لوحةٌ تحملُ عنوانًا حمّال معاني: «عراء دولوريس أوليدو». لم تكفّ فريدا عن الاعتقاد أنّ ديبغو ماضٍ بلا شكّ في تعويض أمّه بزوجاتٍ وعشيقاتٍ ليتخلّى بعد ذلك عن بديلات الأمومة أولئك الواحدة تلو الأخرى حتّى ينتقم من الّتي تخلّتْ عنه وهو طفلٌ. فجأة، بدتْ لها معاناتها الّتي تراكمت على مدى السّنوات الأخيرة غيرَ محتملةٍ. لذلك، قرّرت على الفور أن تردّ على كلّ بطاقات ليون تروتسكي المُلتهبة عاقدةً العزم عن المضيّ أكثر في لعبة الإغواء الّتي خطّطتْ لها من قبل. وكيْ تحتفل بعودة

دييغو الّذي لابدّ أنّه أنهى علاقته المؤقّتة والخاطفة، نظّمت مأدبة عشاء دعتْ إليْهَا ناتاليا وليون.

وللمناسبة تلك، ارتدتْ فُستانًا أسودَ شفّافًا من فوق بُذلةٍ حريريّةٍ لها ألوانٌ زاهيةٌ، بُذلةٌ تسمح برؤية كتفيها وذراعيها. كان حاجباها سميكيْن وشفتاها ضيقتيْنِ ترتسمُ عليهما قسوةٌ مّا، وكان ذقنها مدوّرًا بعض الشّيء وشعرها ينسدلُ في غزارة تُزيّنه مشبّكاتٌ عديدةٌ. وكان نهداها بارزيْنِ من تحت الحرير الضّيّق. جلستْ في التواءٍ على أريكتها واضعةً ساقاها بشكلٍ مُتقاطعٍ وفي أسفلهما يظهر جوربان حمراوان. لقد أرادت أن تكون ملكةً على السّهرة فكان لها ما أرادت. فقد قضى ليون سهرةً وهو مفتونٌ وبلا صوتٍ. وكان غير قادرٍ على أن يُزحزح عينيْه عنها.

عند مغادرتهما، ناولت ضيفها كتاب «تاريخ الخلود» وهو لكاتب أرجنتينيّ شابّ واعدٍ، اسمه خورخي لويس بورخيس، في ذلك الكتاب كانت قد دسّت برسالتها السرّيّة. وفي لحظةٍ خاطفةٍ كان فيها دييغو في الغرفة المجاورة مُنشغلًا بحديثه لناتاليا عن تمثالٍ صغيرٍ عائدٍ لحقبة ما قبل كولومبوس اشتراه حديثًا، قبّلتْ فريدا ليون على شفتيْهِ وهمست له قولها إنّها في انتظار ما هو أكثر من هذه القبلة البسيطة ثمّ دسّت يدها اليُمنى ما بين فخذيه.

بعودتهما إلى كويواكان، انفرد ليون في مكتبه، فتح «تاريخ الخلود» واستلّ الرّسالة المدسوسة بعناية بين غلاف الكتاب وأوراقه: رسمٌ بالحبر الأرجوانيّ لامرأة مستلقية على ظهرها، فخذاها مُشرعتان عن فرجٍ مفتوحٍ له لون الدّم. على الرّسم كتبت سطرًا مُوضّحا: «وضعي الطبيعيّ في الحياة».

لم يستطع ليون النّوم في تلك اللّيلة، ظلّ على هيئته نفسها، حاول النّهوض للعمل في مكتبه. في الصّباح الباكر، شعر أنّ شمسًا مُلتهبةً ستترك مكانها أخيرًا للمطر وأنّها قبل ذلك ستحرق بلظاها الأطفال البؤساء والكلاب السّائبة في الشّوارع.

15

في الأيّام المُوالية، لم تُتَح الفرصة «للعاشقيْن» كيْ يُنفّذا ما عقدا العزم عليه. ودون مشاورة دييغو وناتاليا، قرّرا أن تترافق العائلتان في سلسلةٍ من الجولات في كلّ المنطقة. أليْسَ حريّا بهم استغلال الطّقس الجميل لهذه الأيّام؟ تمّت الإجراءاتُ الاعتياديّةُ. فبعد أن أُعْلِمَتِ الشّرطةُ، غادرت العائلتان في كنف السريّة التّامة. أُعِدّت للغرض سيّارتان واحدةٌ منهما من النّوع «البيك آبْ». هذا بعد أن وُضعتْ الملابس في الحقائب وعُبّئتْ المُؤن في السّلال ومُلئت الجيوب بالخراطيش من طرف الحرّاس المسلّحين، ثمّ انطلقت القافلةُ في رحلتها.

وجهتان بُجّلتا على غيرهما. الأولى تقودهما عدّة مرّات لعبور «كويرنافاكا» الكلمة الّتي تعني «قرن البقرة»، واحدة من أقدم المدن الّتي حرّف الإسبانُ تسميتها. عبروا المدينة متعجّلين، توقّفوا عند محطّة واحدة، في فُندق «ليوناردو فالي»، أين صمّم دييغو أنْ يُطلع ليون على ما يمكن أن «يؤول إليه الرّسم الجداريّ من فظاعة عندما يُمارسه مجرّد دهّان بنايات خصوصًا إذا كان متخلّفًا سياسيًّا»: ويقصد جداريّةٌ أراد من خلالها «سيكيروس» التّعبير عن الظلم الاجتماعي.

في الأصل، اسم هذه المدينة هو «المكانُ الّذي تتهامسُ فيه الأشجار»، هكذا سمّاها الهنود القدماء. تقع مدينةُ «كويرنافاكا» في قلب منطقةٍ تكثُرُ بساتينُهَا وحدائقُهَا الّتي تتكاثفُ فيها أشجارُ «البُوغنفيليا» المُتسلّقة. وهي الكثافة الاستوائيّة المبهرة الّتي أراد دييغو أنْ يُطلع ضيفيْهِ عليها. انخرط الجميع في جوْلةٍ بين نباتات قصب السّكّر وحدائق تعجّ بالعصافير والزّهور، دبّ فيهم شعورٌ بالنّشوة والسّعادة ما فتئ يتنامى ويتجدّد: سعادةُ ناتاليا ودييغو لأنّهما

لا يستطيعان الصّمود أمام وفرةٍ مُشابهةٍ، وسعادة فريدا وديبغو لأنّ استحالة تلامسهما في ذلك الضّرف بالذّات لم يكفّ عن تأجيج النّار في الرّغبة الّتي كان يشعر بها كلّ واحدٌ منهما للآخر. ولم يُتَح لهما أثناء تناول الطّعام في المُروجِ الخضراء أو أثناء تسلّق المرتفعات سوى تبادلُ بعض النّظرات واستراق بعض اللّمساتِ. وذات يومٍ من أيّام الجولات تلك، وهم في طريق العودة إلى مكسيكو أين البرد والجوّ الضّبابيّ، توقّفت السيّارة بالقرب من شجرة جوّافة بريّةٍ واقعة على حافّة جدول مائيّ صغير. غمس ديبغو قارورتين تحتويان على عصير اللّيمون في الماء حتّى تبردا وقطع برتقالتيْنِ كبيرتيْن بقشرهما السّميك ثمّ أفرغهما من محتوياتهما كيْ يحوّلهما إلى كأسيْنِ. قام ليون وفريدا في غفلةٍ من الرّفيقيْنِ الآخرين بتبادل قشريْ البُرتقالِ ليشرب كلّ واحد منهما من موضع شفتيْ الآخر - وذلك ما هزّ كيانهما هزًّا. وفي يومٍ آخر من الجولات ذاتها، التبست فريدا بلبوس الشّيطان نفسه: فَمِنْ تحت المنديل الأبيض المُطرّز بورودٍ وعصافيرَ متعدّدة الألوان، المنديل الّذي كان يغُطّي طعام ليون، دسّت بورقةٍ صغيرةٍ حيثُ كتبت كلمتيْنِ ناعمتيْنِ- «أحبّكَ. إلى لقاء قريبٍ يا حُبّي!».

حتّمتْ عليهم سلسلة جولاتهم الثّانية المرور من مدينة تاكسكو في أكثر من مرّةٍ. وبما أنّ هذه المدينة تبعد على العاصمة بما يقارب المائتيْ كيلومترًا فإنّ قطع الطّريق كان يستغرقُ عدّة ساعاتٍ في الذّهاب كما في الإيّاب. أحبّ ليون اتّخاذ تلك الطّريق بالذّات لأنّها تتيح له البحث عن أنواعٍ نادرة من الصّبّار، والعثور على عيّناتٍ هائلةٍ منها في عمق الأجراف الجافّة، عيّنات كان يحشر بها مباشرةً في السيّارة بعد أنْ يلفّها بقماش من الخيْش السّميك، وكان في كلّ مرّة يرفض أنْ يأتي أحدٌ من مرافقيه لمساعدته. وفي أحيانًا أخرى، كان يركب حصانًا ليقوم بجولةٍ طويلةٍ في المرتفعات الصّغيرة الواقعة على تُخوم المدينة. وفي إحدى الأيّام، بينما كان يتهيّأ للقيام بإحدى نزهاته الاعتياديّة، اعترضتْ سبيلَهُ مجموعةٌ من التّروتسكيّين الأمريكيّين، الّذين علموا من مصدر مجهولٍ أنّ بإمكانهم الالتقاء

به على ظهر فرسه متجوّلًا في أزقّة هذه المدينة المنجميّة القديمة وإن لم يكن ففي التّلال المحيطة بها. وما إن لمح المجموعة الصّغيرة حتّى ضرب جنبيْ الحصان وأطلق صرخةً روسيّةً لحثّه على الرّكض مبتعدًا، ذلك ما أثار استياء سكريتيره «جان فرانكل» الّذي عجز عن اتّباعه ومعه الضبّاط المكلّفون بحمايته.

احتدمت الأمور عند عودتهم في وقت متأخّر، أي قبيْل حلول الظّلام بقليل. فبينما كان الجميع جالسين حول طبق يحتوي على أكلة المسكيك الشّهيرة «تاكو الكارتيناس»، عمد جان فرانكل مُساعد تروتسكي من سنة 1930 إلى انتقاد سلوكه لهذا اليوم قائلًا في لهجةٍ مازحة إنّه كان يمكن أن يتسبّب في حدوث كوارث وإنّ تصرّفاته تلك تمثّل خطرًا على سلامته «من أجل القضيّة الّتي تجمعهم اليوم على هذه الطّاولة بالذّات». تبادل ليون وفريدا بعض النّظرات، متسائليْنِ فجأةً إذا لم يكن السّكرتيرُ بصدد استخدام لغةٍ مفخّخةٍ وإذا لم يكن قد تفطّن لما بينهما. هبّ تروتسكي واقفًا والغضبُ يستبدّ به وطلب من فرانكل أن يُغادر المنزل «فورًا، هل تسمعني، غادر المنزل فورًا»، مضيفًا بأنّه يُقيله من كلّ المهامّ الموكلة إليْهِ.

مرّت السّهرة في أجواءٍ متوتّرة. أبدت ناتاليا غضبها من تروتسكي لاختفائه طوال اليوم وعبّرت عن استغرابها من تخلّيه المُفاجئ عن أكثر رفاقه إخلاصًا بسبب مسألةٍ بسيطةٍ تتعلّق بـ «جولةٍ على ظهر حصانٍ». لم يستسغ ليون أن تتوجّه إليه ناتاليا في العلن بتلك الطّريقة. عندما شعر دييغو أنّ الأجواء تزدادُ ثقلًا من لحظةٍ إلى أخرى لم يجد بُدًّا من التجائه إلى أسلوبه التّهريجيّ المُعتاد. فمضى في كرْع أكوابٍ من شراب التّكيلا و«بولكا» الكرْفَسِ والتّين الشّوكيّ مُصدرًا أصواتَ المتلذّذ بما يكرعُ، ثمّ شرع في عرض واحدةٍ من نظريّاته الّتي لا يعلمُ بسرّها غيره، موضّحًا في غمرة كلّ ذلك أنّه يبجّل النّساء المثليّات على غيرهنّ وذلك لأنّه واحدٌ منهنّ بلا شكّ! وكان كلّما أبدتْ ناتاليا ضيقَها من حكاياته إلّا وزاد الطّينة بلّةً:

- لا شيء أجمل من النّساء والحبّ، وأجمل من الاثنيْن أن يكون ذلك الحبّ بين امرأتيْن وتكون أنت المُشاهد، والأجمل على الإطلاق أن تشارك في لهوهما...

لم تُرد فريدَا أن يحوز دييغو على مكانٍ أكبر في السّهرة، لذلك تدخّلت لتؤكّد أن المثليّة هي معطى طبيعيّ وأنّ الشّخص من يهمّ لا ميوله الجنسيّ وأنّها في الإطار نفسه لطالما رغبت في ممارسة الجنس مع امرأة:

- أردافٌ جميلةٌ وممتلئة، فرْجٌ مرسومٌ بدقّة، نهدان مدوّران كما ينبغي أن يكون التّدوّر، يا للرّوعة! الحلمتان يا أصدقائي، الحلمتان مهمّتان جدّا. حتّى أنّي أريد التّصريح لكم أنّي أخيّر أن تكون الحلماتُ قاتمة اللّون على أن تكون ورديّةً!

بقدر ما كانت ناتاليا بلا صوتٍ من فرط الخجل، كان تروتسكي يبدو غارقًا في المحادثة وبعبارة أكثر صراحةً، كان يبدو مُتحمّسًا للأداء الثّنائيّ بين دييغو وفريدا. كان كلّما تمكّنَ من النّظر إليها بالعمق المطلوب يزداد تأكّدًا من أنّ لفريدا جمالًا خاصًّا بها. جميلةٌ هِيَ بالنّظرة العميقة الّتي تنبعثُ من عينيْها، بالأحمر الّذي على شفتيْها، بالطّلاء الصّارخ الّذي على أظافرها، بخُصْلات شعرها الطّويلة أين تتداخلُ الشّرائط والخيوط الصّوفيّة، بقرطي أذنيْها الذهبيّيْنِ الكبيريْن وبسلاسل زواجها الغواتيماليّة الكثيرة، بصدريّتها المصنوعة في «تيغوانا» بشرشفها العلويّ وبما عليه من دانتيل، بتنّورتها المُطرّزة بالحرير الملوّن، لقد كانت تُشِعُّ حقًّا مثل ضوء غريب لا يُقاوم، ضوء يستحيل الصّمود أمامه.

كان التّناقضُ واضحًا بين تروتسكي، هذا الجَمُوح الحيويّ، هذا العنيد المُرهف، هذا الّذي لا يتردّدُ في مغازلة فريدا، هذا الّذي لا يترك مكوّنًا واحدًا من جمالها دون أن يُثنيَ عليه، ودييغو بأنفه الكبير ولحيته الكثّة الّذي يبدو كأنّه لا يرى شيئًا وناتاليا الّتي ترى ما يحدث وتسمعه لتُعانيَ في صمتٍ، وتروتسكي

الآخر دائم الشّكوى من صداعٍ في رأسه ودوخته الملازمة، تروتسكي الآخر الّذي يطيل الحديث عن ضغط دمه العالي والّذي دائمًا ما يعبّر عن تحسّره على «سنوات العمر الّتي خانته».

على إثر عودتهم من جولة في مدينة تاكسكو، أيْنَ جعلته فريدا يكتشف حساء المحار، ذلك الحساء الّذي يعتبره المكسيكيّون منشّطا جنسيّا، عثر تروتسكي في مكتبه على نُسخةٍ من «الحيّة المُجنّحة»، وهو كتابٌ لديفيد هربرت لورانس، الكاتب الّذي تُوفّي قبل بضع سنوات بعد أن عاش طويلًا في «كويرنافاكا». لم يفتح الكتاب مباشرة، أراد أنْ يطول شعوره بالشّهوة المداهمة. كان كوب الشّاي الّذي أمامه ساخنا جدًّا لذلك سكبه في إناء بهدف تناوله على رشفاتٍ صغيرةٍ. ثمّ فتح الظرف المدسوس بين صفحات الكتاب: «عصير شفتيْكَ يزخر بكلّ أنواع الفواكه، من دم الرّمان إلى تدوّر فاكهة «المامي» والأناناس المثاليّ. تعالَ غدًا عند الثّامنة صباحًا. تعالَ إلى المدخل الغربيّ من حديقة «السّونتنير». إنّي أتشوّق إلى أن أكون لَكَ بما فيّ، لذلك لا تنسَ أبدًا. الإمضاء: تشيكيتا فريدوتشا، امرأتُكَ»...

16

كانت فريدا تجلسُ في ظلّ شجرة «بوغنقيليا». تعرّفتْ عليه ما إن لمحته يدخلُ من البوّابة. كان يُخفي عيْنيْه بنظّارات شمسيّةٍ، ويَضَعُ على رأسه قبّعةً عريضةً مثل الّتي يضعها المزارعون المكسيكيّون، ويرتدي قميصًا اعتياديّا. دخل ليون تروتسكي إلى حديقة «السّونتنير» مُتردّدًا. وكان بالإضافة إلى ذلك كلّه قد حلق لحيته وشاربيْهِ تمامًا...

لم يتعرّف عليْها، ومن ذلك تلكّؤ خطواته. ينبغي القول إنّ فريدا إذا ما خيّرتْ وضع قميصٍ أسود بجوافّ تجمع بين الأحمر والأصفر مع تنّورة فضفاضة تُزيّنها ورود خضراء عملاقة فإنّ ظلّ «البوغنقليا» كان قد أخفاها تمامًا عن أعين المتجوّلين. لكنّها عندما وقفت لتتّجه نحوه، قامت بإشارة من يدها، فتبدّدتْ كلّ شكوك الرّجل. بدت له المرأةُ الشّابّةُ خفيفةً ومرحة بتنّورتها الّتي كانت توشك على الطّيران بها عاليًا في كلّ خطوة تخطوها، تلك المرأة لا يمكن إلّا أن تكون فريدا. كان كلاهما مُدركيْن لحجم المخاطرة الّتي هما بصددها، لكنّ رغبتهما كانت أقوى من أيّ شيء آخر.

- لحيتك، لقد...
- لقد حلقتها نعم. هذا أكثر سريّة، أليْسَ كذلك؟
- نعم، أجابت فريدا ضاحكةً.
- والآن، تساءل ليون في خجلٍ، ماذا نفعل؟
- الآن ما عليك سوى أن تسلّم أمرك لي، اكتفت فريدا بأن تُجيب وهي تطبعُ قبلةً على خدّه.

بما أنّ الحرارة الّتي شهدتها بداية أبريل هذه كانت خانقةً، فإنّ فريدا خيّرت الابتعاد عن مكسيكو واقتياد ليون إلى بلدة «تسوتشيميلكو». هناك، على حافّة مياه القنوات الجارية، وفي ظلّ الأشجار وبرودة الحدائق العائمة أين تنتشر الزّهور والأوراق، سيكون الطّقس محتملًا بعض الشّيء. وهناك أيضًا، لن يتعرّف عليهما أحدٌ. ركبا التّرام إلى أن بلغا شارع «تلالبان» ومن هناك، عرّجا من مفترق «سان فرناندو» عبر محوّلٍ بسيطٍ إلى أن وصلا أخيرًا إلى «تسوتشيميلكو» الموعودة. خلال تلك الرّحلة، خيّرت فريدا الجلوس في الدّرجة الثّانية حيثُ لا يفصلهما عن الرّكّاب العابرين سوى حاجزٍ قصيرٍ. هناك، استغرقتْ في البوح بأسرارها الأكثر رقّةً. كانت تلك طريقتها للتّقدّم أكثر في اتّجاه ما ينتظرهما من حميميّةٍ ولكسر الحواجز الأخيرة الّتي منعتهما من الانتقال إلى علاقة أكثر جسديّةً. أمّا ليون فقد اكتفى بأن يرتشف بوحَهَا ذلك في صمت.

كانا يجلسان بمُحاذاة سلال فارغةٍ لنسوةٍ في طريقهنّ لشراء الخضار والزّهور وجرارٍ مليئةٍ باللّحم المملّح وأباريق وأواني فخّارية بين أيادي مُزارعين متوجّهين صوب السّوق. روت له فريدا في وسط كلّ ذلك، كيف سرقتْ من أختها دُمْيَةَ «الولد خوانيتو» وكيف خبّأتْهَا في خزانتها وكيف عمدت أمُّهَا ذات يومٍ إلى قتْلِ فئران وجدتْهَا في قبو المنزل بإغراقها في الماء أمام عينيْها، وكيف فعلتْ الشّيء نفسَهُ لاحقًا مع كلبٍ صغيرٍ لطالما أحبّتْهُ. حدّثته عن أبيها الّذي كان يعزف على البيانو موسيقى الفالس القادمة من فيينّا، كانت حينذاك تُصغي إلى موسيقاه وهي جالسةٌ إلى جانبه. حدّثته عن أشياء أخرى كثيرة... عن رسمها الأوّل، الّذي كان بورتريهًا ذاتيًّا يعود إلى سنة 1925 وعن لوحاتها الجديّة الأولى الّتي شرعت في إنجازها بعد الحادث المُروّع الّذي تعرّضتْ له: بورتريه ذاتي مع الغيوم، بورتريه لأمّها أدريانا كاهلو، لأختها كريستينا والرّوائي ميغيل إن ليرا وصديقتها أليسيا غالانت... أنجزتْ كلّ تلك اللّوحات وهي بعد محشوّةً داخل كورسيه الجبس الطبّيّ، كانت رغم كلّ الأوجاع تُغادر سريرها ليلًا لترسم.

عند وصولهما إلى الحديقة الواقعة قبالة الكنيسة الكبيرة والسّوق، اتّخذا الطّريق المؤدّية إلى المرفأ أين كان يتلاصق عدد كبيرٌ من القوارب الصّغيرة ذات القيعان المُسطّحة والأقواس المزيّنة بأكاليل الزّهور. جرتْ العادة أن يختار الرّجل قاربًا يحمل اسم شريكة حياته أو اسم أيّ شَخْصٍ عزيزٍ آخر. اتّفقت فريدا مع ليون على اختيار قاربٍ يحمل اسم «كريستينا» وكان مكلّلًا بزهور عبّاد الشّمس والأقحوان والقَرَنْفل المُتراوح بين الأبيض والأصفر، بدأ القاربُ بالتّحرّك ليشقّ مُزارعين يعرضون الخضراوات للبيع، ورجالًا يبيعون الورود، ومُلْحَقات عسكريّات يعرضن على المتجوّلين وجباتٍ خفيفةً كنّ يغترفنها من داخل أوانٍ عملاقةٍ من الألمنيوم وزوّارًا متفرّقين على عرائش ظليلةٍ يرقصون تحتها ويأكلون. تقدّم القاربُ على مدى القنال المحفوف بشرفاتٍ صُنعت سطوحُهَا من القشّ تغطّيها بالكامل النّباتاتُ المُتسلّقةُ. في كلّ مكانٍ، كان ينتشر نوعٌ التّرف الفاسد والأعشاب الطّفيليّة، حتّى الماء الّذي كان قاربهما يسري على سطحه كان يغصّ بتلك الأعشاب على شاكلة إناء من الحساء. فوق المياه الجارية، كانت تميلُ زهور السّوسن والبنفسج والزّنبق. ثمّة شهوانيّةٌ عامّة تتوزّع على كلّ المكوّنات. لهما أن يتخيّلا أنّ وراء الرّطوبة تلك، ثمّة حُمّى على أشدّها، ثمّة عطور مُسكرة وأجساد منسابة. من مكان إلى آخر، كانت النّباتاتُ تزداد كثافة، وكانت الأشجار تُخفي السّماء بكاملها، وكان الظّلّ في وضح النّهار لا يختلف كثيرًا عن عتمة بداية حلول اللّيل.

طلبت فريدا من المُجذِّفِ أن يمضيَ بهما سريعًا إلى رُكنٍ مُنعزلٍ. انصاع الرّجل لطلبها عن طيب خاطرٍ، وجّه قاربه إلى مكانٍ يقع تحت شجرة عملاقة تأتلف أغصانها لتشكّل قبّةً نباتيّةً من شأنها أن تُخفي جسديْهما بالكامل. سيعود المجذّف خلال ساعتيْنِ. في داخل ذلك الكهف المُرتَجَلِ من الورق الشّجريّ، كانت تنتشر روائحُ الخشبِ العطن وكان الصّمت ثقيلًا. من وقتٍ إلى آخر كانت تتساقط من أعلى الشّجرة قطراتٌ ماء دافئة. هكذا إذن، سيكون هذا

الملجأ المائيّ غرفة دخلتهما، عشًّا طارئًا أيْنَ يمكن لفميْهما أن يلتهما بعضهما البعض لو أرادا.

جرتْ مرّتهما الأولى تلك بشكلٍ أخرق ومضطربٍ بعض الشّيء. كانا كأنّهما يتساءلان حول حقيقة ما يحدثُ لهما. انجرّتْ عن تردّدهما الكبير حركاتٌ عشوائيّةٌ دفعتْ لذّتهما إلى أقاصيَ فاقتْ كلّ توقّعاتهما. أمّا من ناحيتها، فقد تفاجأتْ كثيرًا بحجم إقباله عليْها، إقباله الّذي زادته رائحةُ عرقِهَا حدّةً. أمّا من ناحيته، فقد اندهش كثيرًا أمام مرونة جسدها وجمال نهديها، نهداها اللّذانِ زاداه هيامًا فوق هيامه. احتفظا ببعض الملابس على جسديهما وهو ما زادهما في إقبال الواحد على الآخر. تَرْكُ بعض الملابس لأنّ بعض القوارب كانت تمرّ على مقربةٍ من مكانهما دون أن يراهما أحدٌ، قوارب تغصُّ بنساء يرشقن ورودا حمراء في شُعُورهنّ ورجال في قمصانهم البيضاء يشهرون عاليًا كؤوسًا من النّبيذ.

بدا ليون لفريدا وهو بلا نظّاراته الطبيّة رجلًا مختلفًا ووسيمًا، لكنّه اعترف لها أنّه يشعر بـ«سلب الإرادة» و«الضّياع التّامّ». وهو الأمر الّذي أثار ضحكتها الجنونيّة: «في المرّة القادمة، سأحتفظ بِكِيلُوتِي!» ثمّ غرقا في نومٍ عميق. استفاقا على صوت مجموعة موسيقيّة. من عادة هذه القنوات أن تعجّ بفرق موسيقيّة ترافقُ رحلات القوارب، فتمضي في عزف مُوسيقى «الماريمبا». غالبًا ما تكون تلك المعزوفات رومنسيّةً وغالبًا ما تتحدّث الأغاني عن الحبّ. لم تكن الأغنية الّتي استفاقا عليها شاذّة عن القاعدة. ظلّا في مخبئهما تحت الأغصان يُنصتان لأغنية «ماريا إيلينا»، انطلقت فريدا في تكرار اللّازمة على شاكلة جوقة سريّةٍ، وقد عمدت كما هي عادتُها دائمًا إلى تحريف الكلمات:

«لكَ قلبي وفرْجي

أنت شمسُ حياتي

أنا ملك لك، من فوقك ومن تحتك هناك حُبّي

سلّمتك قلبي وعدّة أشياء أخرى»

عندما عاد صاحبُ القارب اقترح عليهما المشاركة في معركة بالزّهور. تحمّستْ فريدا للمقترح أمّا ليون فسلّمَ أمره لهما. عند وصول القارب إلى قنالٍ آخر تلقّى ما يشبه أمطارًا من الزّهور انهالتْ عليهم من كلّ الاتّجاهات. أقحوانٌ وقَرَنفلُ وزنابقُ ولُوفٌ، ورودٌ راحت تردمُ كلّ شيء بينما كانت الفرق الموسيقيّة مستمرّةً في أغانيها بلا انقطاعٍ. تمنّى ليون وفريدا أن تدوم حفلة الزّهور هذه بالموسيقى المرافقة إلى أبد الآبدين. لكنّ وقت التّفكير في العودة آن أوانُهُ.

في طريق عودتهما، أمسكا بيد بعضهما البعض حال تلميذيْن صغيريْن. في الظّاهر، لم يتعرّف عليهما أحدٌ، لذلك كانا يشعران بالأمان وبالسّعادة الغامرة. تمّتْ عودة فريدا في كنف الهدوء- فقد رحل دييغو مرّةً أخرى مع موديلٍ مّا «مجريّة أو تشيكيّة، هذا لم يعد مهمًّا»، رحل بعد أنْ مزّق إحدى لوحاته بسكّين، لوحةٌ تمثّل نبتة صبّار، وبعد أن زعق عديد المرّات «كم كرهتُ مكسيك الخراء هذه!- في المقابل، كانت عودة ليون بعيدةً كلّ البعد على أن تتمّ في كنف الهدوء نفسه.

عندما وصل أمام بوّابة «الكازا أزول»، بدا له ضبّاطُ الشّرطة وحرسُهُ الخاصُّ في حالة من الاستنفار الأقصى. كان الجميع مذعورين على حياته لذلك توقّعوا كلّ شيءٍ بما في ذلك اختطافَهُ. هل ضاع في شوارع مكسيكو؟ هل تمكّن منه قتلة ستالين؟ من الطّبيعيّ أن تكون ناتاليا أكثرهم رُعبًا:

- لا تفعل بي ذلك مجدّدا أرجوك! لقد شارفتُ على الموت قلقًا! وقد أرسل رئيس شرطة رجالًا للبحث عنك في كلّ مكانٍ! أين كنت؟
- كنت أتجوّل...
- لكامل اليوم دون حراسة؟
- نعم.
- أين؟
- في كلّ مكانٍ.

- يعتقد البعض أنّ الدّولة المكسيكيّة ترصد أموالًا طائلةً في حمايتك، إذا ما استمررت على هذا المنوال لن تجد شرطيًا واحدًا أمام بابك!

لم يُجب ليون، اكتفى بأن يقول إنّ عليه الذّهاب إلى مكتبه للعمل. لا، إنّه ليس جائعًا ولا يريد شرب شيءٍ. لا، إنّه لا يريد التحدّث، ففي انتظاره عملٌ كثيرٌ. ولقد كانت تلك المرّة من المرّات النّادرة الّتي عمدت فيها ناتاليا ذات الطّبع الهادئ إلى غلق باب مكتب زوجها بقوّة مردّدة كلّ الشّتائم الّتي لم تردّدها من قبلُ.

جالسا إلى مكتبه، أخذ ليون ريشة وكتب على ورقة طواها فيما بعد وخبّأها بين صفحات كتاب: «فريدا، حبيبتي، إنّي أقبّل رأسك الغالي. إنّي أُغْرِق كتفيْك ويديْك ونهديْك وبطنك بالقبل».

في النّاحية الأخرى من المدينة، هناك فريدا الغارقة في التّفكير فيما عاشتْهُ لتوّها. لوهلةٍ بدتْ كمن فَهِمَ كلّ شيء ضربةً واحدةً، كما لو أنّ برقًا انطلق من سمائه ليضيء الأرض برمّتها. من الغد لها أن تغادر سان أنخيل، لها أن تغادر دييغو فتتركه وجهًا لوجْهٍ مع أكاذيبه، لها أن تعود للعيْش في المنزل رقم 432 من شارع «لوس أنسورجنتيس».

جافاها النّومُ تلك الليلة. تركت النّافذة مفتوحةً حتّى تصلها الضجّة المتصاعدة من المدينة، وهي ضجّة تنتهي عادةً بالصّمت المُطبق، بعد ذلك الصّمت يسود نوعٌ من الرّعب الغامض الّذي ينبعث فجأة من عمق ليالي مكسيكو الحالكة.

أحيانًا، كان عليْها أن تعترفَ بأنّها مسكونة بخوف عميق من هذه المدينة. صحيح أنّ مكسيكو في النّهار تكون مسكونة بجمال ساحر لكنّ ليلها مليء بالبشاعة والرّذيلة. هي السّعادة الّتي شهدتها في الغرفة الخضراء ما جعلتها تكتشف في نفسها كلّ هذا الخوف. وماذا لو كانت نهاية حبّها الأخير نهاية تعيسة مثل غيرها من النّهايات؟

17

في الأيّام الّتي تلتْ أمسية قارب «تسوتشيميلكو» المُزهر، لم تُغادر فريدا منزلها في سان أنخيل لأنّ دييغو كان قد قرّر في النّهاية الغياب لعدّة أسابيع، لماذا إذن عليْها أن تُسرّع الأشياء؟ أمّا ليون فإنّه لم يتمكّن من مغادرة منزله لأنّ الوضعيّة ازدادتْ تعقيدًا على تعقّدها القديم.

كانا خطّطا للقاءات أخرى إلّا أنّ عليهما تأجيل كلّ شيء. اكتفى كلاهما ببعض الرّسائل الّتي كانا يدسّان بها في الكتب. «لم أعش رغبةً بذلك الحجم من قبل. إنّك تسكنينني يا جميلتي»، كتب ليون لفريدا. «في غيابك يبدو لي كلّ شيء قبيحًا. إنّي أعشقك كما لم أعشق من قبل، عشقٌ يتزايد يومًا بعد يومٍ». كتبت فريدا لليون في رسالةٍ وضعتها داخل ظرف ترتسم عليه آثار أحمر شفتيْها قبل أن تدس بالرّسالة في كتاب «الرّجال ذوو النيّة الحسنة» لجول رومان وهي تعلم أنّ ليون يقرأ قبل أن يبدأ قيلولته الاعتياديّة.

مع حلول الأيّام المعتدلة، توافد مناضلون ترتسكيّون كثرٌ وأحاطوا المنزل من كلّ ناحيةٍ وهو ما أفسد خطط العاشقيْنِ. جامعيّون وصحفيّون ولاجئون سياسيّون جاؤوا من كافّة البلدان الأوربيّة ومثّقفون ومحامون ونقابيّون وناشرون. لا ننسى طبعًا السيّاح العاديّين بمن فيهم ممثّلون سينمائيّون من هوليود مثل إدوارد ج. روبنسون بالإضافة للسّيناتور هنري آلّين المسؤول السّابق في حملة هوفر الرّئاسيّة. قدم هؤلاء جميعًا للبيت الأزرق من أجل محاورة تروتسكي ومواجهته فكريًّا.

ومثلما توقّعت ناتاليا من قبلُ، فقد تمّ التخفيض في عدد الفريق المكلّف

بحراسة زوجها إلى ثمانية أنفار يتناوبون كلّ اثنتيْ عشرة ساعة. هذا يرافقه بطبيعة الحال تخفيض في الأسلحة الّتي لا تتجاوز الثّمانية مع خمس أحزمة ذخيرة أي ما يُعادل مائتيْن وخميس خرطوشةً. لكنّ الأخطر من ذلك، هو تنامي الحملة المضادّة لتروتسكي الّتي يقودها الحزب الشّيوعي وأنصاره. بالنّسبة لهم تروتسكي هو «عدوّ من أعداء الشّعب» و«أفكاره متناغمة مع أفكار الفاشيّة»، لذلك ليس أمام ليون سوى أن «يصمد». قرّر الشّيوعيون المكسيكيّون بمساعدة من فريقٍ متكوّن من جلّادين في الشّرطة الرّوسيّة السريّة وعلى رأسهم الرّسّام ديفيد ألفارو سيكيروس، وبقرارٍ تبلور في إسبانيا على السّعي إلى تصفية تروتسكي.

في خضمّ هذه المعمعة، كان العاشقان مطالبيْنِ باستنباط حيلٍ تتجدّد كلّ مرّة من أجل لقاء بسيط. اهتدت فريدا لفكرةٍ سارعت بدسّها في رسالة في كتاب «أغنية نفسي»، وهو ديوان تحبّه للشّاعر والت ويتمان أين أعلمت ليون: بإمكانهما الالتقاء في الشّقة الّتي تملكها أختها كريستينا في «شارع أغوايو».

كانت تلك الشّقة ملاذهما طيلة شهر يونيو، هناك حيثُ أتيح لهما عيشُ ميولهما الأكثر جنونًا. كان ليون أسير شخصيّة فريدا الطّفوليّة، فريدا الّتي كانت تلجأ لألعاب إيروتيكيّة حتّى تتخلّص ممّا تُسمّيه هي نفسها «الشّعور المدوّخ بالفراغ». كانت فريدا أسيرة جرأة بعض الكلمات أو الحركات الّتي كان ليون لا يتردّد في أن يجازيها بها، معترفًا بأنّه معها اكتسب جرأة على فعل أشياء لم يفعلها من قبل. تعشق فريدا أن يُداعب ليون نهديْها، وأن تداعبَ هي أيْرَ ليون وشعارها في ذلك «في الجنس، كلّ ما يحقّق اللذّة طيّب، وكلّ ما يؤلم شرّ مطلق». لم يكونا يتحسّران إلّا على شيء واحدٍ: ألّا يستفيقا فجرًا وهما متعانقان. ومن النّافذة المفتوحة على الشّرفة، كانا سيتشمّمان معًا رائحة التّربة المُبلّلة الّتي تُرافقها روائح أشجار الجكرندة والبراكين المفاجئة.

- الفجر هنا يقرّبُ منك كلّ شيء، تقول فريدا. الجبال كما الغابات. وعندما تغمض عينيْك وتستنشق الهواء تصلك روائحُ مكسيكو الأكثر عُمقًا.

- لا حاجة بي للفجر يجيبُ ليون حاشرًا أنفه في فرْجِ فريدا. أن أتشمّمك أنت، من هنا، لا يختلف عن تشمّم بداية كلّ الصّباحات. تُشبه رائحتك الرّوائح الضّائعة من بحيرة مكسيكو القديمة.

بلغت نشوة فريدا ذروتها في شقّة «شارع أغوايو». باستطاعة ليون أن يعتبر براعته هي الوحيدة المسؤولة عن تلك الذّروة. ويكون بذلك غير عارفٍ بعامليْنِ تدسّ بهما فريدا في عمق أعماقها وهما اللّذان كانا يدفعان نشوتها إلى أعلاها، وَلَكَمْ كان مخطئا.

يعود العاملُ الأوّل إلى سنة 1934، إلى اليوم الّذي خضعتْ فيها فريدا لعمليّة إجهاض بعد ثلاثة أشهر متواصلةٍ من الحمْلِ، يومها نصحها الأطبّاء بالامتناع عن ممارسة أيّ نشاطٍ جنسيّ لفترةٍ معيّنة. وفي أثناء إقامتها في المستشفى، انطلق دييغو، الّذي كان في الماضي قد طلب من كريستينا أن تكون موديلَهُ العاري، مع الّتي رسمها في لوحةٍ على أنّها حوّاء بدينة تُمسك وردةً على شكل فرْجٍ، في علاقة حبّ دائمة. ودائمة، لأنّ الأمر وصل به إلى دفعها للانتقال للعيش معه في شقّة «كالي فلورنسيا». كانت كريستينا معه سَعيدةً وكريمةً وذات أنوثة مُغويةٍ. فبعد حادث فريدا المروّع، تركتْ تلك الخيانة المضاعفة -من قبل الزّوج والأخت- جرحًا نازفًا طوال حياته. لذلك حين طلبتْ من كريستينا أن تُعيرها شقّتها فرضتْ عليْها أن تكون حليفتها في الانتقام من تلك الخيانة القديمة.

غير أنّ الأمورَ لم تكنْ لِتَقِف عند ذلك الحدّ. لطالما عذّبتْ تلك الخيانةُ المُضاعفة فريدا. لقد تطلّب الأمرُ سنواتٍ عديدةٍ حتّى تتمكّن مِنْ تحرير نفسها

من شبكة العنكبوت الّتي تحالف على نسجها غيرتُها وحزنها. لذلك، ما إن أفاقت من آثار الصّدمة حتّى قرّرت استغلال الحرّيّة الجنسيّة نفسها الّتي كان ينعم بها زوجُهَا. قرارٌ نفّذتْه عديد المرّات منذُ ذلك الخريف الكئيب لسنة 1934. إلّا أنّ متعة انتقامها كانت مضاعفة هذه المرّة: فهي تضاجع أب زوجها الرّوحيّ في شقّة أختها الخائنة. كانت تعاقبُ دييغو وفي الوقت نفسه تقوم بفعل نضاليّ. لقد أبقت على شيوعيّتها العميقة دون أن تنخرط في العنف الإجراميّ الّذي يقوم به سكيروس ورفاقه، وهيَ تضاجع رجلَ الأمميّة الرّابعة. هذا الرّجلُ كما يحلو بأن تُحدّث أخته عنه «كان يضاجعها بقداسةٍ». بشكلٍ عام، أليْسَ هذا أهمّ ما في الأمر؟

telegram @
yasmeenbook

18

هناك نوعٌ من الرّوتين الّذي أخذ في التّسلّل شيئًا فشيئًا إلى علاقتهما، هذا إلى جانب الخشية نفسها من أنْ يُكتشفا أمرهما وضرورة مراوغة البوليس السّياسيّ في كلّ مرّة يذهب للالتقاء بها. كان تروتسكي يعمل كثيرًا أمّا فريدا فلم ترسم في حياتها مثلما فعلت خلال تلك الفترة. كان يلتقيان دائمًا في شقّة كريستينا أين يبدعان لُعَبًا جنسيّةً جديدة أو يقضيان ساعات طويلة في الخوض في كلّ شيء ولا شيء، واثقيْنِ تمامًا من أنّ لا أحد في مقدوره اختراق سرّهما.

في موفّى يونيو، وجّهت فريدا الّتي كانت تعمل حثيثًا على إقامة معرض فنيّ دعواتٍ لعدّة أصدقاء ثقاتٍ ممّن يمكن لهم أن يسدوْا لها نصائح على مأدبة عشاء يطلق عليها في المكسيك اسم «مأدبة المفارش الطّويلة»، من الطّبيعيّ أن يكون ليون وزوجته من ضمن المدعوّين. كانت السّهرةُ حميميّةً والأكل كأشهى ما يكون. حساءٌ سميكٌ معدّ طبق العادات المنزليّة، شرائح لحم الخنزير المنقّع في صلصلة نصف حامضة نصف ناعمة، فطائر البطاطس، سلطة الكوسا، فاصوليا سوداء مقليّة مع الجبن، عصير ليمون، كانت مأدبة تستجيب لكلّ الأذواق. عندما آن أوان تناول التّحلية وهو وقت فريدا المفضّل في كلّ المأدبة، وجد الجميع الأناناس المحشوّ مع البسكويت. ارتفعت الحرارة بعدّة درجاتٍ. ولعب النّبيذ برؤوس الجميع ليشرع كلّ واحد في ترديد أغنيته المفضّلة. تراوحت بين أغاني الثّورة المكسيكيّة والألحان الشّعبيّة. في الأثناء، كان دييغو غارقا في ارتشاف منقوع زهر البرتقال ما بين كوب التّكيلا والآخر، أمّا فريدا فقد كانت تُخطّط لمغادرة الغرفة من أجل أن تُطلع «الرّفيق تروتسكي» على لوحاتها الأخيرة

مردّدةً للأغنية الشّ الشّهيرة التّالية «ذاهبٌ للميناء أين القارب المذهّب الّذي سيأخذني، أنا راحلٌ، وأنا هنا لأقول لكم وداعًا لا غير»...

- فكرةٌ رائعة، قال دييغو قبل أن يُضيف وهو يناول ناتاليا كأس تكيلا رفضته: أمّا أنا فسأبقى هنا مع ناتاليا.
- لم لا، ردّت ناتاليا وهي لا تكادُ تفقه شيئًا من كلّ ما يدور حولها.
- ها أنذا، همس دييغو لناتاليا مترنّما على طريقته الخاصّة بالأغنية المكسيكيّة «حبيبتي الجميلة»: «حبيبتي الجميلة يا ناتاليا، إذا متّ بعيدًا عنك، دعيهم يخبروك أنّي نمتُ لا غير وأنّ عليهم أن يعيدوني إليك... أغنّي لخصرك الجميل ونهديْك وشفتيْك، لوركيْك اللّذان أراهما طلاسم عشقي...»

كانت ورشة فريدا مُظلمةً. تلامست يدا الحبيبيْنِ وهما يتحسّسان الجدار بحثًا عن المفتاح الكهربائيّ. قبّل ليون فريدا الّتي استسلمت له لوهلةٍ انتهت بتراجعها بخطوة إلى الوراء تزامنت مع إنارةٍ مفاجئة لكلّ الورشة. كانت فريدا متوتّرة مثلما تكون في كلّ مرّةٍ تُريد إطلاع أحد على أعمالها الأخيرة.

- كأنّي أفتح أمامكَ رجليّ لتنظر مباشرة في فرْجِي، تمتمتْ فريدا بقولها وهي تُزيح قماشًا ملطّخًا بالألوان عن ثلاث لوحاتٍ متجاورات.
- نعم، كشف اللّوحات لا يختلف كثيرًا عن استعراضٍ عارٍ، ردّ ليون شبه مضطربٍ.
- تماما، لقد فهمت كلّ شيء يا حبيبي.

تمثّل اللّوحة الأولى قدّيسةً هنديّةً على وجهها قناع يعود إلى أزمنة ما قبل كولومبوس وهيْ ترضع فريدا الّتي كانت بوجه البالغة وجسد الطّفل.

- مرضعتي وأنا، قالت فريدا، وهي عربيدة حقيقيّة في الواقع.

على اللّوحة الثّانية، كانت هناك آنية مليئة بزهور بريّة بسيقانها الّتي كانت تُشكّل بوضوحٍ أعضاءً جنسيّةً كانت تبدو مهيبةً بجوار وردةٍ منعزلة.

- هي وردةٌ محرومة من الماء، وعلى وشك الموت؟ سأل ليون.
- نعم، تماما. أجابت فريدا وهي تمرّر يدها على خدّه. عنونتها بـ«أنا لِمَالِكَتِي...».
- ولماذا عبارة «تحيا مكسيكو» المكتوبة على الآنية الطّينيّة؟
- هذا حبّي لوطني دون شكّ يا حبيبي...
- ألا يعني هذا أنّك تبقين «ملكًا» لدييغو دائمًا برغم حبّك لي؟
- كما تبقى أنت ملكًا لناتاليا يا رجلي ذا العثنون، أليْس كذلك؟

لم يجب ليون.

- انظر، قالت فريدا وهي تكشف لوحةً ثالثةً.

ابتسم ليون. كانت اللّوحة عبارة عن منمنمتيْنِ صغيرتين لا تتجاوزان 14X9 موضوعتيْن داخل إطار شبيه بإطار قيثارة مزيّنة بالأصداف. المنمنمة الأولى كانت تحمل سمات فريدا، المنمنمة الثّانية تحمل سمات ليون. كان يربط كليْهما حبلٌ محيطٌ بعنقيْهما على شاكلة مشنقة.

- ليون وأنا 1937 - 19...
- تركت على التّاريخ الثّاني مفتوحًا على كلّ الاحتمالات.
- يعلم اللهّ وحده ماذا يخبّئ لنا المستقبل، يا عزيزي.

بعد صمتٍ وجيزٍ، قال ليون:

- إذًا، عملت كثيرًا في الفترة الأخيرة؟
- نعم، بفضلك أنت، يا حبيبي. هذا ليس كلّ شيء أضافتْ متوجّهة للكشف عن لوحة أخرى غير مكتملة لا يبدو منها سوى الرّأس.
- هل هذه أنت؟
- نعم، إنّها بورتريه ذاتي. عندما أنتهي منه، سأهديه لك.

اغتمّ ليون فجأة عوض أن يفرح بالهديّة الموعودة. ليس لأنّ اللّوحة لم تعجبه، بل العكس تمامًا. ففرحته بأن يتلقّى هديّة مثل تلك أفسدتها مخاوفٌ غلبت كلّ عاطفة أخرى، مخاوف لم يرد كشفها يومًا.

- ماذا حدث؟ سألت فريدا.

بعد تردّد قصير، اعترف لها بأنّه كان دائمًا خائفًا. البارحة، قالت له ناتاليا وهما على يستعدّان للنّوم إنّها هاتفته وهاتفت فريدا عديد المرّات. حلم في اللّيلة ذاتها أنّه فرّ من السّجن وقطع مئات الكيلومترات من الصّحراء المجمّدة على متن عربة تجرّها حيوانات الرّنّة ويوجّهها سائسٌ سكران.

- بدا لي حلمك شعريًّا أكثر من أيّ شيء آخر. علّقت فريدا بقولها.

- لا، في شهر فبراير سنة 1906، فررتُ من سجن «بيريزوفو» إلى أين تمّ استبعادي، وهي مدينة تقع خارج الدّائرة القطبيّة... التقيْتُ بناتاليا على إثر فراري. كانت قد وضعت ابني وأنا في السّجن. وجدتُها في انتظار في محطّةٍ صغيرةٍ من الخشب المغطّى بالثّلوج، كان الأبيضُ يغطّي كلّ مكانٍ حول تلك المحطّة... شارفتْ ناتاليا على الجنون بسبب حُلمي لتلك اللّيلة. اعتقدت أنّ شيئًا فظيعا على وشك الحدوث بيننا و...

لم يُنهِ تروتسكي كلامه. وجّهت فريدا مسامعها إلى الممرّ المؤدّي إلى ورشة دييغو من أين صدح صوتُهُ بالنّشيد الأمميّ. كانت تلك طريقته للإعلان عن مجيئه، لا من أجل تحذيرها لكنّه تعوّد على فعل الأمر نفسه في كلّ مرّةٍ يتوجّه إلى ورشتها، كان في كلّ مرّة يُدندن بكلمات ذلك النّشيد اللّعين. كذلك كان الأمر. تظاهرتْ فريدا وليون بالاستغراق في تأمّل لوحة «مرضعتي وأنا».

ظهرت ناتاليا مع دييغو، بدتْ عليها علاماتُ الانتصار وقد جاءت تعلن لليون أنّه عليه التوجّه من الغد إلى الجبال ومعه حارسه الشّخصيّ:

- ذلك من أجل ممارسة بعض التّمارين الرّياضيّة، من أجل ممارسة الزّراعة وركوب الخيل والصّيد...
- هكذا، على شاكلة سارقٍ، دون أن يعلمنا؟ سأل دييغو.
- إلى أين سيرحلُ؟ تابعتْ فريدا.
- إلى مزرعة تقع على بعد مائة وثلاثين كيلومترًا شمال مكسيكو، في مكانٍ قريب من مدينة «سان ميغيل ريغلا»، أجابت ناتاليا.
- لا علم لي بكلّ ذلك. قال ليون ساخرًا.
- لقد نسيتُ أن أعلمك، تلقّيتُ مكالمةً من لانديرو، أصبحت المزرعةُ خاليةً تمامًا. بإمكانك الذّهاب متى شئت إذًا... الطّقس ملائمٌ جدّا هذه الأيّام. ليس لديْك عملٌ كثير... لذلك، وافقتُ على مقترحه. مفاجأةٌ جميلة، أليْسَ كذلك؟

من الواضح أنّ ناتاليا قد فاجأت الجميع. كانت بإعلانه عن هذا السّفر الطّارئ قد وضعتْ ليون أمام الأمر الواقع. لن يدخلا في خصامٍ أمام مضيّفيْهما مثل أخرقيْن.

كانت النّظرة الّتي حدجتْ بها زوجها ومن بعده فريدَا نظرةً تُخبّئ الكثيرَ من المعاني الّتي قد تتّسع إلى بعض الشّكوك.

19

تعبتْ فريدا كثيرًا بعد مسير أكثر من مائة كيلومترًا في الدّروب الوعرة حيثُ كانت تكثر الحفر في جبال من البازلت الأحمر، وبعد أن عبرتْ قُرًى ذات طُرق شديدة الانحدار أين الحاناتُ الكثيرة والحمير والغبار والإقاماتُ القديمة بألوانها الورديّة الّتي شحبتْ بفعل الزّمن. وبالرّغم من أنّ سائق دييغو كان يقود سيّارة الفورد القديمة المتهالكة متوخّيا كلّ الحذر اللّازم إلّا أنّها شارفا على السّقوط في الأجراف الكثيرة. لكن، ما إن أطلّت اللّافتةُ معلنةً عن وصولها إلى «سان ميغيل ريغلا»، استبشرتْ فريدا وشعرتْ أنّ إرهاقها تبخّر نهائيًا بمفعول كان أقرب إلى السّحر. حينذاك، كانت السّماءُ تعجّ بنسورٍ تُحلّق دائريًّا.

بما أنّ لا أحد كان على علمٍ بزيارتها فإنّ فريدا لم تتوقّع أنْ تُحظى باستقبالٍ جيّدٍ. حتّى أنّها في المرّات الكثيرة الّتي أوقف السيّارةَ رجالٌ ذوو ملامح مُرعبة وأسلحة رشّاشة ليُنْزِلُوا الرّاكبَيْنِ من السيّارة لم تنزعج البتّة. على العكس من ذلك تمامًا، شعرت عند رؤيتهم بالاطمئنان: يكفي أنّها خرجتْ حيّةً من هذه الرّحلة العجيبة عبر طُرقٍ مُغبرّة أين كانت تبرز فجأة شاحناتٌ عملاقةٌ كأنّها رسُلٌ آتيةٌ من العدم أو قبورٌ مشرعة على مصراعيها. ولقد كانت محقّةً، فما إنْ نزلت من السيّارة حتّى تعرّف عليها «خيسوس كاساس»، ملازم الشّرطة المسؤول السّابق على أمن شارع لندن وهو هنا لأنّه من الّذين يتبعون تروتسكي حيثما حلّ.

- أنا لا أفعل سوى القيام واجبي يا «سيّدة ريفيرا»، قال.

كانت فريدا تكره بأن ينادوها بهذه الكنية، «السيّدة ريفيرا»، هذا يعني أنّ «فريدا كاهلو» بلا وجود بالنّسبة إلى موظّف الشّرطة، المهمّ في الأمر هو أن تكون

«السيّدة ريفيرا». وبينما كان السّائق بصدد ركن السيّارة، أكملتْ فريدا المسافة القصيرة الّتي تفصلها عن مدخل المزرعة الضّائعة وسط غابة الصّنوبر على القدمين. كانت هناك بنايةٌ مربّعةٌ وفسيحة، تشبه في تصميمها إحدى القلاع، بُنِيَتْ الغرف حول فناء، غرفٌ كثيرةٌ لها نوافذ ذات أعمدة حديديّة تفتح على الخارج. تروتسكي مقيمٌ في شقّة صغيرة تقع وراء البناية. وبعد أن تمّ إعلامه من قبل حرّاسه بوصول فريدا، أسرع إلى المدخل وظّل واقفًا في انتظارها.

- ثلاثة أيّام دون رؤيتك، هذا أكبر من أنْ أتحمّله، قالت وهي تُلقي بنفسها بين ذراعيْه.
- انتظري، ليس هنا. ثمّ جرّها إلى الدّاخل.
- لا أحد هنا.
- لا تُغالطي نفسك، يمكن رؤية كلّ شيء هنا، الجواسيس مزروعون في كلّ مكانٍ أجاب مشيرًا إلى امرأة بدينة دخلت لتوّها: تيريزا، الطبّاخة.
- هل هي بارعة في الطّبخ؟ همست فريدا في أذن ليون.
- لا، على الإطلاق. أجاب وهو ينتظر أن تغادر المرأة حتّى يتمكّن من تقبيل فريدا عميقًا. ثمّ أضاف: كان عليْكِ إخباري بقدومك.
- لن تكون مفاجأة في هذه الحال أيّها التّيس الصّغير، قالت فريدا ضاحكةً. ألسْتَ سعيدًا برؤيتي؟
- سعيدٌ بالتّأكيد.
- لم أرد أن أقضي عيد ميلادي بعيدةً عنك.
- عيد ميلادك؟
- 7 يوليو! في النّهاية هو يوم 6 يوليو، لكنّي اعتدتُ الاحتفال به يوم 7! ثلاثون سنة، عمرٌ جميلٌ، أليْس كذلك؟ إه أيّها العجوز...

بدا على تروتسكي بعض القلق.

- لم أعدّ هديّةً لك...

- أمّا أنا ففعلت! اعتدتُ في عيد ميلادي أن أقدّم بعض الهدايا. أغمض عينيْك.

في لمح البصر، دسّت بيديه صندوقًا صغيرا أزرق ثمّ شرعتْ في التّحدّث وهي تفتح الصّندوق. كان قلم حبرٍ حصلت عليه من مكتبة «مزراتشي» وقد نقشتْ على غطائه توقيعه.

- وهكذا ستكون مجبرًا على الكتابة إليّ!

- كيف حصلت على توقيعي؟

- لقد سرقته. ردّت فريدَا مصطنعةً بعض الوقاحة.

كانت المزرعة الفسيحة الّتي توحي في مظهرها بالصّرامة والهدوء قد نالت إعجاب ناتاليا على الفور، لذلك خطّطتْ لإرسال زوجها إليها حتّى ينشغل بأشياء أخرى عدا فريدَا، وها هي اليوم تخترقها بهجةٌ مفاجئةٌ كما تُخترق السّماء ببرقٍ خاطفٍ. لم تكفّ فريدا عن القفز هنا وهناك بعفويّة وحيويّة. فَهِم ليون الغارق في تأمّلها بغبطةٍ كبيرةٍ كما كان يفهم في كلّ مرّة يلتقيها لماذا أعجبته هذه المرأة منذ اليوم الأوّل حينما جاءت لانتظاره في تامبيكو. إنّها امرأةٌ لا تهدأ، تراها مرّةً تُبدي رأيها في الدّيكور وأخرى تتأسّف على عدم توفّر باقاتٍ كافيةٍ من الزّهور وأخرى تأمر بغلق هذه النّافذة وفتح نافذة ثانية لتعلن في النّهاية أنّ عيش رجال بمفردهم في منزلٍ وخصوصًا حين يكون أغلبهم مسلّحين إلى حدود العظم، أشبهُ بالطّامّة الكبرى، وأنّه على ما يبدو لا وجود لشيء يمكن أكله وأنّها بالرّغم من كلّ شيء ستحتفل بعيد ميلادها:

- فيما عدا بعض الشّموع القديمة، وقطع من الصّابون المذوّب، وحبّات الفلفل الذّابلة وبعض الجنادب المُجفّفة، والغبار الّذي يعمّ كلّ مكان، وبرج الحمام مهجور، لا وجود لشيء يُذكر. آه، نسيت. هناك زجاجات

من شراب «التّيباتشي» لمن يريد أنْ يخرّب رأسه. بكلّ هذا لا يمكننا الذّهابُ بعيدًا.

عرضتْ فريدَا بعض الحُلول: بما أنّ هؤلاء الرّجال مسلّحون فإنّهم قادرون على اصطياد البطّ والحمام على ضفاف الوادي الّذي يشقّ الجبل. سوف تطبخها على الطّريقة المكسيكيّة! أمّا هي فستتوجّه إلى سوق «هواسكا»، المدينة الصّغيرة الواقعة على بعد ثلاث كيلومتراتٍ من «سان ميغيل أنخيل»، المدينة الّتي كانت فيما مضى مركزًا رئيسيًا لمناجم المعادن، لم يتبقّ منها اليوم شيءٌ يُذكر فيما عدا بعض الميول للاحتفال المتوارثة عن زمنٍ كان فيه الذّهب والفضّة يسيلان على شكلٍ أمواج. إلى هناك، في قلب استعراضات يوليو، وسط الموسيقى والحرارة والغبار سيذهبان للتسوّق وسيجلبان ما به يُعدّان طاولةً جميلةً.

- مفرش طاولة أبيض مطرّز وفق موضة مدينة «أغواس كالينتس»، صحون «تالافيرا» وكؤوس زرقاء من البلّور المنفوخ.

- هل أنت متأكّدة من أنّنا سنعثر على كلّ ما ذكرتِ؟ سأل ليون.

- هذا مؤكّد يا خُنفسي العزيز. أجابت فريدا.

كادت جولتهما في ممرّات سوق «هواسكا» أنْ تشهد منعرجًا خطيرًا. فما إن وصلا حتّى هجم عليهما شابّ خرج راكضا من مكتب البريد وقد تعرّف على تروتسكي بالرّغم من أن أنّه كان يرتدي بنطالًا قصيرًا ونعالًا منزليّا. حيّاه الشّابّ برفع قبضته عاليا! من حسن الحظ أنّ فريدا تمكّنت من السّيطرة على الموقف بسرعة، إذ عمدت إلى شدّ ليون من كتفه لتسحبه بقوّة وتتوغّلَ به في زحمة السّوق. اشترت بعض الفاصوليا السّوداء لإعداد السّلطة، وجرجيرا وطماطم وعددًا من حبّات الأفوكادو لإحضار حساء الجمبري ومسحوق الكاكاو الّذي ستستخدمه في إعداد بعض الصّلصات.

- سيريحك قليلًا من الذّرة المسلوقة والموز! قالت لليون.

عند عودتها إلى المزرعة، انشغلتْ فريدا بإعداد الطّعام ومعها تيريزا الّتي تذمّرتْ كثيرًا من فقدانها لزعامتها، نصبتْ طاولة الاحتفال في الفناء حيثُ تنبت الأشجارُ والورود، أين تُربّي تيريزا خنازيرها الهنديّة وأين تعيش دجاجة روميّة وديك عجوزان. أُخْتُتِم العشاء بالأغاني كما جرت العادة. لكن وبدلًا من أغاني «المانيانيتاس» التّقليديّة، خيّرت فريدا أنْ يعلو صوتها بألحان حزينة، مثل أغنية «الخطاطيف» الّتي تتحدّث عن الحبّ والانفصال.

خلال تلك اللّيلة الأولى الّتي قضّياها معًا، لم تمارس فريدا وليون الحبّ دون يتساءلا عن السّبب. قصّ عليها ليون كيف عاش أيّامه القليلة الماضية. هل يعود ذلك إلى الحرارة الخانقة أو إلى التّعب؟ كان يتجوّل قليلًا ويكتب كثيرًا ويذهب للجلوس طويلًا في الفناء مع الدّجاجة الرّوميّة والدّيك اللّذين أصبحا يزورانه في مكتبه من حينٍ إلى آخر. كان ينامُ كثيرًا ويلخّص حالته بالجملة العجيبة التّالية: «أفكارٌ ومشاعرٌ مختنقةٌ وغامضة. هذا أفضل». من ناحيتها، لم تتحدّث فريدا إلّا عن لوحاتها. كذلك حالها دائمًا عندما تكون في فترة من العمل الغزير. كانت كمن لا يستطيع فعل شيء آخر عدا الرّسم والحديث عمّا ترسمه. كان دييغو عرّابا لدياس الصّغير، دياس روزاس الهنديّ الّذي مثل موديله لفترة. مات الطّفل في سنّ مبكّرة جدًا مثل كلّ الرّوزاسيّين الّذين كانوا يخيّرون الإصغاء للسّحرة أكثر من إصغائهم للأطبّاء. منذ زمن الاستعمار، كان رسم بورتريهات للأموات نوعًا من التّقليد الّذي يعتمد في تكريم الكائنات المثاليّة. لذلك، أرادت أن تكرّم على طريقتها دياس الصّغير الّذي مات دون سبب في الثالثة من عمره. رسمته ممدّدًا على فراش الموت، على رأسه تاج ورقيّ، يرتدي معطفًا حريريّا على شاكلة «الحكماء المجوس الثّلاث»، كانت عيناه مفتوحتيْن وضائعتين في اللّامعنى.

- الموت بنظرةٍ من ملحدة، قال ليون.

- نعم، تماما. موتُ الأطفال وصل معدّلات خياليّة في المكسيك.

- هل وضعت للوحة عنوانًا.

- الهالك دياس.

بعد ذلك، ناما وقد بلغ منهما التّعب مبلغًا كبيرًا.

في الصّباح، استيقظا على شذا زهور القرنفل الخفيف، شذا يختلط مع رائحة غابة الصّنوبر إلى جانب روائح أخرى غامضة تأتي من أوراق الأشجار ومن القهوة الّتي كانت تيريزا بصدد إعدادها. صاح الدّيك. لم تستطع فريدا البقاء أكثر. لم يكن مجيؤها أكثر من نزوة. تنتظرهما لقاءات أخرى. وعدت بالعودة وهي تنظر إلى ليون في المرآة العاكسة، ليون الّذي ظلّ واقفا في مكانه، وكان يزدادُ صغرًا كلّما ازدادت سرعة السيّارة.

في طريق عودتها وبينما كانت «الفورد بريك» تشقّ طرقًا لا نهائيّة وسط نباتات الصبّار وتعبر القرى القليلة بأكواخها المبنيّة بالقش، دبّ في فريدا شعورٌ غريبٌ، شعور بالفراغ والظّلام. كانت هناك حيطانٌ صخريّة كثيرة وبقع من الورود الأرجوانيّة وأشجار المانجو السّامقة وأشجار الموز. كانت الطّرق ضيّقة وملتوية تُشبه من بعيد جداول من الحصى. كانت عودتها إلى مكسيكو أقرب إلى الحلم. كانت تُفكّر في ليون، لكنّه كان بعيدًا، مقيما في شكلٍ من أشكال النّسيان. ثمّة لوحتها في النّهاية، لن تُسمّيها «الهالك دياس» لكن «المتنكّر لأجل الجنّة». إنّه عنوانٌ أكثر غموضًا لكنّه أكثر دقّة.

20

قطعت فريدا طريق «سان ميغيل ريغلا» مرّاتٍ عديدة، في أيّام غائمة وأخرى مشمسة متى كانت الأضواء على تلك الجبال السّاكنة أكثر نقاوةً منها في أيّ مكانٍ آخر. كانت في كلّ مرّة تستيقظ باكرًا لتشرب قهوتها سريعًا ثمّ تُسافر على الفور عساها تتمكّن من العودة إلى مكسيكو قبل حلول اللّيل، لأنّ طريق العودة تصبح أكثر خطورةً في الظّلام خصوصًا إذا تهاطلت الأمطار.

مع مرور الأيّام، ازدادت القصّة تعقيدًا. ثمّة من ناحية حياةُ ليون، هو المنشغل باصطياد الأسماك بمسكها بيديْه، المتنعّم بقيلولاته، معتلي صهوة جواده يجوب الفيافي القريبة، القارئ وهو يرتشف كوب شاي، الغارق في كتابة عملٍ لا يتعلّق بحياته بالرّغم من أنّه أحيانًا كان يعود إلى خطّ سطورٍ في السّيرة الذاتية «ذئب الكرملين». وثمّة حياةُ فريدا من ناحية أخرى، فريدا الّتي تؤمن أنّ الكائنات وحيدةٌ في الأصل وألّا أحد في مقدوره اقتلاعها من وحدتها تلك. وهي الّتي عادت إلى نفسها في تلك الفترة أكثر من أيّ زمنٍ آخر لتتساءل في كلّ مرّة حول قدرتها على التّغيّر، تلك القدرة الّتي كانت صلبةً عندها دائمًا. فليون، رغم المنفى والخوف واستبعاده إلى «سان ميغيل ريغلا» كان قادرًا على النّظر بعيدا، على أن يتوقّع كما فعل في دراسة فرغ منها للتّوّ تحالفًا عالميّا سيدوم عامين بين ألمانيا والاتّحاد السّوفييتي. لقد كان متأكّدًا من ذلك. في المقابل، كانت فريدا غارقة مخاوفها وشكوكها: الخوف من أن تعجز عن الرّسم فجأة، الخوف من أن تعود إليها أوجاعها، الخوف من أن تفقد السّيطرة على قصّة حبّها هذه، الخوف من أن تفقد ليون نهائيّا، لأنّ «هذه السّيرة الذّاتية اللّعينة» كما تُسمّيها، كانت

تمثّل شغل ستالين الشاغل، لذلك كان يسعى للقضاء على كاتبها قبل أن يتمكّن من إنهائها بكلّ الوسائل. كان ليون ما ينبغي أن يكون عليه. كانت الوضعيّة الّتي يتقاسمها العاشقان ما ينبغي أن تكون عليه أيضا. لكنّ فريدا، ما تزالُ غير مستعدّة لأن تنهي هذا الحبّ. ما تزال فريدا في حاجةٍ لليون.

في البداية، كان كلّ شيء سهلًا. أمّا الآن، فإنّ أبسط اختلاف بينهما أصبح يؤدّي حتمًا إلى خلافٍ جدّيّ. ففي إحدى الأيّام، وبينما كانت بصدد العودة صحبة ليون من جولةٍ تمكّنا خلالها من دخول إحدى الكنائس - يعلم الربّ وحده لماذا دخلا إلى مثل ذلك المكان- كانت كنيسة «باتشوكا» البيضاء ذات الزّخارف الزّرقاء والمذهّبة، البناية الّتي تغصّ بكلّ أنواع الزّهور البريّة والألياف الصّفراء المتدليّة على الأرضيّة. شعرا بسعادة عارمة، هما الملحدان، سعادة انبعثتْ من السّكون المطلق الّذي كان يسود المكان. غضب ليون غضبًا جنونيّا عندما أخبرته كيف ضبطها دييغو ذات يوم وهي تمارس الجنس مع النحّات الأمريكي ذي الأصول اليابانيّة «إيسامو ناغوتشي». كان الأمر شبيها بإحدى لقطات شارلي تشابلن! فرّ «ناغوتشي» عبر السّطوح ماسكًا سرواله بيده، ركض خلفه دييغو مُطلقا النّار من مسدّسه، بعد أن مزّق كلب فريدا جوارب العشيق الفارّ.

- نهاية، يا تيْسي الصّغير، لقد حدث هذا منذ سنةٍ! معنى ذلك أنّها قصّة قديمة! ثمّ اللّعنة، إنّي أسألك إذا حدث أن امتصّت ناتاليا قضيبك يومًا! إذا، توقّف أرجوك!

شعرت فريدا بالسّعادة على إثر فورة الغيرة السّخيفة تلك.

- أنت تُحبني حقّا، أيّها العجوز! نعم، لقد شعرت بالغيرة، هذا يعني أنّك تُحبّني! أجابت وهي تكرعُ كؤوسا من شراب «البولكا».

في الحقيقة، كان ذلك الخلاف يُحبّئ أمرًا آخر. لقد كان ليون قلقًا. كان متوتّرًا، وذلك ما كانَ يظهر عليه دائمًا قبيْلَ أن يلقيَ كلمته في الاجتماعات،

يمكن ملاحظة ذلك من خلال انقباض جسده وشحوبه، قد يصل الأمر به أحيانًا إلى الإغماء الّذي عاوده من جديد. أمّا ناتاليا الّتي لا تُفوّت يومًا دون الكتابة إليه فقد علمت بزيارات فريدا للمزرعة. كتبت إليه مرّاتٍ عديدة تطالبُ بتفاسير، وكانت الضّغوط تزدادُ يومًا بعد آخر. يسمّي المحيطون به – ابتداء من السّكرتير الخاصّ إلى الحرس الشّخصيّين الّذين تمّ ارسالهم في مهمّة لسان ميغيل ريغلا- تلك العلاقة بـ«العلاقة الفارغة الّتي لا مستقبل لها». كان تروتسكي، الّذي سخّر حياته بكاملها للسياسة الثّورة، بصدد التخلّي عن كلّ شيء. أن يكتشف دييغو علاقتهما ذلك يعني انفجارًا ذا عواقب لا يمكن لأحد تقديرها. أمّا الشّيوعيّون المكسيكيّون وعلى رأسهم سيكيروس، فإنهم سيطالبون بتفجيره هو نفسه. كان «جون فان هايجونورت» الّذي بذل سنوات عمره في خدمة تروتسكي أكثرهم شراسةً. فتروتسكي الّذي أهانه يوم علم بذهابه للرّقص في حفلٍ راقصٍ في مكسيكو، الّذي صدّع رأسه بضرورة التفرّغ التّام للقضيّة، الّذي لا يكفّ عن إلقاء المحاضرات عليه، الّذي يريد أنْ يقنع الجميع بأنّه مثالٌ للفضيلة، هذا الرّجل يضاجع زوجة الّذي وفّر المأوى له ويخون الّتي رافقته كلّ سنوات عمره الحالكة. «لقد وهبتك أجمل سنوات حياتي، لقد اتّخذتك مثالا، يا ليف دافيدوفيتش، يا لخيْبتي القاسية»، قال حينذاك «فان هايجونورت» والدّموع تنهمل من عينيْه.

لكن، على قدر إصرار الشقّ الآخر على حججه، كان تمسّك تروتسكي بمواقفه أكبرَ. أحيانًا، كان يضيق بالكازا أزول، كانتْ تتحوّل إلى سجنٍ مخصّصٍ للأشغال الشّاقّة: ترجمة، كتابة، نقر لا نهائي على الآلة الكاتبة، تقديم محاضرات، تدخلات، نوم اللّيل بدسّ مسدّس في البيجامة... وكلّ أولئك المتعاونين وعلى رأسهم ناتاليا لا يتحدّثون سوى عن الواجب والفضيلة والشّرف والزّهد. كان تروتسكي يضيق بكلّ شيءٍ. وكانت الرّسائل اللانهائيّة الواردة عليه باسم امرأة مجروحة اسمها ناتاليا تزيده ضيقًا. وفي مقابل هذا الاختناق، هناك فريدا،

المشعّة والطّريفة والعامرة بالحياة، القادرة على تجديد الحياة العاديّة، الضّاحكة دائما، المستعدّة دائمًا لكلّ أنواع المغامرات. ها هنا تكمن الأسباب الكامنة وراء انفجاره لأتفه الأسباب ووراء شعوره بالغيرة أيضًا.

في مطلع أغسطس، بينما كانت تستعدّ لرحلة أخرى لسان ميغيل ريغلا بإلقاء نظرة أخيرة على المرآة- على تنورتها القطنيّة الطّويلة ذات الأهداب، على ألوانها المُشرقة، على صّدريّتها المطرّزة، على مكياجها الخفيف وأحمر شفاهها الدّمويّ، على شعرها المفروق نصفين، المضفور والمشدود بشريط إلى فوق الرّقبة بقليل- فتحت الرّسالة الّتي أوصلوها إليها منذ حين. كان يمكن أن تقرأها في السيّارة، لكنّها قرّرت أن تتنعّم بقراءتها في شرفة منزل سان أنخيل. كان الطّقس جميلا وكانت قد تعرّفت على خطّ ليون. على الرّسالة رأت ختم مكتب بريد هواسكا. كانت مكتوبة بالحبر الأرجوانيّ، معنى ذلك أنّ ليون كتبها بالقلم الّذي أهدته له يوم عيد ميلادها.

قرأتها عديد المرّات، حتّى تتأكّد من أنها فهمت محتواها كما ينبغي. كانت تتوقّف عند كلّ جملة وعند كلّ كلمة. بدا لها ليون في الرّسالة مهزومًا، فارغًا، لا يكاد يستقرّ على رأي، مُعيدا كلّ ذلك إلى العمر وحده- «لم أعد أبذل أيّ جهدٍ، لم أعد أملك أيّ أفق». لم تصدّق فريدا ما كانت تقرأه بعينيْها. قبل أيّام قليلة جدّا، في سان ميغيل ريغلا، أبدى لها حبًّا كبيرًا وصلابةً أكبر. ها هو اليوم يحدّثها بكلّ بساطة عن حبّه المتعاظم الّذي صار عاجزًا على تحمّله. ستظلّ فريدا حبّه الأخير، المرأة الّتي جعلته يولد ويموت في آنٍ، لفشل في العيش ملْء الحياة. «عيناي تشيخان لذلك هما أضعف من أن تتحمّلا شمسك الباهرة»، كتب ملخّصًا قبل أن يختتم الرّسالة بقوله: «لا ينبغي أن نلتقي مرّة أخرى، يا حبيبتي. ملاحظة: احرصي على ألا تتركي هذه الرّسالة في متناول أيادي غريبة، احرقيها أرجوك يا حبيبتي، احرقيها».

ظلّت فريدا واجمةً لعدّة دقائق، كانت مُنهارة وبلا صوت. وبعد أن أعلمت السّائق بأنّها لن تذهب إلى سان ميغيل ريغلا، أخذت زجاجة ويسكي وذهبتْ لتختلي بنفسها في ورشتها.

21

قضت فريدا بعد ذلك أيّامًا تتجوّلُ هنا وهناك وكانت تدسُّ برسالة ليون في جيبها دون أن تملك الجرأة ولا الرّغبة في إعادة قراءتها. لقد كانت تلك الرّسالة المُحزنة شيئًا آخر أعمق من أيّ إعلان بسيط للقطيعة، كانتْ أجمل ما تلقّتْ على مدى حياتها، كتبها رجل ناضج تحوّل في كتابتها إلى تلميذ السّابعة عشر من العمر. «دائمًا ما يتزامنُ انبعاث الكائن البشريّ مع ميلاد حبّ جديد»، هذه جملةٌ استهلّ بها رسالته التي تبيّن لها أنّها لم تكن الوحيدة في الظّرف الكبير الّذي وصلها... ففي لهفة فريدا واضطرابها لم ترَ الرّسالة الثّانية... في فتحها راحتْ تغمغم بجملٍ من الأولى: «لم يكن الحبّ وحده ما وجدتُهُ بين يديْكِ وعلى شفتيْكِ وصدرك، لم أنعم بالحنان والعاطفة فقط، إنّها حياتي برمّتها الّتي استردتها معك»، «إنّي أؤكّد على أنّني معك دائمًا وأبدًا. في هذه اللّحظات المفعمة بالمشاعر، تغوصُ يدي في البرتقال، وأشعر أنّي أحوطك بذراعيّ»، لكنّ فريدا تفضّل الجملة التّالية: «نمتُ مع وردتك، لقد تركتِ ورودك فوق كتفي- ورودك الحمراء».

في ذلك الصّباح، ركبت السيّارة لتتوجّه من فورها إلى شمال غرب مكسيكو، أين هناك بلدَةٌ صغيرةٌ تبعد كيلومتراتٍ قليلة، بلدةٌ منبسطةٌ ومكشوفة، فيها تمتدّ حقولٌ كثيرة الصّخور والصّبّار والتّوت البرّيّ المغبرّ. خلف كومةٍ من الصّخور الصّفراء الكبيرة، هناك صفّ من أشجار الصّفصاف العملاقة الّتي تشكّلُ بقعةً خضراء تُخفي بحيرةً ذات مياه عميقة. عندما كانت فريدا طفلةً، كانت تصطحبُ أبويْها وأختيْها إلى هناك. ظلّت تزور ذاك المكان بانتظام كلّما داهمها حزنٌ يجرف بهجتها الطبيعيّة.

هناك فتحت الظّرف لتقرأ الرّسالة الثّانية. من المؤكّد أنّ ليون كان قد تأثّر كثيرًا بعد كتابة الرّسالة الأولى، فوضع الاثنتيْن معًا في الظّرف نفسه. الرسّالة الثّانية كانت موجّهةً لناتاليا! فريدا الّتي لم تكن تؤمن بالصّدفة بل بالقدر الّذي يضع النّاسَ في المكان المناسب تاركًا لهم الحريّة في أخذ القرار الّذي من شأنه أن سيغيّر حياتهم إلى الأبد. قرأت الرّسالة تلك بصوتٍ عالٍ أمام مياه البحيْرَة المتلألئة:

- «ناتا حبيبتي الوحيدة الأبديّة، امرأتي الوفيّة، ضحيّتي». الوغد الكبير! «آه من عينيْك يا ناتاشا، عيناك الّتي فيهما يرتسم شبابي حياتي برمّتها...» القمامتان العجوزان! «لقد ساء خطّي من فرط دموعي المنهمرة من عينيّ يا ناتالوشكا، لكنّ ثمة أمرٌ آخر إضافيّ...» يا للعاجز الحقير، الحطام الشيوعيّ الصّغير!

ولمزيد من ندب الحظّ السيّء أعادت قراءة الرّسالة الّتي وجّهها إليها بالصّوت العالي نفسه: «ستلتقي شفتانا، سنلتقي جسديْنِ وروحيْنِ، يا حبيبتي، يا ولادتي من جديد...».

«أوف! اللّعنة، قالت في نفسها ساكبةً جرعةً أخرى من الويسكي، كيف يمكن للرّجل أن يُرسل برسالتيْ حبّ لامرأتين مختلفتيْنِ في اليوم نفسه؟» كان ليون قد طلب منها إحراق الرّسالة بعد قراءتها. التقطت حجرةً دائريّة ولفّت به الرّسالتيْنِ ثمّ ألقتْ بها في مياه البحيرة، ظلّت تنتظر اختفاء التموّجات الّتي أحدثتْها الحجرة وعودة المياه إلى سالف نقاوتها وهدوئها لتغادر المكان دون التفاتةٍ.

كانت فريدا قد طلبت من السّائق أن يعود إليها في نهاية اليوم. لذلك، فقد تبقّى أمامها ساعاتٌ كثيرةٌ قبل عودته. على حافّة البحيرة، كان هناك سفينة صغيرةٌ تعرضُ مأكولات جيّدة. جلست إلى الطّاولة وزجاجة الويسكي لا تُفارق يديْها ثمّ طلبتْ وجبةً دسمةً.

- الحزنُ مبعثٌ للشّعور بالجوع الشّديد، قالت لصاحبة المطعم العائم وكانت امرأة خلاسيّة جميلة ترتدي فستانًا أحمر وتمشي حافية القدميْن، فقدّمت لها: حساء أرزّ مسلوق، سمك صغير مقليّ، قطع لحم مغلّاة، خضراوات، سلة مانجو، وعنبًا هنديّا وثمار السبّوتة. الحزنُ مبعث للجوع وللرّغبة في المضاجعة قالتْ وهي تنظر للشّابّة الّتي كانتْ تُدعى ماريا والّتي حدّثتها عن رجالٍ مجاورين يأتون من حين إلى آخر للبحيرة من حضيرة البناء للاستطلاع وبأنّها يمكن أن تمارس ما تمارسه مع الرّجال مع امرأة مثلها خصوصًا أنّها نظيفةٌ ورائحتها جميلةٌ.

وحتّى تمارس عملها الإضافيّ بأكثر حرفيّة، عرّت الشّابّة جسدها وزيّنته بحليّ من الفضّة والفيروز المُقلَّدِ فبدت مثل آلهةٍ. لمّا فرغتا من ممارسة الحبّ نظرت فريدا إلى جسد ماريا مليّا، تذكّرت البورتريه الذّاتيّ الّذي كانت شرعت فيه والّذي أطلعت ليون على تخطيط له يوم دخل ورشتها لأوّل مرّة. في النّهاية، ستستعير جسد ماريا لذلك البورتريه الذّاتي. فهو يتلاءمُ مع الجمال المتوحّش لهذه الهنديّة الشّابّة الّتي جعلتها تصل ذروةً لم تعشْها مع أيّ رجلٍ. ظلّتْ جالسةً ويداها مضمومتان بقوّةٍ إلى صدرها، قبّلتها قبلةً أخيرةً ثمّ ارتدتْ ثيابها. رفضت ماريا الأوراق النقديّة من يد فريدا.

- هذا لا يحدثُ بين النّساء، قالت.

بدأ اللّيل بالحلول عندما أطلّتْ سيارة «الفورد بريك» بمصباحيْها الأماميّيْن اللّذين أضاءا كلّ البحيرة. من النّاحية الأخرى، أطلّت قافلة من الشّاحنات تشقُّ سحابة كثيفة من الغبار.

- هؤلاء هم الرّجال. قالت ماريا بكلّ بساطة.

22

هل يمكن التّسليم بانتصارٍ مّا لناتاليا؟ إذا كانت الإجابة نعم، هل هو انتصارٌ ساحقٌ؟ الّذي يحدث دائمًا هو أنّه وفي إطار انتقام أنثويّ صِرْفٍ تحتاج المرأةُ إلى إعادة رسمِ لمنطقتها الحميمة، الأمر الّذي دفع ناتاليا إلى تنظيم حفلٍ بمناسبة تلك العودة تحت اسم «عودة زوجي العزيز»، بالرّغم من أنّهما لم يكونا متزوّجيْنِ. حفلٌ دعتْ كما يقتضي الواجبُ وكما تُحدّده بطاقة الدّعوة الكرتونيّة «السيّد والسيّدة ريفيرا».

إلى تلك السّهرة الّتي التأمتْ حوْلَ حساء لحم الضّأن المغمّس في شراب «البُولْكا» المنزليّ وسلَطَةٍ مهولةٍ تألّفَتْ من الأفوكادو رافقتْ أكواب فخاريّةً من الكونياك انتقلتْ من يدٍ إلى أخرى، وصلتْ فريدًا مسبوقةً بحفيف تنانيرها الكثيرة الملوّنة، كانت مغطّاةً بالجواهر إلى أن بدتْ مثل آلهة من حضارة الآزتك القديمة، آلهة اتّخذتْ كلّ ألوان اللّوحة العاطفيّة: الفرح، الحزن، اللّامبالاة، الغضب، عدم معرفة ما يمكن فعله أو قوله، عدم معرفة الموقف الّذي يمكن أن تتّخذه. لو احتفظت برسالة ليون الموجّهة ناتاليا لكان بإمكانها أن تلقيَ بها وسطَ الجميع، الأمر الّذي سيكون بمثابة أولى علامات زلزالٍ مدمّرٍ. إلّا أنّها فضّلت الصّمت والاكتفاء بالمراقبة على شاكلة عالم حشرات، مراقبة هذين المخلوقيْن العجيبيْنِ المهتزّين أمام عينيْها. لقد كانت عارفةً بكلّ شيءٍ، ولقد كانا غير عارفيْن بأيّ شيء.

خلال السّهرة، ذهبتْ فريدا للارتياح على أريكة واقعةٍ في مكانٍ مظلمٍ بعض الشّيء مجاور لغرفة نوم ليون وناتاليا، في ذلك المكان سمعت فاتحة خصومة

لم تكفّ عن الاحتدام. كانت ترى بين الفينة والأخرى ليون وهو ينتقل في غدوّ ورواح داخل مكتبه مردّدًا نصوصا بالفرنسيّة وأخرى بالألمانيّة. كانت بالكاد تتعرّفُ على ذلك الصّوت الغارق في إطلاق جُمَلٍ موقّعةٍ وحزينَةٍ. بدا لها صوته منكسرًا من فرط الانفعال، صوتًا مُزَعْزَعًا، صوتًا متردّدًا وأخرق في حين أنّ الصّوت الثّاني الصّادر عن ناتاليا كانَ حازمًا وقويًا، صوتًا واثقًا من أنّه على حقّ.

بعد أنْ وقع تروتسكي ضحيّةً لتأنيب الضّمير بسبب ما اقترفه في حقّ ناتاليا على إثر مغامرته مع فريدا، قرّر أنْ يهاجمها بدلًا من أن يسلّم بأخطائه، قرّر أن يصطنع بعض مشاهد الغيرة لا أكثر من ذلك ولا أقلّ. في حين أنّ المرأة كانتْ قد وهبتْ نفسها إليه جسدًا وروحًا منذ سنواتٍ كثيرةٍ، شاركته في كلّ كبيرةٍ وصغيرةٍ. ما يزالُ الرّجل العظيم يتّهمها بخيانةٍ قديمةٍ تعود إلى سنة 1918، إلى زمنٍ عمد فيه أحد الرّفاق الّذين كانوا مفتونين بها إلى مساعدتها على فهم عمل حصلتْ عليها وقتذاك في قسم للمتاحف التّابع لمفوّضيّة الشّعب للتّعليم.

- كان ذلك منذ عشرين سنة يا ليفيونوتشيك، منذ عشرين سنة! لم تكفّ ناتاليا عن القول. أنا لم أفعل شيئًا البتّة!

وكان تروتسكي في غمرة كلّ ذلك، يحاول اصطناع بعض الوقار، فيكتفي بأن يجيبَهَا:

- الماضي هو الحاضر!

كانت فريدا الّتي لا تزالُ مستترةً في الظلمة تضحك وتبكي في آن. كانت عالقة بين شعوريْنِ اثنيْنِ: الذّنب والكرامة الشّخصيّة، فتروتسكي السّياسيّ الكبير كان على مسمعٍ منها يزداد غرقًا مع كلّ كلمةٍ يقولها في خضمّ محاورةٍ لا يكفّ سوء نيّتها عن التّعرّي.

- سأفضح ألاعيبك يا أيّها الأسد الصّغير والقذر، قالت ناتاليا، إنّك تُلقي عليّ خطيئتك الّتي اقترفتها لتوّك. إنّك بصدد معاقبة نفسك بنفسك على

خيانتك الّتي تمزّق كيانك بمجرّد التّفكير فيها. لو لم تكن هذه الحكاية تدفعني إلى البكاء لانفجرتُ بالضّحك.

- إيات، هكذا كان يُسمّى ذلك الشّابّ، تابع تروتسكي قوله...

لم يسبق لفريدا أن سمعتْ ناتاليا وهي تتصدّى لتروتسكي بكلّ تلك الشّراسة. أصابتْ التّبريرات المهينة الّتي استعرضتها قلب فريدا بوصفها امرأةً. «هكذا هم الرّجالُ دائمًا»، قالت في نفسها وهي على أهبة الانطلاق من مكانها لنجدة ناتاليا الّتي وصلت إلى درجة الصّراخ عاليا:

- كفى، يا ليفيونوتشيك، كفى! إنّك تشعرني بالقرف. لم أقترف شيئًا في حقّك. لم أضاجع إيات الّذي تتحدّث عنه، أمّا أنت فضاجعت تلك العاهرة فريدا! هل تريد أن أسألك عمّ فعلته أو لم تفعله مع «كلير شيريدان» الّتي كان من المفترض أن تنجز لك منحوتةً نصفيّة في مكتبك بالكرملين سنة 1920؟

لم يردّ تروتسكي بكلمة واحدةً. كانت ميزان القوى بصدد الانعكاس في تلك الآونة.

- الماضي هو الحاضر... أهكذا قلت لي منذ قليلٍ؟

خيّم صمت طويلٌ عقب سؤال ناتاليا، صمتٌ تلقّفته فريدَا على شكل طعنةٍ من خنجرٍ: لقد كانت ناتاليا وليون بصدد جلسة تصالح- هكذا فهمت الأمر. وعلى عكس الهدوء الّذي يتخلّلُ عاصفة هوجاء، هدوء هو في الحقيقة فرصة الوحش ليلتقط أنفاسه حتّى ينفجر بأكثر حدّةٍ، فإنّ خصومتهما سرعان ما تبدّدت. تحدّث تروتسكي بعد أن عاد إلى صوته الهدوء والعمق فوصلت كلماته هذه المرّة إلى فريدا على شكل شفرات حلاقةٍ راحت تُنكّلُ بجسدها:

- ناتالوشكا، إنّنا نعيش معًا منذ خمسة وثلاثين عامًا. إنّي لا أستوعبُ كلّ ادّخرتْ لنا الطّبيعة في كلّ مرّة تحلّ بنا مصيبة. لن نتفارق إلى الأبد،

أليْس كذلك؟ إنّك شقيقة روحي، لا وجود لمن أحدّثه عن اقتراب الشّيخوخة عداك. أنت الوحيدة القادرة على فهمي.

- يا شبلي الصّغير، يا حبيبي.

- أريدكِ أن تعرفي أنّك لست رفيقتي الوحيدة فقط، لستِ سيّدة منزلي فقط، إنّما أنت زوجتي الّتي أرغبُ فيها دائمًا. لقد كتبتُ لك هذا في رسالتي الّتي قد تبدو لك فظّة نوعًا مّا. أعلم أنّنا لم نفقد الرّغبة الجنسيّة نهائيًا. وإلّا لكانت رسالتي تلك مجرّد إهانةٍ.

- عن أيّ رسالةٍ تتحدّث؟

- ألمْ تصلْك! حدّثتُك فيها عن بَضْرِكِ وعن أيري. قلت لك فيها إنّ علاقتي بفريدا قد انتهتْ إلى غير رجعةٍ...

- ليون، أرجوك! لا، لم أتلقّ رسالةً من هذا النّوع البتّة. ليس من السّهل نسيان مثل هذا الكلام!

- أمرٌ غريب. قال تروتسكي.

- لا يهمّ يا ليف دافيدوفيتش. الأمر كما قلت: نحنُ لم نفقد بعد رغبتنا الجنسيّة.

في النّاحية الأخرى، هناك فريدا التي تكاد تنفجر غيظًا. كلّ تلك المداهنة، كلّ تلك الأكاذيب تشعرها برغبةٍ في التقيّؤ. تواصلت محاورتهما، اعترف تروتسكي لناتاليا بأنّه مستعدّ لذرف دموعٍ غزيرة في سبيل أن تصدّق توبته وفي سبيل أن يتخطّيا معًا هذا المنعرج الخطير ووعدها وبأنّه سيظلّ «كلبها العجوز الوفيّ». بعد ذلك شرعا معًا في سرد حياتهما منذ انطلاقتها، أي منذ لقائهما الأوّل الّي حدث سنة 1902. تذكّرا معًا شقّة شارع لالاند ثمّ شقة شارع غاسّندي أين قبر بودلير الّذي كانا بإمكانهما تأمّله خلف سور مقبرة مونبارس، ذكّرته بالعشرين روبلا الّتي كانت تتلقّاها نهاية كلّ شهر من عائلتها، فذكّرها بدوره

بأنّه حينذاك كان مُتعاونًا بسعيه الحثيث إلى نشر مقالاته الّتي كانتْ تساعدهما على «تغطية نفقاتهما الشّهريّة». لقد أحبّ حقّا تلك الشّابّة ذات القلب الكبير، تلك الفتاة الهادئة بوجهها ذي الوجنتيْن البارزتيْن والعينيْن الميّالتيْن إلى الحزن، تلك الّتي تبنّتْ برغم أصولها الأرستقراطيّة الأفكار الثّوريّة منذ طفولتها، وهو الأمر الّذي اهتزّ ليون بلا تردّد. أمّا هيَ فقد شدّتْها حيويّته الأخّاذةُ وروحه المرحة وقدرته الحثيثة على العمل... هذا كثيرٌ لذلك بالنّسبة لفريدا، لذلك لم تجد بدّا من الوقوف ومفارقة المكان. لقد كان كلّ شيء سمعته مقرفًا ومثيرًا للاشمئزاز. كيف وقعتْ في حبّ هذا العجوز الّذي روى لها في إحدى رحلاتهما في سان ميغيل ريغلا أنّه عاش ما عاشه تولستوي في السّبعين من عمره، فبعد قضى ساعات طويلة على صهوة جواده عاد ومنه تفوح رائحةُ البوْل والرّوث والجبال، كما عاد مسكونًا برغبةٍ جارفةٍ في مضاجعة امرأته؟ ليبقَ إذن مع ثائرته الهرمة، هذا «الكلب العجوز الوفيّ» وليمتْ ممزّقًا بحنينه إلى الماضي!

مرّت السّهرة ثقيلةً إلى أن بدت لفريدا بلا نهاية. كانت لا تتذكّر كَمْ كوبًا من الكونياك تجرّعت، رغم ذلك تمكّنتْ فيما يشبه الغمام من رؤية نظرات الكره الّتي منبعثةً من عينيْ ناتاليا. أمّا تروتسكي فكان لا يجرؤ على النّظر إليها وهو ما يدلّ دون شكّ على أنّه لم يعترف لناتاليا بكلّ الحقيقة: لم تكن قطيعته مع فريدا واضحةً الوضوح الّذي تصبو إليه كلماته. أمّا دييغو فكان كعادته ثملا وضاحكا، وكان يزعق في أذن كلّ من يحدّثه قائلا «إنّه يريد أن ينكّل بكلّ امرأة يضاجعها وإنّ فريدا هي الضحيّة الأشهر لشذوذه هذا». من بين الحاضرين كان هناك من يرى في كلامه مجرّد مزحة وآخرون يبدون انزعاجًا واضحًا. في كلّ ذلك كانت فريدا تعبثُ بلآلئها في توتّرٍ، وكانت عابسةً من فرط شعورها بالخجل.

«هذه سهرةٌ مثل الخراء حقًّا» ردّدتْ في نفسها. ومثلما تعوّدت في كلّ مرّة تقع فريسةً لليأس فقد راحت تبحثُ في داخلها عن أيّ سدّ منيعٍ تلجأ إليه لتوقف صعود كلّ مياه اليأس الجارفة هذه. في إحدى زوايا الفناء، كان هناك

جون فان هايجونورت يدخّن سيجارته. لاحظتْ عديد المرّات أنّه لم يكن مُحايدًا أمام جمالها. الرّجل في ريعان الشّباب، يحبّ الرّقص، أي من أولئك الّذين تُعجب النّساء بهم، خصوصًا أنّه يشبه جون ماريه ذلك الممثّل الفرنسيّ الّذي سبق أن رأت صورةً له على غلاف مجلّة «السّيني» وكان على ذلك كلّه طليقًا مثل النّسيم منذ أن تركته زوجته وابنه وذهبا للعيش في الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

بعد دردشةٍ قصيرة، دعته للالتقاء بها مساء الغد في «التّينامبا»، البار ذي الطّراز العصريّ. راقت له الفكرة جدًّا، فأنْ يجرجر عشيقة أبيه الرّوحيّ السّابقة إلى فراشه أمرٌ في غاية الرّوعة. وافق على دعوتها مباشرةً، قابلت فريدا ذلك بأن قبّلت عنقه بكلّ رقّة.

23

استمرّت علاقتهما تلك عدّة أسابيع. لم يكن جون فان هايجونورت الّذي يقوم مقام سكرتير خاصّ ومترجم وحارس شخصيّ في الآن نفسه، يُحظى بأوقات فراغٍ كافيةٍ. لذلك كانا يلجآن في الغالب إلى مطعم «بيليغاسين» في شارع لندن أيْنَ تُخصّص لهما طاولةٌ للعشاء. لم يكن يبدو عليهما ما يمكن أنْ يوحي بأنّهما عشيقيْنِ. لكن، ينبغي القول إنّ تروتسكي الّذي لا علم له بأيّ شيء، كان يصعّب عليهما الالتقاء. فهو لم يكن يقبل مجرّد فكرة أن يقضي مساعده الشّابّ لياليه في الخارج لذلك كان يشغله بأعمال لا تنتهي، ممّا يضطرّه للبقاء في الكازا أزول. ورغم ذلك كان يجد ثغرة للإفلات، كما أسرّ لفريد بعظمة لسانه، «حتّى يريح نفسه من التّوتّر الّذي يغمر كلّ شيءٍ بما في ذلك جدران تلك الثّكنة اللّعينة».

تواصلت لقاءات العائلتيْن -تروتسكي وريفيرا- غير أنّه يمكن لأيّ ملاحظٍ نبيهٍ أن يهتدي بسهولة إلى المُشاحنات الّتي وجدتْ طريقها إليهما. ثمّة مسافةٌ واضحةٌ تفصل بين العائلتيْن. ففريدا مثلًا لم تعد ترمي بعباراتها العاطفيّة كما كانت تحبّذ دائمًا، أمّا العلاقة بين المرأتيْنِ فقد كانت مُتراوحةً بين البرود والانسياب العاطفي المفاجئ. في كلّ ذلك، كان دايغو كعادته مشغولًا بالرّكض خلف موديلاته الجديدة وإحصاء أكواب الكونياك القادر على ابتلاعها في الدّقيقة الواحدة، ممّا جعله غير آبهٍ لما يحدث. أمّا ليون، فقد كان يعيشُ تلك الوضعيّة الجديدة بألم وحرجٍ عظيميْنِ.

لا يمكن لقصّة مثل تلك القصّة الّتي عاشاها أن تنتهي بتلك الشّاكلة أو بتلك السّهولة، بمجرّد قرار اتّخذه هذا أو ذاك. لقد تركت القصّة في نفسيها

آثارًا عميقة، إلى جانب الذّكريات الّتي لا تكفّ عن العودة من حين إلى آخر، يمكن لأيّ نسمةٍ عابرةٍ أن تؤجّج النّار الّتي تعشّش في داخلهما الهشّ. كم مرّةً أوشك العاشقان على العودة لبعضهما البعض. لكن، هل يمكن الجزم بأنّ تلك العلاقة قد انتهت فعلًا؟ صحيحٌ أنّهما لم يعودا إلى ممارسة الحبّ، لكنّهما كانا يريان بعضيْهما هنا وهناك. لقد كان تكاملهما واقعًا ملموسًا وتفاهمهما الطّبيعيّ بديهيًّا. لذلك، كانت كلّ النّظرات الّتي يتبادلانها، وكلّ الحركات الّتي يقومان بها، وكلّ التّلميحات الّتي يلوّحان بها في تدخّلاتهما في هذه المحاورات أو تلك تدلّ على أنّهما ما يزالان على التّقارب نفسه.

كان ليون الوحيد الّذي قال لفريدا إنّه تذكّرها صبيحة 17 سبتمبر اليوم الّذي يقابل ذكرى تعرّضها للحادث المروّع، ورغم ذلك كانت هناك فكرةٌ لا تبارح عقله: أن تعيد إليه كلّ الرّسائل الّتي أرسلها لها. «ماذا لو عثر عليها أحد عملاء جهاز المخابرات!» هكذا كان يقول لها في كلّ مرّةٍ. تردّدت فريدا في بادئ الأمر. فأن تعيد إليه رسائله، يشبه قطيعتها للمرّة الثّانية. في النّهاية، سلّمت للأمر الواقع فأعادتْها إليه كلّها بعد أن قرأتْها عديد المرّات. من الغد، أعلن لها أنّه أحرق كلّ رسائله وذلك ما جعله يشعر بأسى كبير. قابلت فريدا ذلك بغيْضٍ كبيرٍ.

بعد أيّامٍ من ذلك، حلّ الخريف متى تعوّدت فريدا على اللّحاق بليون في الفناء الدّاخليّ للبيت الأزرق. لمست تغيّرًا مّا في ذلك المكان. بالأمس القريب، كان الفناء كثير النّبتِ ومشرقا، لطالما لعبتْ فيه وهي طفلةٌ مع أختيْها، لكنّه يبدو لها في تلك اللّحظات قاتمًا، بلا روح مثل أيّ شيء ميّتٍ، صامتًا إلى حدّ بعيدٍ إلّا في تلك اللّحظات الّتي يمرّ فيها ترامٌ من خلف السّور محدثًا صوتًا مرجرجًا أو تنطلق فيها انفجارات من محرّكات السيّارات شبيهة بطلقات متكرّرة من مدفعٍ رشّاشٍ. في تلك اللّحظات بالذّات، اعترفت لليون بأمر الرّسالة الّتي كان ينوي إرسالها لناتاليا.

- عن أيّ رسالةٍ تتحدّثين؟ سأل.
- تلك الّتي تتحدّث فيها عن أيْرِك يا صاحب العثنون، أجابت فريدا وهي راضية ومتفاجئة في آنٍ من ردّ فعل ليون البارد، كأنّه لم يعد يأبه بكلّ ذلك. لقد تلقّى الاعتراف ضاحكًا تقريبًا.
- هل مزّقتِهَا؟
- وضعتُ داخلها حجرًا ثمّ أليقتُ بها في إحدى البحيْرات!

وكيْ يقدّرا درجة البُرود الّتي حلّت بينهما، اتّفقا على أنْ يُطلع كلّ واحد منهما الآخر في حال خوْض مغامرةٍ عاطفيّةٍ جديدةٍ. بعد أن أنهت فريدا علاقتها بجون بالسّرعة نفسها الّتي اتصفتْ بها البداية، افتتنت بشابّة إيرلنديّة، كانت تاجرة لوحاتٍ فنيّةٍ تملك أردافًا حاملةً لبعض النّمش، سعتْ فريدا إلى أن يضبطهما ليون ذات يومٍ بينما هما تتبادلان القُبل خلف آنية كبيرة من الزّهور الحمراء والبيضاء داخل الفناء. أمّا من ناحية ليون فقد وضع خطّة شيطانيّة شارفت على أن تتحوّل إلى فضيحةٍ. فما إن انتهت علاقته بفريدا ليتصالح مع ناتاليا شرع في السّعي إلى التّقرّب من شابّة مكسيكيّة تعيش في المنطقة نفسها. وكي يلتقيها، كان يحتاج أعذارًا بعيدة عن كلّ الشّبهات. وبما أنّه كانَ يملك كلّ الأسباب المقنعة بأنّ مجموعةً من القتلة المبعوثين من ستالين الّذين اختاروا الإقامة في منزلٍ قريبٍ من الكازا أزول، فقد وضع خطّة للفرار من مهاجميه: سيستخدم السلّم الخلفيّ السرّيّ كيْ يذهب للاختباء في منزل الشّابّة المكسيكيّة. ولتنفيذ ذلك، كان من الطّبيعيّ أن يجريَ بعض التّدريبات حتّى يتأكّد من صلاحيّة تلك الاستراتيجية، تدريباتٌ ستتمّ في كنف السريّة التّامّة. أبدت الشّابّة المكسيكيّة تحفّظًا كبيرًا وأخبرت تروتسكي أنّها لا تأبه لما يكنّه لها ولا تريد أن تراهُ يتسلّق سور منزلها ليلًا. صحيح أنّ تروتسكي كان مُحنّكًا سياسيًا لكنه في شؤون الحبّ لم يكن كذلك، لذلك فقد اكتفى بأن تظاهر بعدم فهم كلام الشّابّة. احتاج الأمر إلى تدخّل عنيف من جون فان هايجونورت كيْ يقنعه بضرورة ترك الفتاة في

سلام. كانت النّسخة الّتي رواها لفريدا مختلفةً تمامًا: كيْ لا يُعرّض للخطر مصير الأمميّة الرّابعة برمّتها وكيْ يتجنّب فضيحةً يمكن أن تنتشر في العالم كلّه، كان مضطرّا لرفض سعي الشّابّة للتقرّب منه...

السّابع من نوفمبر، عيد ميلاد تروتسكي الثّامن والخمسين الّذي يتزامن مع الذّكرى العشرين لثورة أكتوبر، في تلك المناسبة أهدتْ فريدا لليون البورتريه الذّاتي الّذي كانت شرعتْ في إنجازه في بداية علاقتهما، وهي لوحة صغيرة بعداها 60/ 76. وبدلًا من ترسم نفسها في هيئة فلاحة في زيّ مكسيكيّ تقليديّ أو مناضلة سياسيّة ترفع قبضتها عاليًا، اختارتْ تقديم نفسها في رسمة لامرأة برجوازيّة كبيرة، تظهر على ملامحها بعضُ القساوة على شاكلة الصّور الفوتوغرافيّة الّتي كان يلتقطها أبوها في ورشته. كانت في اللّوحة معتدلةً وساكنةً ومقيمةً بين جزئي ستارة بيضاء ثقيلة. كان على صدرها وأذنيْها مجوهراتٌ تعود إلى الحقبة الاستعماريّة. بينما كان شعرها مرفوعًا إلى أعلى وضفائرها مزيّنة بورود قرنفل ورديّة ويشدّها شريط أحمر. وكانت ترتدي تنّورةً ذات لونٍ برتقاليّ شاحبٍ، للتنّورة جانبان أبيضان، وصدريّةً أرجوانيّةً من تحت شالٍ أصفر يميلُ إلى اللّون البرتقاليّ. وعلى ذلك كلّه كانت أظافرها مطليّةً وكان على شفتيْها أحمر خفيفٌ وعلى وجنتيْهَا بقعتان ورديّتان. كانت تمسك بيد باقةً من الزّهور البريّة وبالأخرى رسالة أين يمكن قراءة السّطور التّالية: «إلى ليون تروتسكي، وبكلّ اللّطف الّذي أملك، أهدي هذه اللّوحة يوم 7 نوفمبر سنة 1937. فريدا كاهلو، سان أنخيل، مكسيكو».

في اللّحظة الّتي كانت فريدا تُقدّم فيها اللّوحة، تفحّصتْ ليون بانتباهٍ. كان متأثّرًا حقّا. شكرها ثمّ قبّلها بحرارةٍ. بدا لفريدا أنّ عينيْهِ ركّزتا مُطوّلًا على صدرها المرسوم بدقّةٍ من تحت الصّدريّة الحمراء وطيّات الشّال الميّال إلى الأصفر، شعرتْ بنشوة بمجرّد أن فكّرت أنّ ذينك النّهديْنِ لم يكونا نهديْها وإنّما

هما للشّابّة الهنديّة الّتي ضاجعتها في كابينة على ضفاف البحيرة. تأمّلتْ فريدا ناتاليا أيضًا. أكّدت على إعجابها باللّوحة الّتي كانت فيها «تبدو ساحرةً، وفي تمام حيويّتها وشبابها». في الحقيقة، كانت تدرك أنّ ناتاليا فهمت بدقّة محتوى تلك اللّوحة وذلك ما سيتسبّب لها في بعض الألم: فهذه الشّابّة الجذّابة والمسالمة في مظهرها هي في الواقع سامّةٌ، فها هي تعرض نفسها مرّة أخرى بكلّ وقاحة على «زوجها».

انتهى الاحتفال، عادت فريدا إلى منزلها. بعد أن أقنعت نفسها بأنّها لم تعد تحتمل السّهر، وبأنّ الوقت تأخّر وبأنّها تشعر بالتّعب. شربت ثلاث جرعات من منوّم «الفانودورم»، حاولت النّوم دون جدوى.

24

كانت ناتاليا في قمّة ابتهاجها. لم يرها أحدٌ في تلك الحال من النّشوة منذ أشهرٍ.

- أرسلتْ لجنةُ الدّفاع تلغرافًا من نيويورك. لقد نطقوا بالحُكْمِ علنًا على إثر اجتماعٍ حاشدٍ! ليفيونوتشيك بريء، نعم، إنّه بريء!

كان الصّمتُ الّذي تلقّى به تروتسكي الخبر مُتناقضًا تمامًا مع الضّجّة الّتي هزّتْ كامل أرجاء المنزل.

- «وهكذا نتأكّد من مخادعة محاكمات موسكو»، هذا ما كتبوا يا ليفيونوتشيك، «مُجرّد تلفيق»، «تلفيق»، «مخادعة» محاكمات موسكو.

رفع تروتسكي رأسه في هدوءٍ، وضعَ القلم على المكتب، القلم الّذي أهدتْهُ له فريدا:

- هذا جيّد. هذا جيّد جدّا. اكتفي بالقول.

تابعت ناتاليا قولها:

- «وهكذا تثبتُ البراءة»، هل تسمع يا ليفيونوتشيك، «براءة تروتسكي وليون سيدوف!»

شيئًا فشيئا، عجّ المكتبُ بالنّاس، سكرتيراتٌ وفي أيديهنّ دفاتر ملاحظاتٍ، الطبّاخة وهي تمسح يديها في مئزرها، الحرّاس الشّخصيّون وفي قبضاتهم مسدساتهم، رفاق النّضال الّذين غزوا الفناء بمدافع رشّاشةٍ تتدلّى من أكتافهم.

- ليعد كلّ واحد منكم إلى موقعه أرجوكم، قال تروتسكي. بالخصوصِ أنت يا جون، أنت أكثر من يتقنُ القنص.

ناولت ناتاليا الهاتف لليون. إنّه روث أجيلوف أكثرُ من دعّمه في كلّ جلسات لجنة «ديوي»، مترجمًا تارةً، ناقرًا على الآلة الكاتبة تارةً أخرى وباحثًا عن المستندات المطلوبة طورًا. في غمرة الفرح نفسه حوّلت إليه مكالمةً ثانيةً. هي مكالمةٌ من أختها الصّغرى سيليفيا، مناضلةٌ تروتسكيّةٌ أمريكيّةٌ مثلها والّتي تُريد أن تهنّئ البطلَ شخصيًّا.

بعد ذلك، شغّلوا جهاز الرّاديو. أعلنت لجنة التّحقيق أنّ المرافعات الّتي يبلغ عددها مائتيْنِ وسبع وأربعين ستنشر في مجلّدٍ من أربعمائة صفحة من قبل دار هاربر وإخوانه للنّشر في نيويورك تحت عنوان «البريء!»

قدم دييغو وصافح ليون بحرارةٍ ثمّ احتضن ناتاليا قائلًا:

- لقد نكحناهم، أولئك السّتالينيين!

كان الموقّعون على الوثيقة محامين وكتّابًا وناشرين وصحفيّين، حتّى أنّ من بينهم عضو سابق في اللّجنة الوطنيّة للكونفدراليّة العمّاليّة المكسيكيّة ونوّاب سابقون في برلمان «الرّايخستاغ» إلى جانب عديد الأساتذة والأطبّاء والباحثين.

- يا لهذا الانتصار السّاحق يا ليون! كرّر دييغو قوله. هذا من شأنه أن يقلب كلّ الموازين. ما حدث اليوم مهمٌّ، مهمّ جدًّا.

- سنرى يا أصدقائي. لنحافظ على هدوئنا. لقد تخطّينا المرحلة الأولى لا غير، الطّريق ما تزال أمامنا طويلةً...

في ذلك المساء نفسِهِ، نظّمتْ «عائلة ريفيرا» -كما تُخيّر ناتاليا أن تسمّيَهَا لأنّها تَعْلم أنّها تسميةٌ تُغيض فريدا- حفلةً في منزل سان أنخيل. دُعِيَ إلى الحفل عددٌ كبيرٌ من التّروتسكيّين المكسيكيّين وحتّى الأجانب المُتواجدين في البلد على وجه الصّدفة. هذا الانتصار انتصارهم وانتصار الجميع لذلك لا ينبغي عليهم تفويت الحفل. مرّةً أخرى، شرب الجميع وغنّوا. ومرّةً أخرى، أطلق دييغو طلقةً من مسدّسه بينما كان واقفًا في الشّرفة صَوْبَ نجوم افتراضيّة كانت حينذاك

تتلألأ في سماء المكسيك. ومرّةً أخرى، كان دييغو جائعًا بشدّةٍ ومزاجيًّا مثل كلبٍ، لذلك ألقى عرض الحائط بكلّ وصايا الأطبّاء المُتعلّقة بالحميّة الغذائيّة والأدوية، وانطلق في التهام كلّ ما اعترضه من نساء وطعامٍ صابًّا جام غضبه لسبب لا يعلمه أحد على الدّيانة الكاثوليكيّة وعبيد الرّبّ الّذين وصفهم بأبشع النّعوت. بلغ شتمه للإيمان خلال تلك الأمسية مدًى لم يبلغه من قبل. حدثتْ رجّةٌ بعد ذلك خيّمتْ على السّهرة حتّى نهايتها. فقد قرّرتْ فريدا دون أنْ يضطرّها أحدٌ إلى ذلك، أنْ تقوم بشقلبة أمام الجميع. من الطّبيعيّ أنّها أعجز من أن تنجح في ذلك، لكنّها ولمّا تدحرجتْ تنوّرتها على مدى ساقيها لتغطّي وجهها، اكتشف الجميع مذهولين أنّها لا تضع كيلوتًا، كان الحدثَ الّذي نحا بأمسية الالتزام السيّاسيّ منحى جنونيًا لم يكن ينقصها. بعدها، طلب دييغو من الجميع أن يقبّلوا بعضهم البعض، رجالا ونساءً، نساءً فيما بينهنّ، رجالًا فيما بينهم، لا فرْق. ولتدفّق الكحول مثل السّيول الجارفة! نجح جون فان هايجونورت في عدم شرب قطرة واحدةٍ من الكحول إلى حدود تلك السّاعة، ظلّ ساهمًا يفكّر ويدعو في سرّه ألّا يقع شيء يعكّر السّهرة. كأنْ يستهدفهم رماةٌ متمركزون هنا وهناك أو أن يكون أحد الحاضرين حاملًا لسلاح أبيض أو حتّى قنبلة يدويّة، كلّ شيء ممكن كيْ تحصل مذبحةٌ أو كيْ يُغتال تروتسكي دون معرفة مصدر الضّربة خصوصًا وأنّ فوضى هذه السّهرة عارمةٌ.

قبل أن يبدأ الضّيوف بمغادرة منزل سان أنخيل، وفي غمرة الظّلمة الّتي كانت تُخيّم على الشّرفة، وضعتْ فريدا يدًا بين فخذيْ ليون لتهمس في أذنه:

- قلّ لي يا صاحب العثنون، ألمْ يملّ سلطعونك النّاسك من قوقعتي؟

لم يُجب ليون. وفريدا لم تتمكّن البتّة من معرفة إنْ كان لم يسمعها أو إن كان امتنع عن الإجابة.

إذا كان يوم 12 ديسمبر يمثّل للتّروتسكيّين التّاريخ الّذي فيه برّأتهم لجنة «ديوي» من كلّ الجرائم المنسوبة إليهم، فإنّه يمثّل لدى جموع المكسيكيّين اليومَ

المُخصّصَ لميلاد الطّفل يسوع ولتقديس مريم العذراء أو السيّدة غوادالوبّي، راعيتهم. فانطلاقًا من ذلك اليوم وصولًا إلى ليلة الميلاد، يجري احتفال كلّ مساء في كلّ أحياء كويواكان، احتفالٌ يطلقون عليه اسم «البُوسادا». فيه تقوم مجموعة من الأطفال بزيارة أطفالٍ آخرين في شارع مجاورٍ، يقوم هؤلاء أيضًا بزيارة أطفال آخرين من شارع آخر وهكذا دواليْكَ إلى أن يحلّ يوم عيد الميلاد، متى يطرق أولئك الأطفال على كلّ بابٍ أيْنَ يتسوّلون المأوى. يجري الحوار كما التّالي: «باسم السّماء، أسألكم المأوى، لأنّ زوجتي العزيزة صارت عاجزة عن السّفر». فتأتي الإجابة مُباشرة كما التّالي: «هذا ليس نُزُلًا، امض في حال سبيلك». وتستمرّ المحاورة: «لا تكونوا بهذه القساوة، كونوا كرماء معنا». «اذهبوا من هنا، دون إلحاح، لا تجعلوني أغضبُ». «نحن قادمان من النّاصرة، اسمي جوزيف وأنا نجّار...» «لا يهمّنا اسمك ولا أصلك، دعنا ننام، إلخ». بعد ذلك، تُفتَحُ الأبواب. يُسمح للحجيج بالدّخول. يركض الأطفال قاصدين الفناء بأعينٍ معصوبةٍ وبأيادٍ مسلّحةٍ بهراواتٍ يضربون بها الحاوية المُسمّاة بـ«البنياتا» الّتي سُرعان ما تتحوّل إلى قطعٍ متناثرةٍ ومنها تتساقطُ محتوياتُهَا. في المساء، يصلُ الكبارُ فيوزّعون الحلوى والألعاب على الأطفال. بهذه المناسبة، تُقدّم وجباتٌ كثيرةٌ متركّبةٌ أساسًا من كعكٍ محشوٍّ باللّحم المُقدّد، وحشوّاتٌ أخرى بلحم الدّجاج والفاصوليا الحمراء، وخبز «التّرتيّة» المليء بأزهار القرع والجبن والبطاطس.

كان تروتسكي يعيشُ تلك الأيّام ذات الخصوصيّة المكسيكيّة الصّرفة بطريقةٍ غريبةٍ. لطالما أزعجتْهُ تلك الغوغاء وحرمته من الرّاحة. هكذا دون أن يعرف السّبب. قبل أيّامٍ من انتهاء سنة 1937، شاهد في نومه حُلمًا عجيبًا رغبَ بشدّة في أن يرويَهُ لفريدا. كلّ ما في ذلك الحلم كان عبثيًا وقاسيًا. انطلق حلمه من المطبخ، المطبخ الأزرق والأصفر الكبير التّابع للكازا أزول الّذي امتلأ فجأة بالنّمل والصّراصير وبحشراتٍ أخرى لم يتمكّن من التخلّص منها،

زحفت على المطبخ على شاكلة فيالق. ثمّ تواصل الحلم وتسرّبتْ إليه مكوّناتٌ من احتفالات عذراء غوادالوبّي الجارية. في تلك الأثناء كان الرّاديو يُعلن بيانًا صادرًا من موسكو يعلن عن إعدام ثمانية أشخاصٍ بلا محاكمة، هبّ كلّ مساعدي تروتسكي القدامى وزحفوا إلى باب الكازا أزول يطرقونه بشدّةٍ. لم يكونوا أطفال الاحتفالات مع أنّهم كرّروا الأسئلة التّقليديّة نفسها: «باسم السّماء جئنا نسألكم المأوى إلخ». سادت أجواء من الخوف لتحلّ محل الأفراح. هبّتْ رياح جليديّة وانتشرت الظّلمةُ في كلّ مكانٍ. تحوّل أولئك الأطفال الّذين جاؤوا لتسوّل المأوى إلى موكب طويلٍ متكوّنٍ من ضحايا الهجمة الستالينيّة وإسبانيّين من الخارجين عن القانون الّذين تمّ إعدامهم في شوارع مدريد. من بينهم، مَنْ كانتْ وجوههم نازفةً بالدّماء وكان تروتسكي خلال ذلك الحلم قادرًا على تسميتهم جميعًا: مارك راين الّذي اختطفوه من أروقة إحدى النّزل، كاميلو بيرنيري الّذين تركوه مرميًّا في إحدى الأزقّة بجسدٍ خرّبته الخراطيشُ، أندرو نين الّذي اختفى في كاتالونيا في ظروفٍ غامضةٍ، غامرنيك الّذي وجدوه منتحرًا، بودو ومديفاني وأكوجافا وإليافا وكلّ الرّفاق القدامى الّذين قُتلوا جميعًا رميا بالرّصاص، كافترادزي الّذي قُتل في قبوٍ، الأخوان ناستور وميخائيل لاكوبا اللّذان أعدما على إحدى الطّرق التّرابيّة، إروين وولف صديقه المقرّب الّذي تعفّنَ حيًّا في سجنه، إيغناس رايس الّذي عُثر على جثمانه في إحدى الخنادق الواقعة في تخوم لوزان، كورتْ لاندو الّذي قُتل في الشّارع في وضح النّهار، كانوا إمّا رجالا بلا وجوه أو وجوها بلا أجسامٍ، انتهوْا بأن ابتلعهم المحيطُ.

- هذا حلمي الّذي لم يتوقف عند ذلك الحدّ بل تواصلت أحداثه في الفناء، أين كان عليّ أن أنتظرهم أو أنْ أضطرّ إلى تهشيم رؤوسهم بهراوة كما يحدث مع ألعابكم «البنياتا». في تلك الأثناء تناهت إلى مسامعي أصواتٌ عالية آتية من الشّوارع مطالبة بطردي من المكسيك... أحيانا أشعر يا فريدا وأنا هنا في حديقة كويواكان الاستوائيّة الصّغيرة هذه أنّي

أعيشُ محاطًا بأشباح لهم ثقوبٌ في جباههم.

لم يسبق لفريدا أن رأت ليون بكلّ ذلك التّعب والإحباط. لأوّل مرّة، بدا لها أنّه شاخ فجأة وخارتْ قواه. قال لها إنّه نال ما يكفيه وإنّه قضى حياته مستظهرًا بأوراقه الرّسميّة لمسؤولين عابسين، لقد عاش بين تبرير نفسه أو الاختباء أو الفرار. في صبيحة ذلك الحلم الرّهيب، زاره صحفيّ من صحيفة «بَالْتِيمُورْ صَنْ» بهدف محاورته. طال ليون بمبلغٍ كبير، ألف دولار، تمّ رفضه بطبيعة الحال. فإدارة الصحيفة حازمةٌ في مثل هذه الأمور وهي غير مستعدّة لدفع أكثر من مائتيْ دولارًا. بالغضب نفسه روى ليون هذه الّتي يعتبرها مسخرة على فريدا الّتي كانت محرجةً لا تجد الّذي تقوله كيْ تجعله يفهم أن لم يعد الرّجل المؤثّر كما كان من قبل وأنّه لا يعدو أن يكون في العموم سوى مفوّض سابق للرّوسيّين يعيش تحت المراقبة المشدّدة في منفاه المكسيكيّ...

لا شيء من شأنه أن يغيّر مزاج هذا الشّيخ. كانت فريدا طوال أيّام عيد الميلاد تقضي أيّامها في المحلّات باحثة عن هدايا لأصدقائها. عرضتْ على ليون دُمًى كرتونيّةً في لباس بهلواناتٍ وأخرى في أقمشةٍ ذات لونٍ فضيّةٍ وهي المفضّلة لديْها. عرضتْ عليه أيضًا زلاجاتٍ متعدّدة الألوان وصفّارات متعدّدة الأشكال وهي من الأشياء الّتي تحبّ جمعها لتستخدمها أحيانًا بهدفٍ -كما قالت- «إدهاش البرجوازيّ» وهو غارق في نقاش جادّ أو وهو يشاهد مسرحيّة، تلك الطّريقة الّتي تتّخذها كيْ تعبّر عن الاحتجاج. لكنّ ليون ظلّ جامدا وعالقا في حلمه الرّهيب وفي خيبته.

بعد صمتٍ مطوّلٍ، أمسك يدها وقال في هدوءٍ بالغ:

- تذكّر الماضي أمرٌ مخيف، أليْسَ كذلك؟... لكنّ تذكّره من أجل ابتلاع الحاضر... أمرٌ كأنّه الجحيم نفسه.

لم تجد فريدا بما تُجيب. فهذه الفكرةُ لا تملك أيّ إجابة صالحةٍ ربّما. كان

المساءُ قد خيّم منذ بعض الوقت على الفناء. وكانت فريدا وليون يتحادثان في شبه ظلمةٍ. ثمّة ليلٌ حالك في انتظارهما. ليل المكسيك أكثر سوادًا من أيّ مكانٍ آخر، يحلّ دائمًا حاملًا لما يُشبه التّهديد المعلّق، لشيء ما عدائيّ.

- إنّه ليلٌ مرعبٌ حقًا قالت فريدا، ثمّ أضافت بعد صمتٍ: فيمَ تُفكّر يا حبيبي؟

لم تبد على ليون أيّ دهشة. يعرف كلاهما أنّهما ما يزالان متحابّين، قد يكون حبًا مختلفًا لكنّه حبّ يصعبُ رسم حدود له.

- أفكّر في جوادٍ روانٍ مُرقّط بالأبيض يركضُ بي ويقفز. يصهل ثمّ يكرّ ويفرّ، بِعُرْفٍ منطلق في الرّيح ومنخريْنِ واسعيْنِ. يجرف في ركضه الحصى بحوافره. يركض على مدى ضفّة النّهر. وأتساءلُ حينذاك عمّا يمكن أن يبحث عنه.

ابتسمت فريدا.

- هل يبدو حديثي سخيفًا. سأل ليون.

- لا، على العكس تماما. أصغ إليّ... عندما كنت تشاهد ذلك الحلم، كنت أنا في مرسمي. كنت قد فشلتُ في النّوم وهذا ما أصبح يحدث لي باستمرار... رسمت بالأكواريل مشهدًا طبيعيّا. في الوسط تمامًا، رسمتُ بنايةً كبيرة وأمامها: حصانٌ راكضٌ! السّماء شديدة الزّرقة. لا غير ظلّ الحصان ما يعطي للمشهد عمقا ما. لقد حدث أمرٌ عجيبٌ حينذاك، سمعتُ صوت حوافر. مجملُ الصّورة قد يخلّف فيك شعورًا بالثّقل والوحدة.

- لقد رسمتِ حلمي!

- لا أعرف. لطالما اعتقدت أنّي لا أرسم أحلامي بل واقعي الخاصّ.

- نعم، لكنّ ذلك كان حلمي لا حلمك...

25

انطلقت سنة 1938 بحادثةٍ غريبةٍ. في غياب تروتسكي عن الكازا أزول طرق الباب رجلٌ غريبٌ يحمل أكياسًا كبيرةً مدّعيًا أنّها أكياسٌ من الأسمدة أُرسلتْ من أجل حديقة دييغو ريفيرا. أكّد عامل التّوصيل على أنّها مُرسلةٌ من قِبَلِ الجنرال موغيكا وزير الاتّصالات. رفض حرّاس المنزل الأكياسَ المريبة وطلبوا منه العودة في الغد. الأمر الّذي لم يحدث بطبيعة الحال، وعندما جرت تحرّياتٌ لمعرفة إن كان الجنرال قد أوصى بشيء من أجل الكازا أزول تبيّن أنّه لم يعط أيّ تعليماتٍ من هذا النّوع.

اقترن هذا الحدث في ذهن تروتسكي بحدث آخر. منذ عام 1933، كان يتذكّر كلّ يوم 5 يناير ابنته زينة الّتي انتحرت بفتح الغاز في شقّتها ببرلين. كانت هي الأخرى مُطاردةً من قبل عملاء خاصّين من الكرملين. وكانت هي الأخرى مذعورةً من أن تجد نفسها مضطرّة للعودة إلى روسيا في إحدى الأيّام. فمنذ موت أب طفلها بلاتون فولكوف على إثر تهجيره إلى سيبيريا، عاشتْ عدّة نوبات هذيانٍ انتهت بها مرّات عديدة في مصحّة للتّداوي. لكنّها لم ترَ في وحدتها في برلين ويأسها بالإضافة إلى حملها حلّا آخر سوى وضع حدّ لحياتها. تركتْ فوق منضدتها رسالةً موجّهة لصديقتها جان مارتن دس باليرس فيها طلبت منها الاعتناء بسييفا، ابنها ذي السّت سنوات «ذلك الطّفل الّذي كان غاية في اللّطافة»...

من بين أطفال تروتسكي الأربعة، كانت زينة أكثرهم قربًا إليه، لأنّها كانت تُشبهه شكليّا ومعنويّا وحتّى في بعض السّلوك. لذلك ومنذ 5 يناير 1933 كان

كلّما عاش لحظاتٍ صعبة يتذكّر تلك الميتةَ ويقول في نفسه إنّه قد يختار ذات يومٍ هذه الطّريقة نفسها لإنهاء حياته. حيّرته قصّة الأكياس بشدّة. في بادئ الأمر، سارع إلى اتّخاذ إجراءات حماية أكثر صرامة: أمر المجموعة الصغيرة الّتي تبقّتْ على ذمّته بالحراسة المشدّدة على مدى الأربع وعشرين ساعة ثمّ قام بتوصيل جهاز إنذار في منزل كويواكان.

عندما لاحظ دييغو حركة مضطربة في منزل مجاورٍ لإقامة تروتسكي قرّر تولّي الأمور بنفسه. فبعد أن تثبّت من هويّة الجيران، بدأ أشغالا في الكازا أزول. فتح بابًا بين غرفتيْنِ وذلك من شأنه أن يجنّب متساكني البيت من أن القيام بدورة كاملةٍ في حال اضطرارهم إلى الفرار، سدّ بعض النّوافذ بالطّوب الأحمر وخطّط لإحداث فتحةٍ كبيرةٍ في السّور الّذي يفصل بين الكازا أزول والمنزل المجاور الّذي قرّر شراءه. وضع أكياسًا رمليّة كبيرة في مدخل شارع لندن ممّا سيمنع دخول السيّارات بكلّ أنواعها. كان ليون كلّما تلقّى زيارةً يلجأ إلى إحدى لغرف الدّاخليّة الّتي كانت أبوابها مفتوحةً على الفناء. لم يكتفِ السّتاليّون المكسيكيّون بالهلع الّذي أثاروه بإرسالهم أكياس الأسمدة المُزيّفة بل تجاوزوا ذلك إلى قيادة حملات تهديد شعواء. فَهُم هذه المرّة يتّهمون تروتسكي بلعب الدّور الرّئيس في إخماد ثورة كرونتشاد سنة 1921، وقد نشروا إشاعةً مفادها أنّهم وعملًا بمقولة الغاية تبرّر الوسيلة فإنّهم لا يتوانوا عن تحقيق هدفهم حتّى إن كلّفهم ذلك قتل بعض الأبرياء. في الحقيقة، لم يكن أكثر ما يخشاه تروتسكي وأتباعه الهجمات الصّحفيّة الّتي انتهوا بأنْ تعوّدوا عليها بل دعوات الجماهير للنّزول من أجل التّظاهر تحت نوافذهم. يكفي أنْ يقودوا مظاهرة سياسيّة كاذبة ليصلوا بها إلى حيثُ يتقاطع شارع لندن بشارع اللندي حتّى يتمكّنوا من السّيطرة على كلّ شيء وتنفيذ هدفهم المنشود.

في النّهاية، رأى دييغو ريفيرا أنّه من الأفضل لصيفه أن يختفيَ لبعض الوقت لذلك اقترح عليه الذّهاب للإقامة لدى أحد الأصدقاء المكسيكيّين،

وهو أنطونيو هيدالغو الّذي يمتلك منزلًا في لوماس دي شابولتبيك غربيّ مكسيكو. ستبقى ناتاليا في المنزل من أجل تمويه غياب تروتسكي وستعمل على جعل الآخرين يعتقدون أنّ تروتسكي متواجد في المنزل: لن تسمح لأحد بالدّخول إلى غرفته بحجة مرضٍ ألزمه الفراش، ستدخل إليها وحدها من حين إلى آخر حاملةً الشّاي وبعض الكتب والجرائد اليوميّة دون أن تنسى تشغيل الرّاديو في السّاعات الّتي اعتاد فيها فعل ذلك...

يوم 13 فبراير تسلّل ليفيونوتشيك إلى داخل سيارة مركونة في الفناء، تمدّد على الأرضيّة ووضع على جسمه غطاءً بينما جلس جون فان هايجونورت إلى المقود وأنزل بلّور النّافذة الأماميّة تجاوز باب الخروج ثمّ عبر من أمام مأوى الشّرطة أين قام ببعض الإشارات الّتي تعني: أنا وحدي وذاهبٌ لقضاء أمرٍ مُستعجلٍ.

كان منزل عائلة هيدالغو تُحفةً هادئةً وسكّانُها متميّزين بالسّخاء والرّفعة. لم يكن مُتاحًا لتروتسكي الخروج للتنزّه في الحديقة القريبة أين يمكنه استنشاق رائحة الأعشاب والأشجار ولا الذّهاب إلى المحلّات الكثيرة النّشيطة ليلًا نهارًا في كلّ شوارع ذلك الحيّ الرّاقي لذلك كان يقضي أيّامه في القراءة والكتابة من ذلك مقالته «أخلاقهم وأخلاقنا» الّتي كان لا يمرّ يومٌ دون أن يُضيفَ إليها فقراتٍ جديدةً. تكفّل هيدالغو وجون فان هايجونورت بضمان الاتّصال الدّائم بالكازا أزول. لم تبتعدْ ناتاليا عن تروتسكي منذ منفاهما التّركيّ في فبراير 1929 إلّا لفتراتٍ قصيرةٍ. كانت ذلك ابتعادهم الرّابع وكما فعلا في السّابق فقد لجآ إلى تبادل رسائل حمّلاها كلّ تفاصيلهما اليوميّة.

مفكّرًا فيما يُسمّيه «المستقبل البعيد» اعترف لها بأنّه يعتزم تغيير بدلاته البيضاء بسترات جلديّة وأحذيته الفاتحة بأخرى غامقة وقبّعته القشّية بأخرى قماشيّة. طلب منها أن ترسل إليه معطفه ولثامه وحزامه الطبيّ لأنه يشعر بألم في الكليتيْنِ. كما ترجّاها أن تُرسل إليه بمرهم الشّعر الّذي نسيه في كويواكان

ومشطًا صلبًا للإبقاء على شعره مرتّبًا. في الواقع وبالرّغم توبته المتكرّرة وبكائه عند قدمي ناتاليا وهو يؤكّد لها حبّه الثّابت وحاجته الماسّة إليها فإنّه لم يستطع منع نفسه من التّفكير في فريدا، في كلّ ما عاشه معها، في كلّ الّذي ما منحته إيّاه. كان حنينه لذلك الماضي القريب حنينًا مشوبًا بالسّعادة.

كان في صبيحة السّادس عشرة من فبراير على وشك أن يكتب إليها رسالةً يعبّر فيها عن رغبته في لقائها إلّا أنّ ضجّةً نشبت فجأةً في مدخل المنزل. إنّه دييغو ريفيرا العملاق ذو الملامح الجديّة الّتي تجعله أحيانًا شبيهًا بأحد الأرباب الإغريقيّين، اقتحم عليه الغرفة رفقة جون فان هايجونورت وكان العرق يتصبّب من جبينه:

- مات ليون سيدوف! قال دييغو.

- ماذا قلت؟ زعق تروتسكي.

كرّر دييغو الخبر «مات ليون سيدوف» ملوّحًا بالصّحيفة المسائيّة الّتي أعادت نشر الخبر من باريس.

- ليوفا، يا صغيري ليوفا... اخرجوا من هنا! غادرا الغرفة حالًا! غادرا! صرخ في وجه الزّائريْن قبل أن يضيف مستدركًا: انتظرا، هل علمت ناتاليا بالخبر؟

- لا.

- إذن، سيكون عليّ أن أخبرها بنفسي. لنعد إلى كويواكان.

كانت رحلة العودة إلى مكسيكو عسيرةً للمسافرين الثلاث. كان جون فان هايجونورت على مقود السيّارة وبجانبه يجلس دييغو. بينما كان تروتسكي وحيدًا في الخلف وفي رأسه تدور الفكرة الوحيدة التّالية: بينما كان هو غارقًا في كتابة مقالته كان ابنه يصارع الموت هناك ودون أن يعلم شيئًا! وقبل أن تنتهي الرّحلة انضافت فكرةٌ ثانية للأولى. إنّها المرّة الثالثة الّتي يبكي فيها موت

أحد أطفاله. فبعد أن بكى رحيل نينا سنة 1928، بكى موت زينة بعد خمس سنواتٍ ثمّ ها هو دور ليون سيدوف الّذي يُناديه هو وناتاليا «ليوفا» وها قد مات...

بوصوله إلى كويواكان، أمسك ناتاليا من كتفيْها ومضى يردّد «ليوفا صغيرنا المسكين مريض يا ناتالوشكا، ليوفا ابننا الحبيب مريض»، ثمّ انزويا داخل حجرتهما ولم يخرجا منها إلى بحلول مساء الغد.

كانت فريدا هنا، راحت تُقبّل ناتاليا عميقا وهي تمسك بكلتا يديها.

- سيخبرك ليون بكلّ شيء، لا أستطيع قول شيء، قالت وهي تختفي داخل المطبخ بظهر تقوّس فجأة. لكأنّ المرأة تحوّلت إلى عجوز في ليلةٍ واحدةٍ.

أمسكت فريدا بيديْ ليون الّذي سحبها إلى مكتبها بعد أن أمر بإعداد الشّاي.

- قبل اثنيْن وثلاثين عامًا بالتّمام والكمال، زفّت ناتاليا إليّ خبرَ وضعها ليوفا بينما كنت في السّجن... لقد كان ذلك قاسيًا جدّا...

كان ليون وفريدا جالسيْنِ على الأريكة نفسها بأيدٍ متشابكةٍ مثل صديقيْنِ حميميْن اجتمعا حوْلَ الوجع نفسه.

- كيف حدث ذلك؟

- بدأ الأمر بأنْ شعر ليوفا بأوجاع في بطنه. نقلوه على وجه السّرعة إلى مصحّة صغيرة في أُوتُويْل وهي مصحة يشرف عليها أحد الرّوس المهاجرين. لتمويه قتلة ستالين، سُجّل ليوفا باسم م. مارتن، مهندس فرنسي. أجريت له عمليّة جراحيّة تكلّلتْ بالنّجاح. بعد يومين، وقف على رجليْه... وفي اليوم الثّالث مات فجأةً...

- كيف؟ لماذا؟

- قبل وفاته بقليل، وجدته الممرّضة بصدد التّجوّل في أروقة المصحّة وهو في بيجامته، كان يهذي وغير واعٍ تمامًا. يُقال إنّ طبيبًا تحدّث إليه بالرّوسية قبل وفاته بساعات قليلة وإنّهم ناولوه طعاما خارج الأوقات العاديّة الّتي تُقدّم فيها عادةً الوجبات.
- هل تعتقد أنّهم سمّموه؟
- هذا دون أدنى شكّ، قال ليون بصوتٍ مُرتعشٍ وبعينيْنِ مليئتيْن بالدّموع، ثمّ أضاف: هذا أقسى يوم عشناه في حياتنا يا فريدا. إنّه اليوم الأكثر سوادًا. لقد قتلوه. قتلوا صغيرنا ليوفا.
- هل كان لديه أطفال؟
- نعم ولا.
- ماذا تعني؟
- كان يعيش مع جان مارتن دس باليرس الّتي استقبلتْ سيفا حفيدنا من زينة الّتي انتحرت في برلين.
- ماذا ستفعل؟
- سأحاول الحصول على حضانة الطّفل وجلبه إلى مكسيكو...

تحادثا طوال اليوم إلى أن حلّ اللّيل. فريدا الّتي عادت إليها مؤخّرًا معاناتها وآلامها الرّهيبة بسبب ما تُسمّيها «ساقها اللّئيمة»، الّتي خضعت لعمليّة جراحيّة منذ أربعة أشهر، لا تشكّ الآن مع الآلام الجديدة في أنّها بحاجة إلى عمليّة جديدة إلّا أنّها خيّرت الصّمت. في الظروف العاديّة كانت يمكن أن تحدّثه عن «عودة عرجها» وأنّ ذلك «يسبّب سخطها» وأنّها «منذ أشهر لا تفعل سوى أن تتمخّض عن الزّبد». لكنّها لاذتْ بالصّمت. لقد كانت آلام ليون عظيمةً إلى أن بدتْ آلامها بلا وزن. في الأوقات «العاديّة» كان بإمكانها أيضًا أن تُخبره أنّها بصدد العمل على رسم تخطيطي، مشروع لوحة بعنوان «ذكرى جرح مفتوح»،

لوحةٌ ستظهر فيها بلا رأس وبقلب أحمر منتفخ، ستكون جالسةً بضمّادات على رجلها وبيدٍ مدسوسة تحت تنّورتها تداعبُ الجرح المفتوح: الّذي هو فرجها الأحمر حمرة الدّم. قالت في نفسها: «لن أتحدّث عن هذه اللّوحة حيثُ أستمني، من الأفضل أن أغلق فمي الآن». حينما كانت تتأهّب للمغادرة، قبّلت ليون من شفتيْهِ وهي تقول:

- أحبّكَ. أحبّكما أنتما الاثنيْن، ناتاليا وأنت. ثمّ أخبرته أنّها علمت مؤخّرا أنّ أندريه بروتون الشّاعر الفرنسي سيزور مكسيكو قريبًا.

عندما سمع تروتسكي الاسم تغيّرت تعابير وجهه فجأة كما لو أنّ ألمه الواقعيّ العميق قد تبخّر فجأةً. بدا ذا وجه دبّ فيه النّشاطُ من جديد، أصبح لاذعًا ومهيمنًا. ما الّذي يفعله بالضبط حتّى يسترجع بسرعة كلّ هذه الهدوء؟ تساءلت فريدا في نفسها. ألم تنجح حياته المضطربة والقلقة والمليئة بالاهتزازات والمخاطر في أنْ تُجرّده من كلّ حساسيّته؟

26

خلال الأسابيع العصيبة الّتي تعاقبتْ بعد حدث وفاة ليوفا، انسحبتْ فريدا من تلقاء نفسها من حياة ليون وناتاليا حتّى لا تُجحف في التّدخّل في آلامهما. في تلك الفترة وصل الشّاعر الفرنسيّ أندريه بروتون إلى المكسيك مصحوبًا بزوجته الّتي اقترن بها منذ ثلاث سنواتٍ. تندرج زيارة مؤسّس تيّار السّريالية وصاحب الشَّعْر الرّماديّ المُتماوج في الرّيح ضمن إطار تأدية مهامّ خارجيّة وإلقاء سلسلة من المحاضرات. قضى بروتون ليلته الأولى في منزل لوبّي مارين زوجة دييغو السّابقة. منذ أيّام قليلةٍ أعاد دييغو علاقته بهذه الزّوجة وعاد لرسم لوحاته تحت ناظريْ فريدا الّتي كانتْ تشكّ في حدوث شيءٍ مّا. في الواقع، أوشك «بابا السّرياليّة» الأشهر على ركوب أوّل سفينةٍ تتوفّر في مساء وصوله والعودة من فوره إلى فرنسا. إذْ لم يوفّر مسؤول السّفارة إقامةً له، كما لم يكن بروتون قادرًا على تحمّل تكلفة غرفةٍ في نُزلٍ. وهنا تدخّل دييغو وحسم المسألة. في لحظةٍ تغيّرت أحوال الرّجل العظيم وتبدّد غضبه نهائيًا.

- ستقضيان أيّامكما الأولى في منزل لوبّي ثمّ تأتيان عندنا في سان أنخيل. أنتما ضيفانا المبجّلان. لقد حُسم كلّ شيء. أمّا عن تروتسكي فقد كلّفني بأن أنقل إليكما دعوته. وهو في انتظاركما.

لم ترتح فريدا لأندريه بروتون منذ لقائها الأوّل به. فهي لم تحبّ زرقة عينيْهِ العميقة. بدا لها وجهه بلا تعابير مثل أيّ قناعٍ ويداه شبيهتيْنِ بالطّواحين في حركتهما الدّائمة في الهواء، كانت حركاتهما مسرحيّةً بلا معنى، وأكثر من ذلك كلّه لم يعجبها تقبيله ليدها كما لو أنّها امرأةٌ آتيةٌ من القرن الماضي. لم يقف استنكارها

القائم على أسباب فيزيولوجيّة عند ذلك الحدّ. فالرّجل كان يُغْرِق سامعيه بوابلٍ لا نهائيّ من القواعد أو النّظريات الّتي بدتْ لها مجرّدَ ادّعاءاتٍ تدلّ إن دلّتْ عن الفراغ والغطرسة، كَمَثَل قوله «إنّ الأرض مكانٌ سرياليّ بامتياز» أو «في المكسيك، تنفتح أمام نباتات الصّبّار كلّ الأبديّة: أبديّة التّماثيل الحجريّة». ثمّة تعبير لا تكفّ فريدا عن ترديده: «مشكلة السّنيور بروتون أنّه يبالغُ في القيمة الّتي يوليها إلى نفسه». كانت ترى أنّه في لم يفهم شيئًا من المكسيك وتقول في حديثها المُستمرّ عنه- «المهمّ بالنّسبة لي أنّه لم يتعارض مع القضايا الثّلاثة الّتي اعتنقتُهَا منذ بداية حياتي: الشّعر، الحبّ، الحريّة»- فهو الّذي كان يذكّر الجميع بأنّه الّذي أوّل من صدح بصوته عاليًا من أجل الدّفاع عن تروتسكي الّذي لا يملك اليوم سوى رغبة واحدة: أنْ يلتقيه في أسرع ما يمكن. بالاستماع إليه نعرف أنّه كان من أوائل الّذين استشعروا عظمة تروتسكي وأنّه أيضًا من أوائل الّذين دافعوا عن شرفه الثّوريّ المهدور. وعندما لا يكون غارقًا في تحليلاته الّتي قد تدوم ساعاتٍ لدور اللّاوعي في الإبداع، يكون بصدد تشريح تيّار الاستغباء المُمنهج الّذي يطال كلّ من لا يتبنّى السّرياليّة مذهبًا ولا يشيد بما أنجزه شخصه مؤسّسًا.

حدثتْ مناوشةٌ أولى بين الاثنيْنِ على إثر مؤتمرٍ أشرف عليه بروتون نفسه في قصر الفنون الجميلة أين هاجم منْ يُسمّيهم «المثقّفين الكنسيّين والسّتالينيّين وكلّ المنخرطين في مخابرات الاتّحاد السّوفيتي وأعضاء كلّ الطوائف الدّينيّة وروّاد كلّ المعابد». اقتضتْ مهاجماته تلك تشكيلَ جهازٍ سرّيّ يُعني بحمايته، جهازٌ مترّكبٌ من مناضلين مكسيكيّين حرص تروتسكي على توفيره له. من الطّبيعيّ ألّا يحدث أيّ شيءٍ بما أنّ الجماهير الّتي جاءت للاستماع لكلمات المُعلّم الجميلة كانت جماهيرًا مُشتّتة ومتنوّعةً. أثناء العشاء الّذي انعقد في منزل سان أنخيل بعد المؤتمر مباشرةً، لم تستطع فريدا منع نفسها من أنْ تُدلي بملاحظةٍ ساخرةٍ. ففي الوقت الّذي كان الجميع يتنعّمون بأجواء الحديقة المنعشة،

والطبّاخة الهنديّة تحرس الأكلَ الّذي اختارت إعداده على الجمر، لمح بروتون آكل نَمْلٍ كان بصدد التّجوّل بحريّة بين آواني نباتات الصبّار، انطلق في إلقاء خطابٍ حول ذلك الحيوان الّذي خصّص له حيّزًا في كتابه السّابق مُنتهيًا إلى استنتاجات عجيبةٍ في علاقة بهذا الظّهور ذي الأبعاد الخفيّة العائدة بلا شكّ لما يسمّيه «الصّدفة الموضوعيّة». علّقت فريدا بعد أنْ أصغت إليْه مليّا بقولها إنّ سربًا من الحيوانات الآكلة للنّمل كانتْ ستكون محلّ ترحابٍ لملء قاعة المؤتمر الّتي كانت تغصّ بأعضاء من جهاز الأمن الّذين فاقوا الجماهير عددًا!

لم يستسغ بروتون التّعليق لذلك صمت صمتًا مُطبقًا. عندها تدخّلت جاكلين زوجته الّتي كانت تتمتّع بذكاء حادّ وحيويّة طبيعيّة وجمالٍ أخّاذ لتنقذ الموقف. انفجرتْ بضحكتها السّاحرة ثمّ اقتربت من فريدا لتأخذها من يدها وتقول لها إنّها ترغب في الاطّلاع على لوحاتها وإنّ بروتون-الاسم الّذي نطقته بكلّ ما يتطلّب من احترام- سيكون سعيدًا بدوره إذا وافقت على أن يرافقهما. أذعنتْ فريدا للأمر. كانت جاكلين في الثّامنة والعشرين من عمرها، وكانت تمتاز بالحيويّة والعفويّة والجمال الّذي يُلمس فور رؤيتها. كانت نظرتها حادّة ووجهها نحيفًا محاطًا بشعر ذهبيّ. وكانت دائمة السّعي إلى تنمية موهبتها في الرّسم مع أنّها كانت تكسب قوتها من عملها كسبّاحة فنيّةٍ في كوليزيه شارع الرششوارت بباريس. كانت فريدا واقعةً تحت أسر المرأة الّتي يرى فيها بروتون «نَايَادْ» ويطلقُ عليها اسم «أربعة عشر جويلية»، وكانت تقول في نفسها إنّها يمكن أن تخوض مغامرةً عاطفيّةً معها. لذلك استسلمت فريدا فلم تزد كلمةً واحدةً لأنّ اليد الّتي كانت تُمسك بها كانت يدًا غايةً في النّعومة ولأنّها فكّرت أنّ ممارسة الحبّ مع حورية من حوريّات البحر لابدّ أنّها من تلك الأشياء المثيرة.

بقدر ما كانت فريدا تحبّ أنْ تُطلع النّاس الّذين تُجلّهم على لوحاتها -ما تزالُ تتذكّر المرّة الأولى الّتي جاء دييغو لينظر طويلًا في لوحاتها واللحظات

الّتي قضاها ليون أمامها محاولًا الولوج إلى عوالمها الخاصّة-، بقدر كانت تكره كشف حميميّتها لأناس لا تعرفهم أو أناس تشعر بعدائيّتهم. من حسن حظّها أنّ هناك جاكلين، الرسّامة هي الأخرى، لذلك فإنّها ستطلعها وحدها لوحةً، لوحة دون غيرها، صغيرة لا يتجاوز بعداها عشرة سنتمترات على خمسة عشر: طفلة صغيرة لها قناع على شكل جمجمة. تظهر الفتاة على خلفيّةٍ كئيبة أين تلوح في البعيد جبالٌ مغطّاة بالغيوم. هي طفلة في تنّورة ورديّة، رجلاها حافيتان، تمسك وردة قطيفة صفراء في يدها، رأسها مخفيّ برأس ميّت أبيض وعلى يمينها هناك قناع مخيفٌ.

- لماذا الزّهرة صفراء. سأل بروتون.

- إنّها زهرة الأموات لدى الأزتيك. ما يزال النّاس إلى اليوم يضعونها على المقابر في عيد الأموات. أجابت فريدا.

ما كانت تريده حقّا هو إقصاء بروتون من المحاورة. لذلك توجّهت لجاكلين سائلة:

- هل لديْك أطفال؟

- فتاة صغيرة، اسمها أوب[1]، عمرها سنتان.

- «قبّلتُ فجر الصّيف. لا شيء يتحرّك بعد في واجهة القصر. كانت المياه ميّتةً. ولم تغادر بعد معسكراتُ الظلّ الطّريق المؤدّية إلى الغاب...» آرثر رامبو أنشد بروتون.

- تركناها في عهدة أصدقاء في باريس، تابعت جاكلين قولها. الأمور تسير بشكل سيّء. إنّها ترفض تصديق أنّنا رحلنا حقّا! تقول إنّنا خلف الباب، في حدود الغابة، وإنّها ترانا دائمًا في حدود الحديقة. إنّها تكاد تُجنّني.

---

(1) أوب Aube: الفجر.

- أمّا أنا فلن أستطيع إنجاب الأطفال. لا غير الإجهاض وراء الإجهاض.

- هكذا إذن. هذه اللّوحة بورتريه ذاتيّ. إنّك تعبّرين عن يأسك المنجرّة عن فكرة استحالة الإنجاب من زوجك، قال بروتون وهو ينظر صوب دييغو. اللاوعي يكشف الوعي. إنّك ترسمين أحلامك.

كرّرت فريدا لبروتون ما قالته لتروتسكي قبل أشهر قليلة:

- أنا لا أرسم أحلامي بأيّ شكلٍ من الأشكال إنّما أرسم واقعي الخاصّ.

شعرت فريدا بيد جاكلين تشدّ بقوّة على يدها. حركةٌ منها لتعبّر عن دعمها وتعاطفها.

- أندريه، إنّها مسألةٌ نسويّةٌ بحتةٌ. أنتم عاجزون عن فهم كلّ هذا قالت جاكلين قاصدة دييغو بهذه «الأنتم».

في قولها لهذه الملاحظة الدّالّة عن حساسيّتها كانت تُريد حسم الأمر وعدم التّوسّع في الموضوع، لكنّ ذلك لم يمنع بروتون من أنْ يعارض قولها:

- المرأة... على المرأة أن تكون آخر كلمة مُحتضر في إحدى الكتب. هي حاضرةٌ دائمًا سواء كانت عذراء أو عاهرة، لأنّنا مثيرة.

في الحقيقة، كانت الوضعيّة أعقد ممّا نتصوّر. فبروتون كان معجبًا بفريدا كثيرًا. فهي تتناسبُ تمامًا والمفهوم المثاليّ للأنثى من وجهة نظر السّرياليّ. متكلّفةٌ، مختلفةٌ، غامضةٌ، مستقلّةٌ، تجمع بين طبع الجنيّة الطّيّبة والسّاحرة الشرّيرة. كان بروتون مفتونًا تمامًا بما لمسه في محتوى لوحة فريدا الصّغيرة الّتي لا تتجاوز حجم الكّفِ.

- أنت غير متأثّرة بأيّ من كبار الرسّامين، هذا واضحٌ. لا تقليد في عملك ولا مرجعيّة. فلو سألتك عن رسّاميك المفضّلين لن تسمّي لي أحدًا، أنا شبه متأكّد من ذلك...

أجابت فريدا وهي تردّد في داخلها عبارتها «يا لحقارة هذا العجوز الفرنسيّ»:

- ماتيّاس غرونيفالت، بيير ديلا فرنشيسكا، هيرونيموس يوس، فرنسوا كلويه، وليم بليك، بول كلي، بول غوغان، هنري روسّو...

- أنت تصطادين في المياه العكرة. يا لهذا الطّبع الّذي تملكين...

- نعم، صحيحٌ. أنا عصاميّة وطبيعيّة وساذجةٌ تقريبًا.

- تمامًا، هذا ما أقصده قال بروتون الّذي وبالرّغم من أنّه وصل إلى المكسيك منذ أيّام معدودة إلّا أنه أضاف: إنّي ألمسُ عندك كما في كلّ المكسيك السّرياليّة في وحشيّتها ونقائها من كلّ ما يمكن أن يشوبها... في تضاريسها ونباتها، في حيويّتها المتأتّية من تمازج أعراقها تمامًا مثلك بتطلّعاتك الّتي لا سقف لها. وبناءً على هذا، سأقول لك...

- نعم، قل لي.

- أعتقد أنّه بإمكاني أن أوافق على انتمائك لحركتنا السّرياليّة العالميّة العظيمة!

- لم أكن لأعرف أنّني سرياليّة لولا مجيئك للمكسيك. في الحقيقة أنّي لا أعرف من أكون بالتّحديد، أمّا الآن فقد علمتُ بفضلك هذا اليقين: أنا سرياليّة.

- بل أفضل من ذلك: فنّك شبيه بشريطٍ يُحيط بقنبلةٍ!

- اللعنة! قنبلة؟ رائع، بل بديع، شكرًا سنيور بروتون، أنا متأثّرةٌ. ها إنّني رسّامةٌ سرياليّة إذن! لا أكاد أصدّق، كم أنا سعيدة!

بدا الجميع مدركين لحقيقة ما يحدث فيما عدا بروتون الّذي كان يعتقد أنّه حصل على تابعة جديدة.

- أطمح أيضًا إلى أن أكون أنا وفنّي جديرين بالنّاس الّذين ننتمي إليهم وبالأفكار الّتي تعطينا القوّة، أطمح إلى تشارك أعمالي في النّضال من أجل السلام والحريّة، تابعت فريدا قولها.

- هذا مؤكّد، قال بروتون موافقًا. ليتحدّث فيما بعد عن إيمانه الّذي لا يتزحزح بأنّ طرق الشّعر والثّورة من شأنها أن تنقل الإنسانيّة من مملكة الضّرورة إلى مملكة الحريّة، وأنّه يريد أن يفاتح تروتسكي في هذا الموضوع الحارق.
- أعتقد أنّ موعدا حدّد للقائكما في الغد، أجابت فريدا الّتي كانت تريد إنّها السّهرة الّتي طالتْ مثل الأبديّة.
- نعم. لذلك ينبغي علينا الذّهاب حالًّا للنوم حتّى نكون في الغد منتعشين ومستعدّين، قالت جاكلين الّتي كانت تعلم أنّ فريدا لم تعد تُطيق.

توجه بروتون وزوجته شقّتهما في الطّابق الأوّل بعد أن شربا كأسًا أخيرة.

أمّا فريدا فقد عجزت عن النّوم لأنّها كانت هائمةً في تفكيرها ببشرة جاكلين الّتي كانت تفوح بشذى زهرة نباتات العَسَلَةِ.

27

بينما كان الزّوجان يعملان، أحدهما يرسم في ورشته والآخر يُعدّ محاضرته الّتي سيلقيها في الجامعة الوطنيّة المكسيكيّة، كانت جاكلين جالسةً في حديقة منزل سان أنخيل لتحدّث فريدا عن اللّقاءين الأوّليْن اللّذيْن جمعا بروتون وتروتسكي:

- كنّا في غاية التّأثّر. شعرنا فور اللّقاء أنّنا في حضرة رجلٍ كريمٍ. قدّمت لنا ناتاليا الشّاي. حتّى أنّ أندريه الّذي لم يكن يحبّ الشّايَ شرب كوبًا كاملًا هامسًا لي: «في مثل هذه الظّروف التّاريخيّة، لنقل إنّ هذا الشّاي مقبول...».

في لقاء الرّجُليْنِ الأوّل الّذي لم يدم سوى ساعاتٍ قليلةٍ، تحدّثا عن محاكمة موسكو وعن أندريه مالرو وأندريه جيد. كان أحدهما يضع نصب عينيْه إنّه يجلس قبالة فصْلٍ كاملٍ من الثّورة الرّوسيّة والّذي طفا على مجرى الأحداث مجدّدًا بينما كان الآخر يعرف أنّه بصدد التّحدّث إلى الفنّان الّذي لم يكتف بأن يكون مُستقلّا عن السّتالينيّة بل تجاوز ذلك ليكون من أعتى المُعادين له. كانت جاكلين، عاشقة بروتون، لا تردّد سوى عباراتٍ من نوع «المفاجأة المدهشة»، و«الإعجاب المُتبادل» معبّرةً عن إعجابها بذلك «الرّجل الّذي يتحدّث بفرنسيّةٍ جيّدةٍ ولكنةٍ كأنّها صادرة عن فرنسيّ أشقر». قالت أيضًا إنّ تروتسكي بدا لها «شابّا في كامل لياقته»، متسائلةً إنْ لم يكن عشيقًا جيّدًا لإحداهنّ. كانت فريدا تُصغي لكلّ ذلك في صمت، خصوصًا وأنّ جون فان هايجونورتْ أطلعها قبل أيّام قليلة على ظرفٍ سريّ يحتوي على نُسَخٍ من أعمال بروتون الّتي لم يسبق

لتروتسكي أن قرأها لذلك وجب الحصول عليها حتّى يحاول فهم الحركة السّرياليّة الّتي لا يعرف عنها شيئًا. أمّا عن الاستقبال الحارّ الّذي تمّ بين الألوان الورديّة والبنفسجيّة لزهور البوغنفيليا والصبّار، فإنّ جون أعلمها أنّ ليون قال له إنّه لم يعد يملك الوسائل الّتي تجعله كبير إحدى الطّوائف الإيديولوجيّة «طالما أنّ عدد المريدين لا يكفّ عن التّناقص». باختصار شديد، لقد فهم قيمة أن يتوخّى كلّ الاستراتيجيّات الممكنة حتّى يستقبل عنده واحدًا من المثقّفين الفرنسيّين النّادرين الّذين لا يزالون على دعمهم له دعمًا علنيًّا. أمّا بالنّسبة لفريدا، فإنّها تعرف أنّ جاكلين الطيّبة لم تكن تدرك أنّ من مصلحة الرّجليْن العظيميْن أنْ يكون لقاؤهما لقاءَ قمّةٍ حتى يُنشر بهذه العبارات نفسها في الصّحافة الدّوليّة.

وإذا ما كانت محاورتها الأولى جرتْ دون التعرّض مواضيع ذات أهمّيّة فإنّ المُحاورة الثّانية كانت مُختلفةً تمامًا. انطلق حديث جاكلين عن أندريه الّذي توقّف مطوّلًا أمام البورتريه الّذاتي الّتي أهدته فريدا لتروتسكي وردّد الكلمات التّالية الّتي ظلّت ترنّ في ذاكرتها كما تردّد آياتٍ مقدّسةً: «لقد حظينا يا عزيزي تروتسكي بأن نكون شاهديْنِ على ولادة شابّةٍ تمتلك كلّ مواهب الإثارة كتلك الّتي امتلكها العباقرة العظامُ، كما حدث في الأيّام الجميلة الأولى لتشكّل التّيّار الرّومانسيّ الألمانيّ».

لكنّ تروتسكي وبروتون لم يتحدّثا حول فنّ الرّسم. لقد كانت المقابلة الثّانية عامرةً ببعض المناوشات الّتي كشفتْ حقيقة الهوّة الّتي تفصل بين الرّجليْن. كان ذوق تروتسكي الأدبيّ متوقّفًا في حدود القرن التّاسع عشر، وبالتّحديد عند كبار كتّاب المذهب الطّبيعيّ، اعترف لبروتون بكلّ صراحةٍ أنّه عندما يقرأ إميل زولا، «يدخل في واقع أكثر فساحَة».

- كان عليكِ أنْ تكوني حاضرةً كيْ تشاهدي بعينيْكِ نظرة بروتون المنكسرة وهو يقول لتروتسكي مضطرّا إنّه يرى أنّ زولا يملك بعض المزايا!

- في الحقيقة، كان كلّ شيءٍ يجعلهما طرفيْ نقيضٍ. لم يكن تروتسكي يفهم لماذا يولي بروتون كلّ تلك القيمة للمسمّى سيغموند فرويد ولنظريّاته الّتي لا يثق فيها ولماذا يحمل كلّ ذلك الحبّ لماركيز دي ساد ولوتريامون: «يا عزيزي بروتون، لن تقول لي رغم كلّ شيء إنّ هذين الكاتبيْن أكثر أهمّيّة من ماركس وإنجلز لدورهما في تحرير الإنسان!» وكان ينتقد السّرياليّة على أنّها من التيّارات الّتي تسعى إلى «إغراق الوعي في اللّاوعي» ولم يكن يدرك لماذا علينا أن نوليَ أهميّة كبرى لما يُسمّيه «الصدفة الموضوعية».

بالرّغم من أنّ جاكلين أكّدت على أجواء الاحترام واللّياقة الّتي ميّزت محاورتهما إلّا أنّ فريدا كانت مدركةً تمامًا لحقيقة الّذي حدث. صحيحٌ أنّ نظرتها لبروتون كانت خالية من كلّ موضوعيّة لكنّها تعرفُ رَجُلَهَا «ذا العثنون» تمام المعرفة، وتكاد تكون متأكّدة من أنّ ذلك الهدوء الشّكليّ إنّما يُخفي انزعاجًا عميقا. قد يُخفي أيضًا وبكلّ تأكيد الحسابات السّياسيّة الأكثر برودًا. كان تروتسكي يري بوضوحٍ أين تكمن هفوات بروتون السّياسيّة، وكان بروتون قادرًا على لمس مناطق ضعف تروتسكي في الحقل الأدبيّ، إذ بالنّسبة إليه يُعدّ نيرفال الشّاعر الأكثر حداثةً. في نهاية هذه المحاورة، وبينما راحت ناتاليا توزّع أكواب الشّاي الّتي تحلّيها بملعقة من المربّى، كان تروتسكي «يتحدّث عن الفكرة الرّائعة، الرّائعة كما أكّدت جاكلين عن تأسيس اتّحادٍ عالميّ بين الفنّانين والكُتّاب الثّوريّين».

- اتّحادٌ للتصدّي للمنظّمات الستالينيّة! أليْستْ فكرةً رائعةً؟ صرخ بروتون الّذي جاء صحبة دييغو لينضمّا للمرأتين الجالستيْن في الحديقة. الكلمات من أجل تغيير العالم! قوّة الرّيشة في مواجهة قوّة السّلاح!
- ماذا عن المحاضرة، هل تتقدّم في إنجازها؟ سألت فريدا الّتي قرّرتْ أن تلعب دور اللّطيفة ولو لبعض الوقت.

- لم تعد هناك محاضرة. أجاب.
- هل أُلْغِيت المحاضرة؟ لكنّ هذا أمرٌ فظيع! قالت فريدا بسخرية واضحة لم تُعجب الرّجلين.
- لقد استقال عميد الجامعة وثمة خوف من حدوث «انقلاب» ينتشر في كلّ مكانٍ.
- انقلاب ضدّ كارديناس؟ سألت فريدا.
- نعم. أجاب دييغو، وهذا ليس كلّ شيء.
- الصّحافة الشّيوعيّة تُغرقني في الوحل. أضاف بروتون. كلّ يومٍ تطنب في حديثها عن السّرياليّة الّتي تعتبرها بُرجًا عاجيًّا. نهايةً، لقد أعلمني دييغو بأنّهم جرّدوني من كلّ الصّفات الرّسميّة. يريدونني أن أصمتَ. لذلك ستكون قراءتي الشّعرية الّتي قمت بها يوم 26 يونيو الماضي آخر تدخّل أُحظى به في المكسيك.
- ستتمكّن من رؤية تروتسكي مرّة أخرى. قالت جاكلين.
- وسننعم بالتّجوّل في بلدنا الجميل أضافت فريدا الّتي لم تتوقّع أنْ تكون بهذه اللّباقة.

بعد يومين من ذلك، توزّعت عائلتا بروتون وريفيرا ومعهما ليون وناتاليا على عدّة سيّارات محاطة باثنتي عشرة حارس شخصيّ وتوجّهوا إلى تولكا، المدينة الواقعة في جنوب شرق مكسيكو على ارتفاع 2600 مترًا.

28

استغرقت جولة العائلات الثّلاث في المناطق المُحيطة بمكسيكو شهريْن كامليْن، كانت السيّاراتُ تسير في صفّ طويلٍ وتهتزُّ على طُرقٍ من الحجر والغبار اهتزازًا كان يدفع برؤوس الرّاكبين للاصطدام بالسّقف. وهكذا شقّ الموكب البهيجُ طرقًا ريفيّةً تحفّها نباتات الصبّار والنّخيل المطحونة تحت الشّمس الحارقة. وهكذا كانوا على متن سيّاراتهم الّتي تحوّلت إلى ما يُشبه الأفران الملتهبة. كانوا بعيدين كلّ البعد على توخّي الحذر الّذي تحتّمه سلامةُ تروتسكي. شاهدوا سهول تيوتيهواكان المحترقة بأهراماتها التّاريخيّة، ومعبد أكلومان الّذي له شكل قلعة محصّنة، وكاتدرائيّة تيبيك بنمطها المعماريّ القوطيّ الحديث، وحقل الحمم البركانيّة بيدرجال بأشكاله العجيبة، وأزهار الأوركيد في جبال تاكسكو، والآفاق اللّانهائيّة لصحراء الأسود، والبركانيْن الجارين بوبوكاتبتبيل «الجبل المدخّن» وإيزتاكيهواتل «السيّدة البيضاء»، وهما بركانان تغطّيهما الثّلوج، شاهدوا أيضًا حدائق الزّهور القرمزيّة أين تكثر طيور النّحلة الطنّانة. اقتربوا من هرم شوتشيكالكو ووادي تولوكا وموقعيْ تينايوكا وكاليكستلاهواكا الأثريّين الّتي تمثّل كلّها شهادةً حيّةً على عظمة الثّقافات الهنديّة القديمة الّتي طالبت الثّورة المكسيكيّة بإعادة الاعتبار لها. التقوا على مدى الطّرق الوعرة تلك بباعة للسّكاكين المعدّة للصّيد والمسدسات وآلات التّصوير الفوتوغرافيّ والمصابيح والسّاعات اليدويّة والأحجار المرجانيّة. لقد كان دييغو مُحقًا فيما ذهب إليه: «هنا يتّخذ كلّ شيء شكله الجادّ، هنا تسكن حقيقتنا وأحلامنا وأوهامنا».

جرت نزهاتهم ملء البهجة. ليلًا، كانوا يلجؤون إلى فنادق صغيرة للنّوم. كانت أمسياتهم مغرقة في الكحول. أحيانًا، كانوا يذهبون إلى قاعات سينما في واحدة من تلك القرى الصّغيرة الضّائعة، حينذاك يضطرّ تروتسكي لإخفاء وجهه بمنديل ليشاهد من خلفه لقطة راعي بقرٍ يضحك من قلبه. لقد دخلوا زمنًا آخر جديدًا، زمنًا غامضًا كثير الضّباب يمحو نهائيًا الصّباح والعشيّة والمساء. في بعض الأيّام، كان تروتسكي وبروتون ينبهران بالضّوء الصّارخ فيضطرّان لرمش أعينهما كأنّهما خارجان لتوّهما من عتمة إحدى السّجون: «هذه هي المكسيك العميقة، مكسيك الهنديّين، قال دييغو، هنا يكفّ الوقت على أنْ يُجزّأ إلى فتراتٍ متساوية. هنا لا وجود لظهيرةٍ ولا لمساء».

لم يكن بروتون يستطيع منع نفسه من التّعليق عن كلّ ما يراه- «آه، يا لهذه الطّرق الصّحراويّة المليئة بالحوادث والأسربة»- وكان يعثر دائمًا على الوسيلة الّتي بواسطتها يربط أفعالًا بسيطة بمعطيات أكثر عموميّة يحوّلها على الفور إلى نظريّاتٍ، إلّا في المرّات الّتي يمرّ فيها من أمام فلّاحاتٍ هنديّاتٍ أنهكهنّ الفقر أين كان لا يرى ما عليهنّ من شرودٍ وحزنٍ. كان ذلك ما يدفعه للغيض والتّأثر. أمّا تروتسكي فقد كان يلجأ إلى لعبتيْه المفضّلتيْن: توزيع الألقاب وتغليف نماذج من الصبّار بأكياسٍ قماشيّة، وقد عثر أخيرًا على نوعٍ نادرٍ من الصّبّار الّذي بحث عنه طويلًا، «الصّغير العجوز» وهو صبّارٌ مغطّى بشعيْراتٍ بيضاء كثيفة.

في أحيانٍ كثيرةٍ، كانت النّساء الثّلاث اللّاتي سئمن أحاديث الرّجال حول وضع الفنّ قبل الثّورة وبعدها، يَلْجأن إلى لعب الورق الرّوسيّ الذي لا تختلف صوَرُهُ عن لوحة «الجثّة الرّائعة»[1] السرّياليّة ثمّ التّجوّل في الأسواق والقرى والجلوس أخيرًا ليدخنّ ويضعن الماكياج في سلام. ثمّة ممارستان لم يكن

(1) الجثّة الرّائعة: لوحة جماعيّة هي عبارة عن لعبة أشكالٍ وخطوط شارك في إنجازها السرياليّون سنة 1925 لعلّ من أهمّهم الشّاعر جاك بريفير والرسّام إيفز تانجي.

تروتسكي يحتملها، إذ لا يكفّ عن تكرار قوله: «لا ينبغي للنساء أنْ يدخنّ، تلك ممارسة غير لائقة بالمرّة! كما لا أفهم لماذا يضعن الماكياج، مجرّد مضيعة للوقت!»

عمومًا، عاشتْ العصابة السّعيدة في ذلك المكان أجمل اللّحظات فيما عدا السّهرة الّتي أفرط فيها دييغو في شرب الكونياك فانطلق في حديثٍ مُترنّحٍ حول فريدا منذ بداية علاقتهما وكيف جعل منها الحبيبة الّتي يريد: ملحدة لا تؤمن سوى بالشّيوعيّة لترافقه جنبًا إلى جنبٍ في المظاهرات السياسيّة:

- وهكذا، بين ليلةٍ وضحاها، تحوّلت الفتاةُ المسكينةُ الّتي كانت تخشى اللهّ وتضع صليبًا كبيرًا في رقبتها وتصلّي وتذهب للكنيسة بانتظام إلى ملحدةٍ. هكذا اعتنقت الفتاة الّتي لم تهتمّ بالسياسيّة يومًا الشّيوعيّة! وهكذا صوّرتها في جدرايّتي «توزيع الأسلحة» أليْس كذلك؟ مؤخّرة شيوعيّة جميلة! صدر ساحر! صالحةٌ للسّرير! تحيا الثورة البروليتاريّة!

تبع تدخّلَ دييغو الثّمل صمتُ الإحراج. كان تروتسكي يتقلّب في خجله غير عارفٍ بما يجيبُ. «إنّي مجبرٌ على أن أصمت، بل على أن أخرس نفسي أمام هذا الأحمق!» قال في نفسه.

لم تنم فريدا ليلتها تلك في السّرير مع زوجها بل خيّرت الأريكة. كانتْ تلك الحادثة هي أسوأ ما حدث لهم. فيما عدا ذلك عاشوا أسعد اللّحظات على الإطلاق. ففريدا كانت ترى ليون في كلّ لحظة لتتأكّد في كلّ مرّة أن انسجامهما لمْ يتغيّر. أمّا انسجامها مع جاكلين فقد كان يزدادُ من يومٍ إلى آخر، مثل الّذي حدث على إثر عودة فريدا من جولةٍ تحت الشّمس الحارقة تسبّبتْ لها في التهابات الجلدة. وصفتْ لها ناتاليا طريقة روسيّة قديمة في معالجة حروق الشمس وذلك باعتماد الزّبادي. كانت جاكلين من تكفّلتْ بدهْن جسد فريدا الّتي أصيبتْ ببعض الرّعشاتِ. لأنّ يديْ جاكلين كانتْ تدلك كتفيها وضهرها العاري

ببراعةٍ مُذهبةٍ للعقل، ولأنّ فكرةً صدرت منها أفقدتها التّوازن تماما. فعندما سألتها عن حقيقة «قصّة الجداريّة» الّتي ذكرها دييغو في سهرة ثمالته، فسّرت لها فريدا أنّها رُسمت وهي توزّع الأسلحة على الفلّاحين والعمّال المكسيكيّين الثّائرين، رسمها في «بنطالٍ رجاليٍّ وقميصٍ أحمر عليه النّجمة الخماسيّة وبشعرها قصيرٍ جعلها تبدو مثل صبيّ»، عندها أجابتها جاكلين بقولها: «لابدّ أن تكوني مثيرةً جدًّا بتلك الملابس». لم تكن عبارتها سؤالًا. لذلك لم تنتظر جاكلين أيّ إجابةٍ. غير أنّ تلك الكلمات الّتي قيلتْ عرضًا كادتْ تفقد فريدا صوابها.

خلال رحلةٍ قادتهم إلى مدينة غوادالاخارا، المدينة الّتي ظلّ معمارها إسبانيًّا أكثر من مدن إسبانيا الجديدة الأخرى، تعكّرتْ الأجواء قليلًا. كان ذلك في شهر يونيو. كان دييغو بصدد إنجاز لوحة جداريّة في تلك المدينة لذلك قرّرت المجموعة الصّغيرة اللّحاق به. وفي الوقت الّذي اكتشف فيه تروتسكي وبروتون اشتراكهما في بعض الميول على مدى مغامرتهما الثنائيّة، مثل حُبّ الطّبيعة وصيد الفراشات وقنافذ البحر، بسراويل شُمّرتْ إلى الرّكبتيْن وأيدٍ غارقة في المياه المتجمّدة، في ذلك الوقت بالذّات حدث ما سرّب دودةً إلى فاكهة صداقتهما إلى الأبد. كان تروتسكي أثناء محادثتهما الثّانية قد طرح فكرة تكوين اتّحاد للفنّانين الثّوريّين، وهو مشروع يتطلّبُ كتابة بيانٍ مّا. من الطّبيعيّ أن يكون بروتون أكثر المعنيّين بكتابة ذلك البيان. لكنّ أسابيع مرّتْ دون أن يتلقّى تروتسكي شيئًا ملموسًا. «أين البيان يا أندريه، أين ذلك البيان، هل أنت بصدد تحريره؟ ماذا يا أندريه، هل لديْك شيء لتطلعني عليه؟» هكذا كان تروتسكي يسأل ولا يحصل سوى على إجاباتٍ متردّدة ومتكاسلة مثل إجابات تلميذٍ يبحثُ عن أيّ شيءٍ لمماطلة أستاذه المزعج.

كان غضبُ تروتسكي الكامن في حاجة لأيّ حادث عرضيّ حتّى ينفجر. وهو الحادث الّذي نشب داخل كنيسةٍ متواضعةٍ في إحدى الأرياف القريبة من مدينة بويبلا، هناك حيث ضبط بروتون بصدد قلع عدّة نُذُورٍ ليسرقها، نذور

قدّمها بعض الفلّاحين للتّعبير عن شكرهم وامتنانهم لله. لم يتحمّل تروتسكي الملحد رؤية بروتون وهو يدنّس إلى تلك الدّرجة واحدةً من الاعتقادات الشّعبيّة، بأن يدوس تلك النّذور المتوارثة عن الأجداد بقدميْهِ. كيف تمكّن من فعل ذلك هو الّذي يعتبر نفسه ثوريّا، كيف يتصرّف بتلك الطّريقة؟ عندما استأنف الحديث معه وهما على متن السيّارة في طريق العودة، أبدى بروتون استخفافًا واضحًا:

- إنّها بعض القطع المعدنيّة، بعض الرّسومات السّاذجة على قطع خشبيّةٍ، أيّ أهميّة لها؟ سرقة؟ لا، إنّك تبالغ. سأجعل تلك الأشياء جزءًا من عمل سرياليّ. على أولئك النّاس أن يكونوا فخورين بأن يهتمّ بهم أندريه بروتون!
- نهايةً يا بروتون، إنّك تسرق الشّعب!
- «الشّعب» لن يعلم شيئًا من ذلك، «الشّعب» لا يهتمّ كثيرًا، أمّا نحن السّرياليّون فنعتبر تلك الأشياء البلهاء كنزًا!
- هل تعتقد أنّك في واحدةٍ من مستعمراتك؟
- لا، أنا أقوم بحركة سرياليّة مناهضة للفكر الكنسيّ! الموت لكلّ الكهنة.
- أنت لا تفهم شيئًا من المكسيك يا صديقي، كلّ ممتلكات الكنيسة تعود للدّولة وحدها. أمّا أنت فقد سرقت الشّعب!
- وماذا في ذلك؟
- لو علمت السّلطات المحليّة بهذه السّرقة، سيلعب السّتالينيّون على المسألة التّراثيّة المكسيكيّة. هل تتخيّل الفضيحة: تروتسكي وأصدقاؤه يسطون على التّراث الوطنيّ؟
- من واجب الثّورة البروليتاريّة العالميّة أن...

وتروتسكي لم يسمح له بمواصلة فكرته:

- دع البروليتاريا في مكانها، لا تقترب من الثّورة لئلّا تلوّث بدلتك الجميلة! وعوض أن تذهب للسّرقة في الكنائس سيكون من الأفضل أن تحرّر بياننا المنتظر. أمّا إذا كنت عاجزًا عن ذلك، فما عليك سوى أن تُخبرني على الفور!

جُنّ جنون بروتون الجالس في المقدمة إلى جانب السّائق فأمر بإيقاف السيّارة. كان الموكب يسير منذ ساعتيْن دون توقّف. رأت فريدا وجاكلين اللّتان تركبان السيّارةَ الموالية بروتون دافعًا البابَ وعلى وجهه يرتسم الذّهول والدّهشة. كانت التّربة من حوله حارقة وشاحبة وجافّة، تجرفها الرّياح لتحوّلها غبارًا رمليّا دقيقًا. وكان العرق ينزّ من رقبته وفجوات صدره من تحت القميص المفتوح. كان الجوّ حارّا وخانقًا ورطبًا. ركب بروتون سيّارةً أخرى بينما ذهب جون قان هايجونورت ليحلّ محلّه قرب تروتسكي.

استمرّت بقيّة الرّحلة -أكثر من ستّ ساعاتٍ- في كنف صمت الأموات. عندما وصلوا إلى مدينة غوادالاخارا تحاشت المجموعتان بعضهما البعض. ذهب تروتسكي في زيارة لخوسيه أوروزكو الّذي يملك ورشةً في هذه المدينة حتّى يُبيّن لبروتون وريفيرا أنّه قادرٌ على الالتقاء بمن يريد حيثما يشاء، حتّى إن لم يعجبهما ذلك. أمّا بروتون فقد اختار مرافقة جاكلين وفريدا في جولةٍ في شوارع غوادالاخارا بحثًا عن محلّات الخردوات والأشياء القديمة.

في طريق العودة، انتهى بروتون بأنْ تكلّم. كانت تلك العادة لديه نوعًا من المرض. كان لا يكفّ عن الإدلاء برأيه في كلّ شيء، عن تفسير كلّ شيء، وتحليل كلّ شيء. وهكذا، أخذ يفسّر لفريدا ماهية المكسيك:

- أرضٌ حمراء، أرضٌ عذراء مسكونة بالدّماء الأكثر سخاءً. أرضٌ فيها حياة البشر بلا ثمن، مستعدّة دائمًا مثل نباتات الصبّار المنتشرة في مكانٍ، النّباتات الّتي تُعبّر عنها باستهلاك نفسها في وردة تجمع بين الرّغبة والخطر.

تبادلت المرأتان النّظرات وهنّ يضحكن ضحكاتٍ سريّة.

- «رغبة وخطر، رغبة وخطر...» كرّرت جاكلين قولها قبل أن تضيف بدهاءٍ: مثل فتاة النّزل الّتي زرناها؟

أجاب بروتون متوخّيا كلّ الجديّة الممكنة وهو ينظر من البلّور إلى السّماء ذات الزّرقة العنيفة بينما كان ضبابٌ فضيٌّ كثيف يسدّ الأفق البعيد:

- تلك المخلوقة الأخّاذة ذات الستّة عشر عاما، بشعرها المبعثر، الّتي جاءت لتفتح لنا الباب؟ لقد كانت جنيّةً شهوانيّةً. هل لاحظت ذلك؟ لقد كانت عارية تماما من تحت فستانها الممزّق. لا يهمّ أصلها ولا القذارة الّتي تبدو عليها. يكفي بأن أعطي قيمةً لوجودها، ذلك هو الجمال.

بعد عودة فريدا إلى سان أنخيل، شعرت فجأةً بالملل. لقد تعبت من مغامراتها وسئمت من تلك الخصومات العبثيّة. أدركتْ حينذاك أنّ وجود بروتون يمثّلُ عقبةً حرمتها من كلّ إمكانيّة للدّردشة مع ليون. لقد كان السّرياليّ اللّعين لا يبرح منزل تروتسكي. حتّى أنّهما سرعان ما تجاوزا خصومة غوادلاخارا وأعادا المياه إلى مجاريها. لقد كان كلّ واحدٍ منهما في حاجةٍ ماسّة للآخر. وعد بروتون بأنّه سيشتغل على تحرير البيان وبأنّه سيعملُ على أنْ يفعل ما في وسعه حتّى يمرّر الأفكار الّتي يريد تروتسكي تمريرها. من ناحية تروتسكي المهووس ببيانه فإنّه لمْ يكن يرى كلّ ما يفصله عن بروتون. أمّا فريدا فكانت ترى وتتابع كلّ ما يحدث. بالإضافة إلى مناقشة الرّجليْنِ في كلّ ما هو سياسيّ وثقافيّ، كانا يثيران مواضيع أخرى عديدةً، مواضيع عامّة وأخرى خاصّة. على سبيل المثال، كان تروتسكي من أولئك الّذين يحبّون الحيوانات ويعتبرون أنّ الكلاب تملك روحًا، من المؤكّد أنّها روح تختلف عن الّتي يمتلكها الإنسان لكنّها تبقى روحًا في كلّ الأحوال. من البداهة ألّا يتّفق معه بروتون في هذا الشّأن:

- هذا ما لا يتفّقُ مع النظريّة الماديّة الجدليّة. إنّه من تلك الأفكار الّتي قد أطلق عليها اسم «الأفكار العاطفيّة»، وبالتّالي لا يمكن البرهنة عليها عقليّا.
- تأمّل كلبي، أجاب تروتسكي، إنّه صديق لي. ألا ترى أنّه يمتلك نظرة إنسانٍ؟ ألا ترى أنّه قادرٌ على إبداء بعض المشاعر؟
- أن أقبل اعتبار كلبك «عاطفيًّا» يا صديقي ليون أمرٌ أكثر عبثية من قبول مقولة إنّ البعوضة «وحشيّة» أو إنّ جرادة البحر «رجعيّة».

ساندت فريدا الّتي كانت حاضرةً مقولة تروتسكي:

- حسنًا، أنا أودّ لو أكون نسرًا. فاللافت لدى النّسر هما عيناه وما فيهما من تعابير!
- لماذا لا تكونين حلزونًا أو دودةً، قال بروتون ساخرًا ومقهقهًا.

فريدا، لم تضحك. لأسباب يطول شرحها. لقد أصبح بروتون يوتّرها أكثر فأكثر. بدت لها هذه المناقشة بلا فائدة خصوصًا وأنّ الفكر المكسيكيّ يتبنّى فكرة وجود هذا الرّابط بين البشر والحيوانات، فاكتفتْ بالقول إنّ المثقّف الأوروبيّ باردٌ ولا يمكنه القبول بهذه البداهة. ثمّ إنّها قلقة على دييغو كثيرًا منذ بضعة أشهر، إذ بالرّغم لخضوعه لعمليّتيْنِ جراحيّتيْن في السّابق على مستوى عينيْه إلّا لا يكفّ عن خوفه المرضيّ من فكرة فقدانه البصر وهو ما يجعله عصبيّا أكثر فأكثر.

وبينما كان بروتون وتروتسكي منصرفيْن بالكامل إلى مجادلتهما نفسها المُتعلّقة بامتلاك الكلاب لروح من عدمه، ودييغو مستمرًّا في تبرّمه الوجوديّ اليوميّ، كانت فريدا لا تكفّ عن النّظر في الصّورة المركّزة فوق المدخنة والّتي تّم التقاطها في مدينة كويرنافاكا. كانوا في تلك الصّورة مُصطفّين جميعًا كأنّهم يقفون كيْ يكونوا موديلًا سيعتمده دييغو في رسم إحدى جداريّاته حول موضوع:

مستقبل الفنّ على الكوكب بعد التّهجّم الثّقافيّ التّروتسكيّ. كلّ أبطال قصص حبّها موجودون في هذه الصّورة، وهم جميعًا على علم بتلك القصص: فريدا، تروتسكي، ناتاليا، جون فان هايجونورت، وحتّى أندريه وجاكلين بالرّغم من أنّهما لا يعلمان الشّيء الكثير. وحده دييغو لا يعرف شيئًا، لكن إلى متى يظلّ كذلك؟ لا شيء يهمّها في النّهاية، قالت فريدَا حاسمةً أفكارها. كلّ ما يهمّها الآن هي الرّحلة جديدة الّتي يخطّطون إليها والّتي ستقودهم هذه المرّة إلى ضفاف بُحيرة باتسكوارو. وغدًا، ينبغي عليها أن تستفيق في ساعات الفجر الأولى.

29

- الأمر بسيطٌ بالنّسبة إليّ، قال بروتون مُستمتعًا بأكل سمكته البيضاء، لو كان الأمر بيدي لتركتُ كلَّ شيء هنا لأرحل على القدميْنِ بعيدًا.
- لكن، إلى أين يمكنك الذّهاب؟ سأل دييغو. هذه المنطقة عبارةٌ عن مستنقع كبيرٍ...

لم يُجب بروتون بل اكتفى بإشارة من يده، إشارة قد تعني أيّ شيء ولا شيء في آنٍ.

تمّتْ رحلتهم في اتجاه باتسكوارو على مراحل. في البداية، انطلق بروتون وجاكلين وجون فان هايجونورت متوغّلين في طرقٍ تُرابيّةٍ تغمرها الأمطارُ باحثين عن تلك التّماثيل الصّغيرة الّتي تمثّل نسوة عارياتٍ بأعين لوزيّة وفُرُوجٍ مفتوحة مثل الأفواه، تلك الأيقونات الّتي يوجد منها الكثير في منزل سان أنخيل. تبع الثّلاثةَ تُروتسكي وناتاليا ثمّ دييغو وفريدا. مع حلول الظّلام اجتمعوا كلّهم في مطعمٍ صغيرٍ واقعٍ في جزيرة جانيتسيو الّتي يسكنها الصيّادون بعد أنْ جابوا الأفنية والأروقة المُلوّنة وبعد أن تصدّعت رؤوسهم بنعيق مُتواصلٍ آتٍ من أقفاصٍ تعجّ بطيور المينة الثّرثارة.

كانت ساعةً من الضّحك الصّافي: فتروتسكي الّذي لا يُحسن الإسبانيّة كان يتحدّث مع بروتون بالفرنسيّة، وفريدا الّتي لا تُحسن الفرنسيّة كانت تتحدّث مع جاكلين بالإنجليزيّة، أمّا ناتاليا الّتي لا تتكلّم سوى الرّوسيّة فإنّها كانت تقضي أغلب وقتها صامتةً ولا تدخّلُ إلّا في ذلك الوقت الّذي لا يتوقّع منها أحدٌ التّدخّل، وكانت مُحاوراتها مع دييغو محاوراتٍ تبلغ فيها الكوميديا ذروتها.

بعد أن استرجعوا سرد رحلتهم المُجهضة، حيثُ علقت السيّارة في الوحل عديد المرّات، عادتْ محادثتهم لطبيعتها أيْ للخوض في شؤون الفنّ والأدب. مرّةً أخرى، طفتْ فكرةُ البيان الموعود. في الحقيقة لم يكن ذلك البيان سوى استئنافٍ للمشروع القديم نفسه الّذي حرّره تروتسكي قبل خمسة عشر عامًا في كتابه «الأدب والثّورة»، في ذلك الزّمن كان يسعى بكلّ الطّرق المتاحة إلى تخليص الفنون والآداب من كلّ وصاية ستالينيّة. لذلك، عاود سؤاله المتعلّق بتحرير البيان بأقلّ حدّة هذه المرّة بأقلّ حدّة من سابقاتها. لكن، على بروتون أنْ يُنهي كتابة ذلك النصّ اللّعين! عندما تأخّر الوقت، التزم الجميع باللّقاء من الغد للحديث حول الموضوع نفسه، ولم لا يلتقون دائمًا في إحدى مطاعم جزيرة جانيتسيو الصّغيرة المخفيّة في الأزقّة المتعرّجة والمحاطة من الجانبيْن بمنازل ذات أسقف قرميديّة.

لم تحدث مناقشة ثانيةٌ، ليس لأنّ فريدا كانت قد عمدت إلى تعكير الأجواء من جديد بأن لمّحت للّذين سيقعون على البيان المستقبليّ بأنّهم أهملوا جانبًا مهمًا ويتمثّل في تحديد كيفيّة تعامل الدّولة الثّوريّة أعمال الفنّانين الّذين يحملون أفكارًا غير متماثلة مع الأفكار الّتي تدافع عنها الثّورة بل لأنّ بروتون كان قد تعرّض في الليلة الماضية لأزمة فقدان القدرة على الكلام. لم وجود لعبارة أخرى: بابا السرياليّة عاجز عن الكلام! بعد أيّام قليلة أخرى من الانتظار الأجوف اكتفى خلالها تروتسكي بترديد عبارته «استقلالية الفنّ- من أجل الثّورة! الثّورة- من أجل تحرير نهائيّ للفنّ!» وهي عبارة لا تعني شيئًا ذا قيمة بالنّسبة لفريدا، تُرِك السّرياليّ الأخرس لعناية جاكلين لامبا وبدرجة أقلّ لدييغو وفريدا، بينما اختار تروتسكي العودة إلى كويواكان.

بعد أيّام قليلةٌ أخرى، عاد الرّجال الثّلاثة إلى محاوراتهم بينما كانت جاكلين وفريدا يلهوان مثل طالبات في المدارس الإعدادية. أخيرًا انتهى بروتون من تحرير البيان الشّهير مستغلّا فترة نقاهته وقد وقّع فيه دييغو ريفيرا لأنّ تروتسكي

الّذي رغم أنّه شارك بروتون في كتابة جزءٍ كبيرٍ من البيان إلّا أنّه طالب بوضع اسم ريفيرا بدل اسمه.

حلّت بعد ذلك أيّامٌ مثقلةٌ ببعض الأحداث القاتمة. انتشر في البداية خبر اختفاء غامضٍ لرُودُولْف كليمنت، سكرتير مكتب الأمميّة الرّابعة في باريس، ليُعْثَر عليه فيما بعد جثّةً مقطوعة الرأس موضوعة في حقيبة تتقاذفها مياه نهر السّين، بعد ذلك انطلقت الحملةُ الشّعواء ضدّ تروتسكي في صفحات مجلة «الفوتورو» الشّهريّة وجريدة «البوبولار» اليوميّة، مقالاتٌ تصفه بخائن المصلحة الشّعبيّة وحليف النّازيّة الهتلريّة. أخيرًا وليس آخرًا، عودة الزّوجيْن بروتون إلى فرنسا. بعد لقاء أخيرٍ انعقد في فناء الكازا أزول المُشمس أين سلّم تروتسكي بصفة رسميّة المخطوطة النّهائيّة للبيان المُشترك بعد أن راجعه بدقّة متناهية، غادر الزّوجان المكسيك وتوجّها إلى ميناء فيرا كروز حيث كانت في انتظارهما سفينةُ «إيبيريا» العابرةُ للمحيطات.

ساعدت فريدا جاكلين على حزم حقائبها. على عكس حقائب أندريه الّتي كانتْ مليئةً بالأقنعة والأواني الفخّاريّة والإطارات المزخرفة والدّمى وجماجم السّكّر والعلب الخشبيّة المطليّة والنّذور الّتي سرقها من الكنائس، كانت حقائب جاكلين فارغةً لا تحتوي على أيّ شيء يدلّ على سرقة ما أو حتّى على ذكرى ما. عانقت جاكلين فريدَا طويلًا. ستحمل رائحة عطرها وابتسامتها وضحكاتها المجنونة وهما يسخران من تعصّب تروتسكي وينعتانه بـ«العجوز». ثمّ إنّهما ستلتقيان يومًا في باريس بما أنّ بروتون وعد بأن يُنظّم معرضًا فنيًّا خاصّا بفريدا وحدها.

ظلّت فريدا على مدى الأسابيع الّتي تلتْ رحيل جاكلين لا تفكّر إلّا فيها، تفكيرًا لا يخلو من حُزنٍ، كانت تتذكّر هيأتها النّحيلة المُتمشّية بين أشجار الرّمان والدّفلى بزهورها الورديّة ونباتات الفُلفل والبوغنفيليا مانحةً جسدها لحمّام شمسيّ، جسدها الّذي يكون متعرّقًا أحيانًا ولامعًا. انتهتْ ذكرى

جاكلين بأن تلاشت شيئًا فشيئًا كما لو أنّ ريحًا عاصفةً جرفتها بعيدًا، حينها هجمتْ على غُرفِ منزل سان أنخيل تنفض الغبار عن أسترته وتغيّر أغطية أسرّته وتشرع أبوابه على الحديقة. هكذا، عادت إلى الرّسم. كذلك دأبتْ فريدا، فهي الّتي تلوذ بالرّسم كلّما ضاقتْ بها السّبُلُ. أنجزتْ في البداية لوحةً صغيرةً أسمتها «ثمار الأرض»، عليها نرى بعض أكواز الذّرة، من بينها كوزان مُغلّفان وكوز ثالث عارٍ تمامًا في إشارة منها للوقت الّذي مضى في غياب جاكلين، ثمّ نرى حبّة فُطر مقلوبة، برأسٍ في الأسفل وجذر في الأعلى على شاكلة قضيبٍ، صورةٌ ترمزُ لرغبتها في جاكلين. رسمتْ أيضًا لوحتها الّتي تحمل عنوان «البتايا»، وهي عبارةٌ عن هيكل عضميّ صغير يُشهر منجله من فوق حبّات رمّان حمراء متفجّرة عن نبتة صبّارٍ. ثمّ شرعت في إنجاز لوحتها «القلبيْن السّعيديْن»، تظهرُ فيها رمّانتان كبيرتان مُتفجّرتان، يسيل منهما الدّم بينما هما تحتكّان ببعضهما البعض، رمّانتان تغطّيان كامل اللّوحة، فاكهتان مُمتلئتان ومرتعشتان. أجابت تروتسكي الّذي سألها عمّا يمكن أن تعنيه اللّوحة فكانت إجابتها المستفزّة التّالية:

- بظران غاضبان يا «ذا العثنون»، هذه اللّوحةُ تُثير جنونك، إه!

في شهر سبتمبر، وتروتسكي مشغولٌ بالكامل في ابتداع أممّيّة جديدة، الأممّيّة الرّابعة، نظّم دييغو المزاد الكبير الأوّل لبيع لوحات فريدا. فهي الّتي ظلّت تُخفي قرابة الثّلاثين لوحةً على أمل أنْ تتمكّن بيعها يومًا، تلقّتْ زيارةً من الممثّل الأمريكيّ إدوار روبنسون. كانت اللّوحات موضوعةً الواحدة جنب الأخرى في شرفة منزل سان أنخيل، تفاجأ لمرآها الممثّل وزوجته غلاديس. اشتريا منها أربعة لوحات. غمرتْ فريدا سعادةٌ جنونيّة فسارعت إلى إخبار تروتسكي بالأمر في مكتبه بالكازا أزول. لم يتمكّن من النّبس بكلمة. كانت فريدا سعيدةً وثرثارةً كما لم يراها من قبل:

- هل تفهم، الآن فقط يمكنني أن أتنعّم بحريّتي! الحريّة! سأتمكّن من

السّفر وفعل كلّ ما أرغبُ فيه! لن أحتاج التّسوّل لدى دييغو لأحصل على المال!

- هل حصلت على سعرٍ جيّدٍ على الأقلّ؟ سأل ليون.
- مائتا دولار لكلّ لوحةٍ.
- وأين تُريدين الذّهاب؟
- إلى نيويورك.
- لطالما اعتقدت أنّك تكرهين الأمريكيّين؟
- هناك عارض شابّ يُدعى جوليان ليفي اقترح عليّ عرض لوحاتي عنده. العرض لمدة ثلاث أسابيع. خمس وعشرون لوحة. تخيّل! لن تتوقّع أبدًا الشّخص الّذي تكفّل بكتابة مقدّمة الكتالوغ.
- بل أعرف!
- من؟
- أندريه بروتون...
- كيف عرفت ذلك؟
- لقد أحبّ أعمالك حقّا.
- أرفض أن يكتب أيّ شيء عن أعمالي!
- أنت مجنونة بكلّ تأكيد!
- لا أهتمّ! لا أريد شيئًا من ذلك الحقير!
- انتظري قراءة ما كتب على الأقلّ!
- لقد فعلت!
- هل أرسل لك النصّ؟
- نعم.

- إذن؟
- هل تعرف كيف ختم ذلك الأبله كلامه؟ استمع: «لا يحتاجُ هذا الفنّ إلى أيّ تفصيل إضافي من تفاصيل القسوة والفكاهة، الفكاهة وحدها قادرة على تجميع القدرات العاطفيّة النّادرة الكامنة وراء تشكيل هذه المصفاة الّتي لا تعلم بسرّها سوى المكسيك». مجرّد هراء!
- ماذا ستفعلين؟
- خلال يومَيْنِ، سأركب في اتّجاه نيويورك. ينطلق المعرض يوم 1 نوفمبر.

30

على السّفينة الّتي كانت تُبحر بها إلى نيويورك، انتهتْ فريدا إلى قرارٍ حاسم. قرارٌ جاء بعد اللّيلة السّابقة لرحيلها الّتي عاشتها ملْء النّشوة الخالص والسّكر. لم يعكّر صفو سهرتها تلك سوى دييغو، كذلك دأبه. فقد دعا للحفلة واحدة من عشيقاته، وهي هنديّة شابّة وعارضة أزياء لها شفتان منتفختان ونهدان مهولان، «النّهدان اللّذان على ذلك الخنزير أن يعجنهما وهو يخور»، قالت فريدا في نفسها. مادام الأمر كذلك، فإنّها ترحل إلى نيويورك بقلبٍ متخلّص من كلّ ما يثقله، ستكون مستعدّةً لأيّ عدد من العشّاق والعشيقات. ستجعل الجميع يفهمون أنّها هجرت دييغو، «لقد تألّمتُ كثيرًا بسبب ذلك القذر». نعم، هذه حقيقة، وهذا ما ستقوله من هنا فصاعدًا: «لتكن الحريّة مطلقة لكليهما». لن تهتمّ بعشيقات دييغو مهما كان عددهنّ. أمرٌ لم يعد يزعجها في شيء. ستشتاق لدييغو هذا مؤكّد، لكنّها لم تعد تحبّه البتّة. سافرتْ محمّلة بصناديقها المليئة بأعمالها الّتي لم تعد تهتمّ بسواها: مُرضعتي وأنا، أنا ودميتي، فولانج تشانج وأنا، ما أعطاني إيّاه الماء، مستشفى هنري فورد، بوربانق- خالق الثّمار الأمريكيّة. ثمّة عدد آخر من اللّوحات وهي سلسلة من البورتريهات الذّاتيّة الّتي وضعتْ لها أطرًا من الصّفيح والأصداف والجبس الملوّن وشرائط لاصقة صنعتها من خزف طلبيرة الإسبانيّة، مثل لوحة الكادر والعين أو النّاجي، «ذلك من أجل أن تعميَ عين برجوازيّ يأخذ تلك اللّوحات على أنّها فولكلور».

ما إن وطئتْ بقدميها التّراب الأمريكيّ حتّى شغفتْ بجوليان ليفي مباشرةً. فالعارضُ الشّابّ كان رجلًا وسيمًا وشهوانيّا، له صوتٌ ناعمٌ ودافئٌ.

اقترح عليها منذ الأمسيةِ الأولى أنْ يطوف بها حانات «هارليم»، الأمر الّذي وافقت عليه دون تردّد. ومع تقدّم السّهرة، تمكّن الشّابّ من الإيقاع بها رغم تعبها من الرّحلة، فانطلقتْ تغازله بلا عُقدٍ على مدى جلساتهما لكنّها في النّهاية قرّرت العودة إلى النّزل بمفردها. كانت تحتاج إلى وضع استراتيجيّة ما، أن تدفع الشّابّ إلى بعض الانتظار حتّى لا يعتقد بأنّه قد بلغ كلّ شيء ضربةً واحدة، هذا بالإضافة إلى أنّها سيزوران إدغار كوفمان صبيحة الغد، ذلك الثّريّ الشّغوف بجمع اللّوحات وصديق ليفي الّذي يعيش في بنسلفانيا. لذلك، عليها أن تنام مبكّرًا هذه اللّيلة.

على مدى الرّحلة التّي تمّت على متن القطار، اتّبعتْ فريدا استراتيجيّتها الإغوائيّة، فلمْ تكفّ في محاوراتها عن تسريب تصريحاتٍ تخصّ دييغو من نوع «خنزير عجوز وسمين» مؤكّدة على أنّها كفّت عن لعب دوْرِ «دميته الخاصّة» وغيرها من التّعابير الّتي تصبّ في المعنى نفسه. وكانت كلّما اقترب منها ليفي تهمس له بمكرها المُعتاد أنّه لو لم يكن نصيرًا مُتحمّسًا للفنّ السّرياليّ لكان مرحّبًا به في سريرها... عندما وصلا إلى منزل إدغار كوفمان، تابعتْ فريدا لعبتها الإغوائيّة ذاتها. صارت تمتلك زمام ثلاثة فرسان: ليفي وإدغار كوفمان وابنه. لقد صنع لباسُهَا المكسيكيّ ما يشبه المعجزات، إذ صار كلّ واحد منهم يعتقد أنّ حظّه أوفر من الآخر. لمّا كان من غير الممكن العودة إلى نيويورك في اليوم نفسه، دعا إدغار فريدا وليفي لقضاء ليلتهما في منزله الفسيح بغرفه الّتي يتجاوز عددها الخمسين. هذا تفصيلٌ في غاية الأهميّة لأنّه، لمّا آن أوانُ النّوم انطلقت رقصاتُ الرّجال الثّلاث أمام باب غرفة فريدا دون هوادةٍ. كانوا في غدوّ ورواحٍ، هكذا بلا سبب، مراوغين بعضهم البعض، مُلقين تحيّاتهم إلى بعضهم البعض، إلى أن يئسوا من تحقيق أيّ شيء فانتهى كلّ واحدٍ منهم باللّجوء إلى غرفته خائبًا. عندما دخل ليفي غرفته وجد فريدا في انتظاره على سريره عاريةً تمامًا، لم تتركْ من كلّ زينتها سوى قرطيْها الهائلين الشّبيهيْنِ بعجَلتيْن. كان ليفي مفتونًا بها فتنةً زادتها

إنجليزيّتها السيّئة المُتأثّرة بلكنةٍ إسبانيّة شدّةً، لم تكن فريدا من اللّواتي يجهدن أنفسهنّ للتخلّص ممّا قد يعيبها، لذلك لم تستخدم سوى بعض الكلمات الّتي تلكأت بها كيْ تدعو ليفي إليها وهي على السّرير، الأمر الّذي زادَ في اضطراب الرّجل وقد تذكّر حينذاك ما قاله بروتون: «إنّي أحذّرك يا صديقي العزيز، تلك المكسيكيّة امرأةٌ سرياليّةٌ بامتياز، إنّها تمتلك جمال الشّيطان».

لطالما كانت الحياة غريبةً. ففي أمسية افتتاح المعرض وبينما كانت فريدا تتمشّى بين لوحاتها مثل ملكةٍ تغمرُها فرحة الانتصار، فرحة جديرةٌ بأوّل معرض لها في حياتها، انتابها شعور غريبٌ لم تجد له تفسيرًا: لقد تمنّتْ أن يكون دييغو هنا! لا لكي تصرخ في وجهه لتؤكّد أنّها موجودة بوصفها رسّامةً، رسّامة بكلّ ما تعنيه الكلمة، لكن لكي يشاركها سعادتها ببساطة. غصّ المعرضُ الصّغير، البناية رقم 15 من شارع «إيستْ ستريت» بالحاضرين. كان كلّ الأعيان هنا، جينجر روجيه، مارتا غراهام، الزّوجان روكفيللر، دوروثي ميللر، جورج غروسز، كان هناك تُجّار وهواة تجميع اللّوحات ونقّاد وفنّانون ومناضلون وناشرون وملياردياراتٌ وساسةٌ. وكان من بين الحاضرين عشّاق قدامى مثل نوجوشي الّذي جعلته يفهم أنّها هجرت دييغو، «قد تكون قالت له ذلك كيْ تُعيد علاقاتها معه» ونيكولاس موراي، الّذي تعرّفت عليه في المكسيك سنة 1931 وهو من ساعدها بصفةٍ كبيرة في إقامة هذا المعرض. حضر أيضًا نيك موراي مبارز السّيف الأشهر والمصوّر الفوتوغرافيّ الّذي ينشر أعماله في مجلّتيْ «هاربر بازار» و«فانيتي فير» والطيّار ومموّل الفنّانين. هو رجلٌ يتمتّع بكلّ الصّفات الجيّدة، حنونٌ ومخلصٌ، له جسدٌ في تمام النّحافة والرّشاقة، بمعنى أنّه نقيض دييغو تمامًا. توجّهتْ إليه فريدا شاقّةً الحاضرين بصخبهم وهي في بلوزتها البيضاء اللّامعة وعلى كتفيها شالٌ أسود وهمستْ إليه بأنّها تُحبّه مثل ملاكٍ.

– مثل ملاكٍ؟ أجابها وهما يقفان أمان لوحةٍ عنوانها «فُستاني كانَ يتدلّى من هنا».

- نعم، إنّك تبدو مثل زنبقة يا حبيبي.

لم يبدو نيك مُستعدّا لسماع بعض الكلمات النّاعمة:

- وماذا عن جوليان ليفي، هل هو ملاكٌ أيضًا.

نجحتْ فريدا في جرّه إلى مكانٍ بعيدٍ، حيثُ تُعلّق لوحة «كلبي الخُرافيّ وأنا»:

- حالما ينتهي هذا السّيرك، نذهبُ أنا وأنت لوحدنا إلى تيهوانتيبيك، هل أنت موافقٌ يا حُبّي؟

- هل ستأخذينني مثل أحد فِتْيانِك؟

- ألمْ أعد زهرتك البريّة المفضّلة؟

- لا، لم تعودي زهرتي المفضّلة! أنت لا تعرفين ماذا تُحبّين بالتّحديد! وهذا يُتعبني!

كان نيك منفعلًا. من حسن الحظّ أنّ الحاضرين بضجّتهم حالوا دون تواصل خصومتهما. خصومةُ حبيبيْنِ حقيقيّيْنِ.

كان نيك يعشق فريدا عشقًا حقيقيًّا إلى درجة أنّها كانت تقول أحيانًا إنّ بمقدورها التّخلّي عن كلّ شيء في أيّ يوم تريده لتذهب للعيش معه في نيويورك. كما كان مختلفًا عن كلّ الّذين عرفتهم، فهو رجلٌ متخلّصٌ من كلّ قسوةٍ ومن كلّ حساباتٍ. رجلٌ يتمتّع بلطافةٍ نادرةٍ. لقد تمكّن بعكس ما تُوحي به حدّة كلماته من أن يفهمها الأمر التّالي: يريدها له وحده. قال ذلك لأنّ سعة صدره الأسطوريّة قد وصلت إلى منتهاها.

في صباح الغد، التقت نيك في «السنترال بارك». التهما أقراصًا من البايغل المملّح اشترياه من إحدى الباعة المتجوّلين ثمّ أمضيا اليوم كلّه وهما يتسكّعان في ممرّات المُنتزه. عندما بدأ اللّيل بالحلول، قالت له بلغة التّلميذات العاشقات:

- عدني بألّا تصطحب أحدًا غيري إلى هنا، هذا منتزهنا، منتزه نيك والزّهرة البرّية؟

لم يجب نيك. اكتفى بتقبيلها قبلاتٍ عميقة. كانا في تلك الأثناء قد اقتربا من نافورة بيثيسدا.

في الأسابيع الموالية، عاشت فريدا أيّاما من أفضل أيّام حياتها. على الأقلّ، ذلك ما كانت تهمس به لنيك دون انقطاع. كانا يقضيان ساعات طويلة وهما يتضاجعان على أريكة مكتبه أو يستمعان إلى اسطوانات «ماكسين سولفيان» على الجراموفون. في المساء، كانت تذهب للرّقص إلى حدود الفجر. اكتشفت فريدا الويسكي الّذي لم تجرّبه من قبل، فكانت تضحك ماسكةً يد نيك.

- وماذا عن عارض لوحاتك؟ سألها نيك ذات صباح.

- لقد نسيته، إنّه سرياليّ جدّا، يقتاتُ من يد ذلك الحقير بروتون، أجابت فريدا.

ذات ليلةٍ، وقد جافاهما النّوم تجرّأ نيك على أن يُفاتحها في أمر الزّواج. لمَ لا. فهي لم تعد تُحبّ دييغو. يمكنها أن تنتقل للعيش معه في نيويورك.

- وهكذا يصبح اسمي السيّدة فريدا موراي، سيكون عليّ أن أتعوّد عليه. اكتفتْ فريدا بالإجابة.

انتهى المعرض يوم 15 نوفمبر. تمكّنت فريدا من بيع نصف أعمالها رغم الأزمة الاقتصاديّة. تحوّلتْ إلى «رسّامة لا يُشقّ لها غبار، أعمالها خارجةٌ عن المألوف، تخاطب مواضيع أنثويّة محضة، تشتغل على ثيمات المكسيك الأكثر أهميّة وهي الآن بصدد منازعة زوجها المميّز في أمجاده» هكذا كتبت الصُّحُف في أعمدتها.

إلّا أنّها رغم نجاح معرضها الأوّل والسّعادة الكبيرة الّتي كانت تعيشها مع نيك لم تتمكّن من التّفكير في كلّ الّذي تركته هناك في المكسيك، بما في ذلك تروتسكي بطبيعة الحال.

ذات صباح، تلقّتْ رسالة أليمة من ليون، حدّثها فيها عن نكتة سيّئة من نُكات دييغو الّتي تحوّلت إلى مأساةٍ. ففي يوم 2 نوفمبر، يوم ذكرى الأموات، اقتحم دييغو الكازا أزول. كان بوجهه الّذي عادةً ما يُظهره في أيّامه السيّئة، ذلك الوجه الصّبيانيّ القذر الّذي يُدبّر مكيدةً مّا. كان يحملُ طردًا لِلِيُون أكّد على أنّه يحتوي على هديّة تُخصّه. فتح ليون الطّرد ليكتشف جمجمة أرجوانيّة حُفرتْ على جبهتها كلمة «ستالين». انفجر دييغو بضحكة هائلةٍ وضرب على ظهر ليون ضرباتٍ عديدةً ثمّ غادر بالسّرعة ذاتها الّتي دخل بها. «من غير المُجدي أن أخبرك أنّي بعد مغادرة زوجك مُباشرةً طلبتُ من جون أنْ يتخلّص من الجمجمة»، هكذا كتب ليون.

لكنّ ذلك لم يكن كلّ شيء. لقد اكتشف دييغو أنّ علاقة ما كانت تجمعهما. علم ذلك بعد أيّام قليلة من مغادرتها إلى نيويورك. من الّذي أخبره؟ لليون بعض الشّكوك في هذا الخصوص، لكنّه لا يملك دليلًا على صحّتها. هل هي حركة من حركات كريستينا الانتقامية؟ لم تكن الجمجمة سوى حَلَقةٍ أولى من سلسلة من النّوبات الخطيرة. ما كان يحدث في الواقع هو أنّ دييغو قرّر قطع علاقته بتروتسكي فاتّخذ من خلافاتهما السّياسيّة ذريعةً. وقد حصل تروتسكي من ناحيته على سبيل صدفةٍ رتّبتها الحياةُ ترتيبا مُحكما، على رسالة كتبها دييغو لبروتون فيها مرّغ بوجه ضيفه في التّراب. رسالةٌ كان سكرتيره قد وضعها مع المرسلات الّتي تستوجبُ توقيعه عن غير قصدٍ! تصيبُ تصرّفات دييغو غير المتوقّعة تروتسكي بالفزع: إنّه يهاجمُ الرّئيس كارديناس بعنف ويعبّر عن دعمه للجنرال ألمازار الّذي وعد في حملته بمحق النّقابات وإخضاع اليسار، إنّه بكلّ اختصارٍ يتلاعبُ بحياة تروتسكي وناتاليا. كان تروتسكي قد وعد بعدم التدخّل في الحياة السياسيّة المكسيكيّة إلّا أنّ ريفيرا يتصرّف بلا مسؤوليّة. وبحكم ارتباط تروتسكي بهذا المُشاغب فإنّه معرّضٌ للطّرد مرّة أخرى. في حدود ما وصلت إليه الأمور الآن فإنّ الرّجليْنِ صار يُكنّان لبعضهما البعض مشاعر لا تختلف

عن الكراهية في شيء ممّا يُحتّم قطيعتها الأبديّة. فدييغو عازمٌ على الاستقالة من الأمميّة الرّابعة ودييغو يخطّط لمغادرة الكازا أزول. انتهت رسالته بالكلمات التّالية: «فريديتا، إنّه وقتُ ذهابي إلى سريري، وفي انتظار أنْ يتمكّن منّي النّوم سأخاطبُكِ بأفكاري. لقد أصبحتُ عجوزًا ضربةً واحدةً يا فريديتا. أشتاق إلى ضحكتك. أقبّلك، تعرفين أنّي أحبّ القيام بذلك، لكنّي مرهق كثيرًا».

الهوّة الّتي تفصل فريدا بين عذابات تروتسكي وسعادتها الغامرة هي المعنيّة بكلّ يحدث في الكازا أزول، جعلتها تشعر في الوقت نفسه باللّامبالاة والذّنب. في اليوم الّذي تلقّت فيه فريدا هذه الرّسالة، تناولت فطورها الصّباحيّ مع نيك في المطعم التّابع لنزل «باربيزون» ثمّ توجّها متعانقيْنِ إلى استديو التّصوير الفوتوغرافيّ بشارع «ماك دولاس». ها هناك التقط لها سلسلةً من الصّور الجميلة جمالًا بلا اسم. صورتان منها كانتا ممّيزتيْنِ على وجه التّحديد. على الأولى الّتي كانت بورتريهًا بالألوان بدتْ في كامل سكينتها لأوّل مرّة يلفّ جسدها لحاف مكسيكيّ أحمر. وعلى الثّانية، الّتي هي واحدة من سلسلة من صور بالأبيض والأسود هذه المرّة، بدت بصدرٍ مُرتفع وهيئة شعر دالّة على عدم اكتراثها بشيء. قال نيك «لا ينبغي إطلاع أحدًا على هذه الصّور، لا ينبغي عليك نشرها في أيّ صحيفةٍ مهما كانتْ، لا ينبغي وضعها على أيّ غلافٍ من أغلفة تلك الكُتب اللّعينة الّتي تُعنى بالفنّ. هذه الصّور صورنا نحنُ، لا ينبغي لأحد آخر أن يعلم بمجرّد وجودها». كانا قد مارسا الحبّ قبل أن يلتقط لها نيك هذه الصّور ثمّ فعلًا الأمر نفسه بعد التقاطها.

في غمرة هذه الأيّام الّتي عاشتها فريدَا مُتخلّصةً من كلّ الهموم، عادت مشاكلها الصحيّة لتطفو على السّطح. فجأةً، برزتْ ثالولاتٌ هائلةٌ في باطن قدميْها على مستوى نقاط الارتكاز منعتها من المشي ومعها أوجاعٌ في عمودها الفقري. انعزلتْ في غرفتها بنزل «باربيزون»، سئمت من قضاء لياليها البيضاء في قراءة روايات بوليسيّة، استغلّت ذلك في الاستجابة لطلب «كلير بوث لوس»

رئيسة تحرير مجلّة «فانيتي فير» الّتي تريد أن تهديَ لأمّ فتاةٍ تُدعى «دروثي هايل» الّتي انتحرتْ منذ فترة قصيرة. فمضتْ في رسم الانتحار ذاته، دماءٌ غزيرةٌ وجسدٌ طائرٌ في الهواء قبل أنْ يتحطّم على الأرض. أصابها التّعبُ في غضون وقتٍ قصيرٍ لذلك تخلّت عن اللّوحة على أمل أن تعود لإنهائها لاحقًا. شرعت في رسم لوحة أخرى، لوحة بمحتوى أخفّ ما يمكن، بورتريه لإحدى القردة رسمت حوْلَ رقبته شريطًا أحمر دمويّا أوصلته إلى قرد آخر على شاكلة وريدٍ. لم يفهم نيك لماذا ينبعث كلّ ذلك اليأس من هذه اللّوحة. «لأنّه ثمّة نهاية لكلّ الأشياء يا عزيزي»، أجابت فريدا.

بعد بضعة أيّام، انتهتْ فريدا بالخضوع لتوسّلات نيك، فذهبت لاستشارة بعض أخصّائيّي العظام والأعصاب والجلدة، ثمّ ظلّت تتلقّى علاجاتٍ إلى أن تمكّن الدكتور «دافيد غلوسكر» من مداواة القرحة الّتي كانت تُزعجها كثيرًا. لكنّ مدّة خضوعها انتهتْ. «أنا بأفضل حالٍ، لقد ثقبوا جسدي أربع مرّاتٍ، قالت لنيك، لم أعد أحتمل».

كانت غرفتها بنزل «باربيزون» تُطلّ على حديقة صغيرةٍ أين أشجار القيقب ذات الأوراق الحمراء المتمايلة في لطفٍ. وكانتْ حديقة الحيوانات التّابعة للسنترال بارك غير بعيدة، لذلك كانتْ من أحيانٍ إلى أخرى تسمع زئير الأسود والنّمور وترى الدّببة يقفون على أرجلهم الخلفيّة بغية التقاط بعض الأطعمة الّتي يلقيها الأطفال. ضمّ نيك فريدا إليه:

- كلّ الحياة لنا، نحن اللّذان لا نُقهر!

- يا لها من حياةٍ قذرة، يا أخي، لكنّنا نبالغُ في العبث.

- نحنُ بصدد تلقّي الدّروس رغم عبثنا، أليْسَ كذلك؟

كانت هدوء نيك مختلفًا تمامًا عمّا تعيشه من جيشانٍ في المكسيك مع دييغو، ذلك الجيشان الّذي عادةً ما ينجح في إرباكها.

- لكنّ المآسي تنتهي دائمًا بأنْ تقع على رؤوسنا على شكل مياه جارفةٍ.
- لكنّك صلبةٌ يا حبيبتي.
- أحيانًا أرغبُ في التّخلّي عن كلّ شيء.
- لا أحبّ أن أراك حزينة.
- ولا أنا، أجابت فريدا. هيّا، لنشرب الويسكي وضعْ لنا موسيقى الجاز.

شُفِيَتْ فريدا بفضل الأدوية وحضور نيك الإيجابي. كان شفاؤها يعني أنّ باستطاعتها العودة للتسكّع في شوارع نيويورك. في تلك الفترة، تلقّت تأكيدًا من بروتون على دعوتها إلى باريس أين ينوي أن ينظّم معرضًا يتناول أعمالها وأين يمكنه أخيرًا أن يقدّمها للنّقاد الباريسيّين المُتقاربين مع الحركة السّرياليّة، بمعنى أنّه سيقدّمها للعالم بأسره...

تردّدتْ في بادئ الأمر. قال لها نيك إنّها لا يتوجّب عليها التّفريط في فرصةٍ بذلك الحجم حتّى إن تسبّب رحيلها في انقباض قلبه. خصوصًا وأنّها لا تكفّ عن تبرّمها من الأمريكيّين الّذين ما هم سوى «حفنة من الأغبياء» المسجونين في «منازلهم الشّبيهة بأفران الخبز» وفي «رفاهيّتهم الحمقاء الّتي لم تكن في حقيقة الأمر سوى خرافة». أمّا دييغو فقد كتب لها رسالةً يتوسّل فيها بأن تسافر إلى باريس. «لا تكوني حمقاء، كتب لها، لا تُفرّطي في فرصة الذّهاب إلى باريس، افعلي ذلك من أجلي». ووقّع باسم: «ضفدعك رقم 1». لكنّ ضفدعها رقم 1، لم يقل لها إنّه في الحقيقة يحثّها على الذّهاب إلى باريس ليعاقبها على علاقتها مع تروتسكي. فهو يعلم أنّها تشتاق إلى المكسيك، وأنّها ستشتاق إليها أكثر بذهابها إلى باريس. ثمّ إنّ دييغو كان قد دخل غمار مغامرة جديدة لذلك أراد أنْ ينعم بمزيد من الحريّة، كما هو يخطّط للعودة لمضاجعة كريستينا من وقت إلى آخر. من بين دييغو وفريدا، هو دييغو دائمًا الّذي يُتقن إيلامها.

في أيّام يناير الأولى سنة 1939، ركبت فريدا متوجّهةً إلى ميناء لوهافر. في تلك المرحلة بالذّات، لم يمضِ على توقيع إدوار دالاديه ونيفيل تشامبرلين لمعاهدة ميونيخ سوى فترة قصيرة. وكانت الحرب الأهليّة الإسبانيّة تُشارف على نهايتها، ثمّة إذن هدوءٌ مخادعٌ يخيّم على كلّ أوروبّا. مخادع لأنّ القوات الألمانيّة ستغزو بولندا خلال ثمانية أشهر لا غير.

31

تقطن جاكلين لامبا وأندريه بروتون شقّةً بباريس تقع على مقربة من «البلاس بلانش»، العمارة رقم 42 من شارع «فونتين» في الواجهة الخلفيّة لكباريه «السّماء والجحيم». وهو أوّل ما رأته فريدا في نزولها من السيّارة: الكباريه الّذي يحمل اسمًا مُنذرًا بأيّامٍ سيّئةٍ. سرعان ما اكتشفتْ أنّها مضطرّةٌ لمُقاسَمَةِ غُرْفةٍ ضئيلةٍ مع الطّفلة «أوب» الّتي لم تكن مُزعجةً لكنّها وهي بعد في الرّابعة من عمرها لا تكفّ عن الثّرثرة والقفز مثل جندبٍ صغيرٍ. ثمّ إنّ وضع امرأةٍ عاجزة على إنجاب الأطفال جنبًا إلى جنبٍ مع طفلةٍ صغيرة من تلك الأشياء الّتي لا يمكن أن تكونَ لطيفةً.

الأيّام الّتي تعاقبتْ بعد وصولها إلى باريس كانتْ مليئة بتفاصيل كافية كيْ تعيش متوتّرةً. فالزّوجان بروتون كانا يعيشان حياةً بوهيميّةً، لا يكترثان للقذارة الّتي تنتشر من حولهما، كما كانت لديهما علاقة غريبةً بالأكل، إذ يمكنها تناول أيّ شيء ساعة يشاءان. في الحقيقة، أنّ كلّ تلك التّفاصيل ما كانت لتُزْعِجَها لو كان مشروع معرضها يسير بشكلٍ صحيح. الأمر الّذي لم يكن كذلك. إذ ما تزالُ لوحات فريدَا عالقة في مصلحة الجمارك، لأنّ بروتون لم يكلّف نفسَهُ عناء الذّهاب بنفسه لحسم الإشكاليّة، أمّا المعرض الّذي من المفترض أنْ يستقبل لوحاتها فقد فهمت فريدا مؤخّرًا بأنّه بلا وجود أصلًا. لقد «كاهن السّرياليّة»، ذلك الّذي يدّعي أمام الجميع بأنّه يعتمد في حياته على «الصّدق والشّفّافيّة»، كان في الحقيقة كاذبًا.

لم تكن فريدَا تعرف من الحركة الثقافيّة الباريسيّة سوى بعض الأعمال أو

الشّذرات المكتوبة هنا وهناك أو بعض الأقاويل من هذا وذاك، أو ما جاء على لسان بروتون، لذلك عندما التقتْ ببعض ممثّلي هذه الحركة خابتْ انتظاراتُها. التقت بالشّعراء روبير ديسنوس ولويس أراغون وبول إيلوار وآخرين عديدين، على أمل أن تُصبح صديقةً لأحدهم، لكنّها سرعان ما تدرك أنّ أولئك الرّجال لم يكونوا إلّا قطعًا من الجليد الصّلب، حتّى أنّها أطلقت عليهم اسم «الخُروء العظيمة». كانت طبعًا لا تتردّد في اتّباعهم إلى المقاهي الخاصّة بالفنّانين والكابريهات إلى حيثُ كانوا يلجؤون للاستماع لموسيقى الجاز أو للرّقص أو بالأحرى لمشاهدتهم وهم يرقصون في العلب الليّليّة الّتي كانت موضة تلك الأيّام، لكنّها لم تكنْ تحتملُ محاوراتهم اللّانهائيّة في خصوص الثّورات الّتي لن يشاركوا فيها والشّعارات الّتي لن يتمكّنوا يومًا من العمل بها وفي خصوص كلّ النّظريّات الّتي لن يطبّقوها. كانوا لا يفعلون سوى وضع مؤخّراتهم في المقاهي المُعتمة ليتحدّثوا حول الفنّ معتقدين بأنّهم آلهةٌ على هذا العالم موجّهين سخطهم للمتبقّي من الجنس البشريّ، دون أن ننسى طبعا استغراقهم لساعاتٍ وساعاتٍ في تحرير تلك المنشورات الفخمة. اللّعنة! لماذا جاءت إلى هذه المدينة الخراء! السّرياليّان الوحيدان اللّذان وجدتها جديريْن باحترامها كانَا الرسّام ماكس ارنست البارع في فنّ الكُولّاج ومارسيل دوشامب الّذي عاشتْ معه مغامرةً دامت ليلةً والّذي وعدها بأنْ يجد لها معرضًا في حال فشل بروتون.

في وسط كلّ هذه القتامة، وكلّ هؤلاء النّاس المزيّفين الّذين يعيشون ملء «اللّاواقع»، كانت هناك جاكلين المُضيئة والرّاقصة بجسدها الممشوق. لقد كانت الوحيدة الّتي تفهمها. برفقتها، كانت تتسكّعُ في ساحة «الفُوجْ» وعلى أرصفة نهر السّين، وبرفقتها كانت تذهب إلى كنيسة نوتردام حيثُ تُشعل بعض الشّموع مفكّرة في كلّ الّذين أحبتهم بمن فيهم دييغو وتروتسكي. رافقتها لمشاهدة «أوبرا الكانْسُو» من أين نقلتْ بلغته الألمانيّة المُتواضعة بعض الأبيات: «للقرش أنيابٌ/ تنبتُ في وجهه، ولماكي سكّينٌ/ لكنّ السّكّين لا يراه». تاهتْ معها في الممرّات

الضيّقة لسوق الخردوات في «سانتْ-أوين، أين عثرتْ على دميةٍ ذات عينيْنِ زرقاويْنِ وروب عروس -«هذه لتعويض دميةٍ مشابهةٍ كُسرتْ لمّا كنتُ طفلةً، هل تفهمين يا جاكلين؟»- هي الدّمية ذاتها الّتي سترسمها ذات يوم مُحاطة بفواكه شوكيّةٍ في لوحة ستطلق عليها اسم «العروس الفزعة من بدء حياتها». معها تاهت ليلًا نهارًا في الشّوارع والسّاحات، وذهبتْ لقضاء فترة استجمام في بلدة «شارتر» وفي القصور المتاخمة لنهر «لوار»، معها أيضًا قضتْ أوقاتًا طويلةً في قاعات متحف اللّوفر. ذات صباحٍ وهي تتهيّأ للذّهاب لتلتقي بدوشامب الّذي ما يزالُ يبحث عن معرضٍ لها، كتبتْ لجاكلين بضع كلمات: «أشتهي أن تلامسك شمسي. أنْ تخلعي تنانيري ذات الشّراشف وبلوزتي القديمة الّتي أضعها دائمًا، وأساوري».

عندما عادت في المساء، وجدتْ جاكلين بمفردها في المنزل.

- ذهبتْ أوب للنّوم عند إحدى الصّديقات، قالت جاكلين.

- وبروتون سافر إلى بوخارست أجابت فريدا.

قضيتا ثلاث أيّام من السّعادة في ممارسة الحبّ وشربْ كلّ قوارير الكونياك، «المشروب الملائكيّ»، الّذي لم تكتشفه فريدا إلّا خلال تلك الفرصة.

- عنّي أنا، لقد رغبتُ فيك منذ أوّل مرّة رأيتك فيها، قالت فريدا. منذ وصولك إلى مكسيكو. منذ أن عتّبتِ حديقة المنزل. وأنت، قولي لي، متى شعرتِ بذلك.

- في مكسيكو، مثلك تمامًا. ثمّ تناسيْتُ الأمر ثمّ جاءتْ الأمسية مع أراغون.

- أمسية مع أراغون؟

- هذه لعبة الحقيقة...

ابتسمت فريدا. كانت تلك لعبة بروتون المفضّلة، خلالها لم يكن يقبل أيّ حاجز ولا أيّ مزحةٍ. الّذي كان يرفض الإجابة عن أيّ سؤال يتحمّل ما لا

يُحمد عقباه كأنْ يمشي على أربع في إحدى الغرف وهو معصوب العينينِ وأن يخمّن الّذي يقبّله أو يداعبه. في تلك اللّيلة، رفضت فريدا أنْ تفصح عن عمرها الحقيقيّ. رفضتْ ذلك رغم أوامر بروتون المُلحّة. لذلك كان من يقرّر العقوبة. «أن تمارس الحبّ مع تلك الأريكة» قال مشيرًا إلى أريكة محدّدة، ثمّ أضاف: «أريكة تملك عضوًا أنثويًا!».

- عندها، تمدّدتِ أرضًا ورحتِ تُداعبين أرجل الأريكة كما لو أنّها كانت سيقانًا مفتوحةً، ثمّ صعدت قوقها كما لو أنّها تملك عضوًا وتظاهرتِ بكشْفِهِ، بعد ذلك أمسكتِ بذراعي الأريكة كما تمسكين بيديْكِ مؤخّرةً جميلةً... يا إلهي، كم أثارت حركاتك تلك جنوني إلى حدّ أنّي أصبتُ بالخرس التامّ!

- تعالَيْ، قالت فريدا ثمّ راحت تقبّل جاكلين عميقًا. نعم، كانت تلك أيّامًا ولياليَ أنستها كلّ ما عاشته من ملل باريسيّ مع أولئك المثقّفين الّذين كانوا يزيدون في خيبتها كلّ يومٍ.

ذات ليلة، وهما تتلاصقان عاريتيْنِ، تدخّنان سيجارتي ما بعد المضاجعة، لمحت جاكلين رسالةً باسم فريدا موضوعةً في مكانها منذ ما يزيد عن الأسبوع. كانت الرّسالة آتيةً من مكسيكو.

- ألست متشوّقةً لقراءتها؟ هل تخافين من أن تجدي فيها أخبارًا سيّئة؟

- لا، إنّها من ليون. افتحيها إن أردت. وأقرئيها عليّ.

- قد يكونُ بها شأنٌ يخصّكما لوحدكما.

- كففنا على المضاجعة منذ زمنٍ طويل، هيّا اقرئيها، ستموتين من فرط ما ستثيره فيك من رغبةٍ.

كتب تروتسكي لفريدا يترجّاها أن تتدخّل لصالحه لدى دييغو الّذي استقال من الأمميّة الرّابعة بحجّة أنّه فرض عليه بتوخّي كلّ الدّيبلوماسيّة اللّازمة بألّا

يقبل أيّ منصبٍ بيروقراطيّ لأنّه لن يستطيع مجاراته بأيّ شكلٍ من الأشكال. فما كان من الضّفدع سوى أنْ أطبق الباب في وجهه. «لم يعد يجمعني بدييغو أيّ توافق فكريّ. لقد كانت ضربةً قاصمةً لمنظمتنا، لكنّ دييغو، في أيّ منظمةٍ سوف يجد كلّ التّعاطف والتّفاهم الّذي حُظِيَ بهما بوصفه فنّانًا وثوريّا وإنسانًا- كتب تروتسكي مُحتتما، إنّي أتوسّل إليك يا صديقتي المُخلصة، ساعديني».

- ماذا ستفعلين؟ سألت جاكلين.

- لا شيء. هذا شأنهما لوحدهما. لديّ مشاغلي أنا أيضًا.

- ماذا تعنين؟

- لم أعد قادرةً على البقاء هنا. لم يعد هذا ممكنًا. الصّغيرة، أندريه، المعرض الّذي يأبى أن يُقام، آلامي الّتي عادتْ. أحتاج الاختلاء بنفسي.

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- إلى النّزل.

- هناك مئات النّزل في باريس، وهي إمّا مكلفة أو سيّئة السّمعة.

- لقد حسم مارسيل الأمر. وجد لي غرفةً في نزل «الرّيجينا»، بساحة الهرم.

- لا الهرم، بل الأهرام. أيّ مارسيل؟ مارسيل دوشامب؟

- نعم، مارسيل دوشامب! هل تعرفين مارسيلًا آخر، أنت؟

32

تمّ افتتاح نُزل ريجينا سنة 1900 بمناسبة معرض باريس الدّولي. من نوافذ ذلك النّزل، كان يمكن لفريدا مشاهدة حدائق اللّوفر. هو النّزل الفخم الّذي أتاح لها تركيز حاملها الخشبيّ لإنهاء لوحتها «انتحار دوروثي هايل»، غير أنّها لم تتمكّن من العمل على تلك اللّوحة سوى أيّامٍ معدودةٍ. في الواقع أنّ التهابًا ناتجًا عن البكتيريا القولونيّة على مستوى كليتيْها تسبّب لها في آلامٍ شديدةٍ. ولعجزها عن المشي، احتاجتْ إلى سيّارة إسعاف نقلتها إلى المستشفى الأمريكيّ أين تمّ وضعها في قسم الحالات الاستعجاليّةِ. تجاوزت مرحلة الخطر بسرعةٍ ثمّ عادتْ إلى غرفتها بالنّزل.

مرّت الأيّامُ رتيبةً وقاتلةً. ممدّدةً على فراشها، كتبتْ لجاكلين بما أنّ رؤيتها كانت مستحيلة. اعترفتْ لها أنّ الحبّ يمثّل ركيزة حياتها الأساسيّة وأنّ على هذا الحبّ أن يبقى ما بقيَتْ الرّغبةُ، وأنّ هذا الشّعور في هذه اللّحظات موجّه برمّته إليها دون غيرها. اعترفت لها أيضًا أنّها أحيانًا تُفكّر في إنهاء العلاقة بمجرّد أن تبدأ. فهي شديدة الغيرة والتّملّك، وأنّها تفضّل النّساء عندما تمارس الحبّ مع إحداهنّ وتفضّل الرّجال عندما تمارسُ الحبّ مع أحدهم. بعثتْ بعدة رسائل لنيك قالت له فيها إنّها تحبّه وسعيدة بفكرة حبّه وبفكرة إمكانيّة رؤيته وبفكرة انتظاره. في إحدى اللّيالي والألم يمزّق أحشاءها، فكّرتْ مُطوّلًا في المقترح الّذي عرضه عليها نيك، أنْ تذهب للعيش معه في نيويورك. ظلّت للحظات مُقتنعةً بأنّها لم تبقَ على قيد الحياة إلّا بفضل تلك الفكرة الوحيدة.

كان الضّوء الوحيد خلال أيّامها المعتمة في نزل ريجينا متأتّيا من ماري راينولدز

زوجة مارسيل دوشامب الّتي كانت تزورها كيْ تقضي معها كلّ الأمسيات. كانت تنتظر قدومها كلّ يومٍ وتُصاب بالحزن حينما يحين وقت رحيلها. كانت شابّةً أمريكيّةً ودودةً ومليئةً بالحياة، وكانت تتحدّث بلغة أمريكيّة جنوبيّة ولا شيء يجمعها «بعُصبة التّفّه المتعفّنين الّذين يلعقون حذاء بروتون»، ذلك ما كانت تقوله فريدا لتضحك ماري. الظّاهر أنّ تفكيرها لمْ يكن بعيدًا عن تفكير فريدا الّتي لم تكن تشعر بأيّ ميل جنسيّ تُجاهها مع أنّها تمنّت لو كانت مسكونةً برغبةٍ في مضاجعة ماري اللّعوبة هذه على السّرير الكبير والنّاعم في غرفتها في نزل ريجينا.

شيئًا فشيئًا انتهى المرضُ بأن اختفى.

- ليومين اثنيْن، لم أتمكّن من التّبوّل قالت لماري، شارفتُ على الانفجار! يا للقرف!

وبما أنّ لا سعادة تأتي دون أن تجلب معها سعادات أخرى فإنّ مارسيل دخل عليهما الغرفة ذات يومٍ ليعلمهما أنّه عثر على معرض أخيرًا.

- معرض بيير كول. وهو على ملك بائع لوحات سلفادور دالي.
- أيّ يوم؟
- ابتداء من 10 مارس وطيلة خمسة عشر يومًا.
- الشّمبانيا للجميع إذن. هتفت ماري وهي تضغط على زرٍّ لتدعو النّادل الّذي سرعان ما قدم حاملًا قارورة ماغنوم مغروسة في سطلٍ مليء بالثّلج.

في غبطة فرحها بالشّفاء قبلتْ فريدا دعوة ماري ومارسيل لقضاء الفترة المتبقّية من إقامتها بباريس معهما في شقّتهما في مونبارناس.

عاشتْ بعد ذلك أيّامًا سعيدةً ومريحةً. التقتْ جاكلين عديد المرّات في منزلها وفي منزل دوشامب عندما يكون الزّوجان غائبيْنِ. عاشتْ علاقة دامت يوميْن مع مناضل تروتسكيّ جاءها محمّلًا بوثائق تهمّ أعضاء الأمميّة الرّابعة المكسيكيّين.

كانت طريقته في ممارسة الحبّ غريبةً وجديدةً عليها، الأمر الّذي جعلها تعيشُ متعةً حقيقيّةً. كانت كمن عادتْ إليها الحياةُ. كتبت لتروتسكي تخبره كمْ تمنّت أن تتجوّل معه في شوارع باريس دون الخوض في خلافاته مع دييغو.

قبل أيّام قليلةٍ من افتتاح المعرض، قدم بيير كُولْ لزيارتها. كان دوشامب وماري حاضريْنِ معها لدعمها ممّا جعلها تشعر بالاطمئنان. كان كُولْ مرفوقا بشريك صعب المراس: إمّا أن تقبل بشروطهما أو تعود من حيث أتت ومعها لوحاتها.

- هناك لوحاتٌ، كما يمكن أن تتوقّعي ذلك، هناك لوحاتٌ صادمةٌ لجمهورنا...
- لكن، أليْست الصّدمة عنصرًا من العناصر الأساسيّة الّتي تقوم عليه السّرياليّة؟ سألت فريدا.
- نعم، بشكلٍ من الأشكال، لكنّ الصّدمة السّرياليّة تبقى صدمةً...
- مؤسّساتيّة، أجابت فريدا. لكنّها صدمةٌ لا تؤذي أحدًا. إنّها عاصفةٌ في كأس!
- لا، لا يمكننا الاكتفاء بقول ذلك. أجاب شريك بيير كول، وهو معروف بنفسه الثّوريّ في صلب الغرفة الفنيّة، ويُدعى موريس رينو.
- أيّها الوغد، ابن القحبة، كلمةٌ أخرى وسوف ألتهم خصيتيْكَ! سرياليّ يرى أن لوحاتي كثيرة «الإزعاج»، هل أنا أحلم!

تمكّن دوشامب من إنقاذ الموقف. كان يعرف مُسبقًا أنّ فريدا ستقيم معرضها وأنّها مهما كانت الظّروف ستعرف نجاحًا منقطع النّظير، سيتراوح المعرض بين الفضيحة والتّقدير:

- أيّها السّيدان، ها إنّ فريدا أمامكما بكلّ سحرها: مستفزّة وفظّة ولاذعة إنّها السّرياليّة المتجسّدة!

انخفضت حدّة التّوتّر الّتي ملأت الغرفة على الفور. لم تنطق فريدا بكلمة وغادر الرّجلان مثل كاتبيْ عدل سعيديْنِ بنجاحهما في إحدى الصّفقات. ظلّت فريدا تردّد في نفسها: «كلّ ما أريده الآن هو أن أشفى تماما وأنْ أقيم هذا المعرض اللّعين ثمّ أغادر دون رجعة».

33

وفريدا تكتشف المعرض شيئًا فشيئًا برفقة بيير كول وموريس رينو، استبدّ بها الغضبُ الّذي خبرته جيّدًا: الغضبُ الّذي يُساور كلّ من تعرّض للخداع. فذلك الحقير بروتون حوّل معرض فريدا كاهلو إلى معرض للمكسيك. قد يعتقد الزّائر أنّه بصدد التّوغّل في ممرّات أسواق «شارع روزيه» أين يتزاحمُ اللّصوص. كان ثمّة خليطٌ من الأشياء المُرتّبة ترتيبًا وحده «المُعلّم» قادرٌ على فهم تناغمه، صورٌ فوتوغرافيّةٌ لـ«مانويل ألفاريز برافو»، منحوتاتٌ تعود إلى فترة ما قبل كولومبوس، لوحاتٌ من القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر، وعدّة تفاهات أخرى تنتمي لمجموعة بروتون الشّخصيّة- شمعداناتٌ من الخزف، جماجم من السّكّر، تُحفٌ تقليديّةٌ من الّتي تُباع بأثمانٍ بخسةٍ في الأسواق المكسيكيّة والّتي حوّلها لسبب لا يعلمه أحدٌ إلى أعمالٍ فنيّةٍ وها هنا وجد مكانًا لتلك القرابين الّتي سرقها من كنائس «بويبلا». في وسط كلّ هذه الخردوات السّرياليّة تُعْرضُ لوحات فريدا السبّع عشر- «زهراتٌ في كومةٍ من الرّوث» قالت فريدا في نفسها وهي على أهبة الاستعداد للتّخلّي عن كلّ شيء والتّوجه لركوب أوّل سفينة تتوجّه بها إلى المكسيك.

لكنّ سرعان ما اختفى غضبها وحزنها ببدء الزّائرين بالتّوافد. لم يأت الجميع إلّا من أجلها. تأثّر «فاسيلي كاندينسكي»[1] بلوحاتها إلى درجة أنّه بعد أن ضمّها بين ذراعيه حدّثها عن رسمها والدّموع تملأ عينيْه. قَدِم بيكاسُّو يحمل هديّةً من أجلها، قُرطان طلب منها وضعهما على الفور. قبّلها «خوان ميرو» بحرارةٍ. قدّم

(1) فاسيلي كاندينسكي 1866-1944، رسّام روسي من مؤسسي الفنّ التّجريدي.

لها «بالين» و«تانجوي» كلّ التّهاني. من بين الزوّار، «ارنست ماكس» العظيم، كان من أوائل من جاؤوا لرؤيتها ليقول لها بهدوئه المعتاد: «هذا جيّدٌ، أنت على الطّريق الصّحيح». لكأنّ طائفة السّرياليّين قد ضربتْ موعدًا محدّدًا للقدوم إلى هنا من أجل التّصفيق للمكسيكيّة!

جاء رفاق تروتسكيّون فبدوْا ضائعين بين زمرة البرجوازيّين المُذهّبين وثوّار الصّالونات، من بينهم شابّة نحيفةٌ لها وجهٌ على شكل قلب وأنف صغيرٌ ووجنتان غائرتان، تضع نظّارتيْنِ بلّوريتيْن سميكتيْنِ في محاولةٍ لتعديل ضعف بصرها. لم تكن تبدو من اللّواتي يولين إلى مظهرها أيّ اهتمامٍ، كانت بلا شيء يُميّزها أو يجلب الأنظار إليها. إنّها صديقةٌ أمريكيّة للمسمّاة روبي وايل، من أوائل من اعتنقن الشّيوعيّة، جاءت لتقدّمها لفريدا:

- سيلفيا أغيلوف، أخت روث الّتي عملتْ سكرتيرة لدى ليون دافيدوفيتش في فترة محاكمة 1937، قالت لفريدا الّتي بدت على غير عادتها في غاية التهذيب حتّى أنّها قبّلتها قُبلتيْنِ على خدّيها، لم يكن يهمّها في الحقيقة سوى الرّجل الّذي جاء برفقتها. وهو رجلٌ يكبرها سنّا، له كتفان عريضان وشعرٌ غزير مجعّد وعينان خضراوان وواسعتان وجبينٌ عليه تجاعيد عميقةٌ، كان هناك نوعٌ من السّحر الحقيقيّ المنبعث من خلف بشرته السّمراء.
- جاك مورنارد فانديندرتش، قالت سيلفيا ثمّ أضافتْ مرتبكة: خطيبي.. كان الرّجل يحمل باقةً كبيرّة من الزّهور الّتي جلبها من أجل فريدا.
- لقد كان يتمنّى أن يلتقيَ بكِ، قالت سيلفيا قبل أن تتوجّه صحبة روبي لإنهاء جولتها في المعرض تاركة خطيبها في «عهدة» فريدا.

في البداية، أبدى «جاك مورناند فانديندرتش» بعض الخجل قبل أن يتحوّل إلى ثرثارٍ لا يصمتُ ولا يبرح فريدا الّتي لم تنجح في التّخلّص منه على مدى

كامل الأمسية. حدّثها وهو لا يزالُ مُتشبّثا بباقة الورد عن حياته بشكلٍ لا تنقصه الفوضى، جامعًا بين ما لا يُجمع من المواضيع.

كانت أحاديثه تعجّ بتشنّجاتٍ لا إراديّة، أحاديثُ لم يكن من السّهل عليه العثور على ما يناسبها من كلمات إلى درجة التّلعثم، قال إنّه ابن لأحد الديبلوماسيّين البلجيكيّين، غير أنّه ينفر كلّ ما له علاقة بالسّياسيّة وإنّه يكسب قوته من كتابة مقالات عن الرّياضيّة في مجلّة «هذا المساء»، كما أخبرها أنّه وُلِدَ في طهران وعاش في بروكسيل وأنهى تعليمه في مدرسة «سان إغناس دي لويولا»، وإنّه درس ثلاث سنوات في مدرسة البُولتيكنيك بباريس وإنّه ورث ثروةً كبيرةً تُقدّر بثلاثة ملايين فرنكًا وإنّه كانَ مُتسلّق جبالٍ بارعًا وجامع سيّارات قديمة وراميًا بارعًا أيضًا للرّمح والمطرقة وإنّه شارك في عديد سباقات القوارب الشّراعية وإنّه مغرمٌ بالجراحة الطبيّة حتّى أنّه يستطيع قطع دجاجة مشويّة بدقّة جرّاح ماهر وإنّ أباه مات منذ فترة قصيرة على إثر حادث سير في طرقات «أوستند-بروكسيل» وإنّه يتمتّع بذاكرة بصريّة قويّة وإنّه قضى فترة في سجن بلجيكيا لأنّه رفض أداء الخدمة العسكريّة وإنّه كان متزوّجا من امرأة تُدعى «هنريات فان بروشدتْ» غير أنّهما انتهيا إلى الطّلاق وإنّه الآن ينوي الزّواج من سيلفيا في أقرب وقتٍ ممكنٍ.

وصلت طاقة تحمّل فريدا إلى منتهاها إلى درجة أنّها لمّا عادتْ سيلفيا قبّلتها بأكثر حرارة بما أنّها ستتمكّن أخيرا من أن تسلّمها هذا الكائن المزعج الّذي بدا لها مهووسًا في غاية الخطورة. ألمْ يقل لها من بين ذلك السّيل الكلاميّ الجارف إنّه اضطرّ للبقاء في أوروبّا لأنّه لم يستطع الحصول على تأشيرته الأمريكيّة؟ لماذا ترفض الولايات المتّحدة أن تمكّن ابن ديبلوماسيّ بلجيكيّ من تأشيرة، وهو الّذي يهتمّ بالرّياضة ولا تعنيه المسألة السّياسيّة وهو الّذي يملك ثروةً طائلةً وكافيةً كيْ تجعل منه كائنًا مُستقلّا...؟ هذا دون أخذ بعين الاعتبار الملاحظة الّتي أدلى بها السّريالي البلجيكيّ «جون باتيست بارونيان» المنتمي لعصابة الشّاعر «بول

نوج»، الّذي استغرب أن يدّعي مواطنٌ بلجيكيٌّ بأنّه سكن «طريق الهافر» في بروكسيل في حين أنّ كلّ البروكسيليّين لا يعرفون سوى «طريق الوافَرْ»... لا عليك فذلك البلجيكيّ الّذي يتكلّم الفرنسيّة بلكنةٍ إسبانيّة مُستخدمًا معجمًا مليئا بكلماتٍ «هسبانيّة» ما هو في الحقيقة إلّا كذّابٌ، تماما قالت فريدا مُعترفةً، لكنّ من الرّجل يتضوّع بما يشبه الشّذى الجنسيّ لا تستطيع أمامه صبرًا.

في الأسابيع الموالية، وبالرّغم من أنّ المعرض لم يحقّق النّجاح الماليّ المأمول إلّا أنّ الصّحافة أغرقتها بالمديح. كتبتْ «لا فلاش دي باري» مؤكّدةً على أنّ لوحات مدام فريدا كاهلو «بوّابةٌ مشرعةٌ على اللّانهائيّ والاستمراريّة في الفنّ»، وأشادت مجلّة «الفنون» بأصالة هذا الفنّ القادم من الخارج وبصرامته أمّا صحيفة «مساء باريس» فقد نشرت مقالة كتبها النّاقد الكبير «نيكلوس ديكوينتاي» الّذي أثنى على هذا «الجمال الانفعاليّ» و«الجماليّة الدّراميّة المنبعثة من جسدٍ جريحٍ». ووضعتْ مجلّة «فوغ» يدَ فريدا المشحونة بالخواتم على غلافها، كما ابتكرت المُصمّمة «شيابارياللي» موديلًا أسمته «مدام ريفيرا». أخيرًا، حصل متحف اللّوفر الشّهير على بورتريها صغيرًا من أعمالها وهو الإطار الّذي تبدو فيه فريدا مكلّلةً بضفيرةٍ بينما يتداخلُ شعرها مع شريط أخضر أين غرست ثلاث ورود كبيرة بلون أصفر مذهبّ.

على الرّغم من هذه كلّ الرّدود الّتي أشادتْ بموهبة فريدا إلّا أنّها قرّرت العودة إلى المكسيك بعد توقّفٍ خاطفٍ في نيويورك. كانت تسعى إلى أن تغادر أوروبّا «الكريهة» هذه في أسرع ما يمكن.

يوم 25 مارس، غادرت السّفينة «لافاييت» ميناء «لو هافر». لم يرافقها بروتون بالرّغم من أنّه كتب على فريدا يصفها بـ«أنموذج حقيقيّ للفنّان السّرياليّ، وشخصيّة سحريّة مسكونة بعالم داخليّ تصل شهوانيّته إلى حدود المرض». «دائمًا ما تعامل المرأة بدونيّة، هل تعلمين ذلك؟ أمّا الرّجال فهم الملوك الّذين يسيّرون العالم، هذا المنطق يبلغ أوجه في العالم الثّقافيّ. أن تكون

امرأةٌ رسّامةٌ، تخيّلي! بروتون مثله مثل بقيّة الرّجال، مثله مثل بقيّة السّرياليّين، يغار من نجاحك الباهر». أسرّت لها جاكلين الّتي بقيت إلى جانبها حتّى النّهاية، رافقتها إلى حدود الممرّ المهتزّ تحت خطواتهما على طول الجانب الأسود الكبير لعابرة المحيطات.

عندما دخلت إلى مقصورتها، كانت فريدا منهكة من فرط الجهد والعاطفة الّتي بذلتها طوال أسابيعها الباريسيّة، لذلك نامت: ستلتقي خلال خمس أيّامٍ بنيك.

لم تستيقظ إلّا عندما مضى على اختفاء الشّريط السّاحليّ الفرنسيّ وقت طويل، ظلّت على سريرها وشرعت في الكتابة لجاكلين. ما تزالُ عليها رائحة عطرها وآثار قبلها وكلّ نعومة ملامساتها. قالت لها إنّ لياليها ستطول في غيابها وإنّها ستحتفظ طويلًا بذكرى وجهها بينما كانت تقف على الرّصيف تسمّرُ عينيْها على شبّاك مقصورتها الصّغير. «سأحبّ دائمًا أن تلامسك شمسي»، قالت لها من بعيدٍ. كتبت لها عن جولاتها في «ساحة الفوج»، عن الحلازين المحشوّة والدّمية العروس، وعن تنانيرهما ذات الشّراشف الّتي ينتزعانها باندفاع في أحيان كثيرة، عن أرضيّات الشّوارع الّتي داستها خطواتهما وعن جدائل شعرهما المتداخلة. «جميلتي، إنّك مثل نجمة مسائيّة في وقت لا هو ليلٌ ولا هو نهارٌ، مثل نجمة مسائيّة لا تُرى إلّا في الوقت الفاصل بين النهار واللّيل الّذي يخفيهما كليْهما».

في ليلة وصولها إلى نيويورك، فكّرت في أنّها ستكون قادرة على إنجاز بورتريه لعلاقتها مع جاكلين، وهي طريقة للبقاء معها أكثر. سترسم امرأتيْن عاريتيْن تمامًا، تملك إحداهما بشرة داكنة «هيَ» والأخرى بشرةً فاتحة «جاكلين». ستكونان متعانقتيْنِ في عالمٍ شرّير، في غابة بكر وعلى مقربة من قبرٍ مفتوح. كتبتْ عنوانًا مبدئيًّا للوحة على دفترها الأحمر الصّغير: عاريتان وسط الغابة.

34

أشرقت شمسُ إبريل الباردة عندما رستْ سفينة «لافاييت» على الرّصيف 17. على سطح السّفينة، كانت تقف فريدا الّتي لم تفتح حقائبها على مدى الرّحلة. فجأةً، لمحت نيك وهو يلوّح لها بيده وسط حشد صاخبٍ يتدافع خلف الحواجز. سارعت بعد الانتهاء من الإجراءات الجمركيّة إلى الارتماء في أحضان نيك. إنّها اللّحظة الّتي انتظرتها طويلًا. لكنّ نيك الّذي يساوي عندها السّكينةَ والهدوء، بدا لها غريب الأطوار ومضطربًا ومشغولًا بأمرٍ ما. في التّاكسي الّذي كان ينقلهما إلى منزل صديقتها «باريسّي» أين ستقضي أيّامها قبل الرّكوب إلى المكسيك، كان نيك إمّا صامتًا أو متحدّثًا عن تفاهات الأيّام والصّحّة والرحلات البحريّة الطّويلة. قبيْل وصولها لمنزل صديقتها واجهته فريدا بالسّؤال:

- هل ستبقى معي؟ أم تفضّل أن نلتقي في المساء؟
- لا هذا ولا ذاك.
- هل يزعجك حضور إيلّا.
- لا.
- هل لديْك عمل أو موعد مهمّ؟
- لا.
- هل كففتَ عن حبّ «فريديتاكَ الصّغيرة»؟
- لكن، ليس هذا، أيتها الغبيّة؟
- يا للألغاز! نيك أنا مرهقة. ماذا يحدث؟
- سأتزوّج.

حتّى إن لم يعد أمام فريدا ما يمكن أن تفعله هنا إلّا أنّها لا يمكنها الرّحيل. أعادت استرجاع ذلك المشهد عشرات المرّات دون أن تعثر على إجابة واحدة لأسئلتها الكثيرة. لقد اكتفى نيك بالقول «سأتزوّج»، ثمّ نزل من السيّارة ولم تره من وقتها! بالإضافة إلى ذلك، ها إنّ مشاكلها الصحيّة تنذر بالعودة كما هو شأنها في كلّ مرّة تتأزّم فيها الأمور. إنّها ترغب في أن تكون في المكسيك لكنّ في أيّ حال، وفي أيّ وضعيّةٍ سيكون دييغوُّهَا البدين؟ ثمّة صورٌ التقطها نيك لا تكفّ عن الدّوران داخل رأسها كأنّها تذكّرها بسعادتها الضّائعة، بما في ذلك تلك اللحظة الّتي كانت تداعب طاووسها المفضّل «غارنيزو» في حديقة الكازا أوزل.

تمكّنت من محادثة نيك عبر الهاتف. إنّه يفضّل أن ينهيَ الأمر. من الأفضل ألّا يحدّدا موعدًا للّقاء. فهمت فريدا من كلّ كلامه أنّه يتجنّب رؤيتها مخافة أن يُحيي لقاؤهما حبّهما. عندما أطلعت إيلّا عن محادثاتها مع نيك وعن الشّكوك الّتي تساورها في خصوص هذه القطيعة لم تتردّد صديقتها في الإجابة:

- إنّه يسخر منك. إنّه جبانٌ مثل كلّ الرّجال.
- لستُ متأكّدة ممّا تقولين. إنّه يطرح أسئلةً عديدةً. لا شكّ أنّه لم يتخذ بعد قراره النّهائيَّ.
- ما إن ترحلين، سيبعث لك برسالةٍ جميلةٍ، هكذا يفعل كلّ الرّجال...
- لكن لا. لا تكوني بهذه السلبيّة.
- إنّه يريد أن يضاجعك لكنه لا يريد العيش مع امرأةٍ مشلولةٍ، سيضطرّ للعناية بها ذات يوم. هذا أمرٌ بسيط يسهل فهمه.
- قال لي إنّ شعوره تُجاهي لم يتغيّر وإنّه سيبعث لي بآخر بورتريه التقطه لي، وهو بورتريه بالألوان وهو الآن معروض في مركز لوس أنجلوس للفنون. قال لي أيضا إنّ رسوماتي من الأشياء الّتي تجعله سعيدًا. لستُ متأكّدةً من أنّ كلّ تلك الأشياء قد راحت أدراج الرّياح...

كانت إيلّا في قمّة غضبها في رؤية فريدا وهي تتألّم إلى تلك الدّرجة بسبب تلك القطيعة لكنّها شعرت بالعجز على مواساتها.

- عودي إلى المكسيك، هناك ستكونين بأفضل حالٍ يا فريدا، قالت لها بصوتٍ ناعمٍ إلّا أنّ نبرتها بدتْ أشبه بأمرٍ قاطعٍ.

كان ذلك بمثابة الصّدمة الكهربائيّة بالنّسبة إليها. ففي العمق، ذلك ما تريده فريدا حقّا. أن ترى «الكوينتاس» العظيمة، تلك الشّجرة ذات الثّمار المُدوّرة والصّلبة الصّغيرة على شاكلة خرزاتٍ، والّتي يلتقطها الهنود ليلًا من على الأرصفة لنظم العقود، فيشقّون صمت المدينة بصخبهم. وأن تلتقي بتروتسكي لا بصفته السيّاسيّة ولا بصفته الرّجل الّذي تعوّدتْ على مضاجعته لكن بصفته ذلك الرّجل الّذي يلحّ على مُساعدتها في غسل الأطباق ومسح كلّ طبقٍ وكلّ كأس على حدةٍ مُبالغًا في بُطئه إلى درجة أنّ تلك الممارسة قد تدوم وقتًا أطول ممّا تحتاجه بثلاث مرّاتٍ إلى أنْ يملّ الجميع ويتعبون ويتوتّرون. ذلك ما تحتاجُ الالتقاء به- بعيدًا عن باريس ونيويورك: كويواكان ومنتزه طفولتها «الألمادا» حيثُ تتكاثفُ نباتات الصبّار وأشجار النّخيل وحيثُ يبدو العشب أرجوانيًّا من فرط كثافة خضرته.

35

كان من بين الشّيوعيّين الإسبان الّذين حصلوا على حقّ اللّجوء في المكسيك عملاءٌ منتمون لجهاز المخابرات الرّوسية المتورّطة في قيادة حملة واسعة من الاغتيالات، وقد بدأ هؤلاء العملاء بالتّخطيط الجدّيّ لدخول الولايات المتّحدة. لذلك كان جهاز الشّرطة والجيش في حالة استنفار قصوى، فتراهم يحاصرون كلّ حيّ يشتبهون في وجود بعض أولئك العملاء المتأهّبين لتنفيذ أعمال إرهابيّة. ثمّة من بينهم من ينحدر من كويواكان وسان أنخيل وأكثرهم خطورة الجميلة «تينا مودوتّي» ورفيقها «فيتّوريو فيدالي»، الّذي كان مفوّضًا سياسيًا سنوات الحرب الإسبانيّة والّذي عمد بنفسه إلى إعدام مئات السّجناء المُشتبه في انتمائهم «للطّابور الخامس» هكذا بكلّ برود ودون أن يمتلك أدلّةً حقيقيّةً. كلّ هؤلاء العملاء عادوا إلى مكسيكو. لذلك كان شارع لندن مُغلقًا وكانت فريدا مضطرّة للخروج بالسيّارة حتّى يتعرّفوا عليها وحتّى تتمكّن من طرق باب الكازا أزول دون عقباتٍ.

بدا تروتسكي وحتّى ناتاليا سعيديْن سعادةً حقيقيّة بعودتها. وقد أصبح الآن يمتلكان كلبيْنِ كبيريْنِ «بينّو» و«ستيلّا» رابضيْنِ في بيتيْهما الصّغيرين. ودون الإذعان لأوامر سيّدهما، انطلقا في اتّجاه فريدا كاهلو كأنّهما يريدان منها أن تقرأ لهما حسابًا في المرّات القادمة. إذا كانت الحياة في مكسيكو لم تتغيّر تغيّرًا كبيرًا فإنّ حياة ناتاليا وليون بدتْ كأنّها اتّخذتْ اتّجاهًا آخر مختلفًا. فقد وصلت علاقتهما بدييغو إلى درجةٍ من التّعقيد دفعتهما للتّفكير بجديّة في مغادرة الكازا أزول. في غياب فريدا كما يقولان، تجاوز دييغو كلّ الحدود في حياته الشّخصيّة

كما في حياته الاجتماعيّة وحتّى السّياسيّة. لقد شعر أنّه في حلّ من كلّ الالتزامات في علاقته بضيفيْه، لذلك تخلّى عن كلّ أنشطته السياسيّة واستقال من مجلّة «الكلاف». لذلك أصبح دييغو معزولًا كما لم يكن من قبل: فهو غير المرغوب فيه من قبل اليمين والشيوعيّين والتروتسكيين وحتّى من قبل بعض أعضاء الحكومة الّذين لاحظوا أن ميوله نحو الفظاظة أصبحت مبالغًا فيها خلال الأشهر الأخيرة وبلغت نقطة اللّاعودة. لكنّ تروتسكي طمأن فريدا دون تردّد: ستكون المرحّبة بها دائمًا وسيظلّ الحبّ الذي يكنّه لها كما هو. خلال ذلك المساء، أهدى لها كتابًا كما كان يفعل في فترة حبّهما المجنون وبداخله دسّ ورقة أين كتب باللّغة الإنجليزيّة: «أحبّك، فِريدَايَ القادمة من باريس».

– السيّد ريفيرا غائبٌ من سان أنخيل منذ عدّة أيّام، قال عاملُ دييغو وهو بصدد نقل صناديق جاءت من باريس لداخل المنزل.

كان الأسبوع الّذي قضته فريدا وحيدةً بلا دييغو رائعًا. فقد أعادت اكتشاف مكسيكو الّتي اشتاقت إليها كثير في نيويورك وباريس: مكسيكو حيثُ الكنائس القديمة المليئة بالأشجار والأزهار وبالزّخارف المذهّبة الّتي تصل إلى حدود قبابها، وحيث المسرح الصّغير الشّهير الّذي يعود إلى القرن الثّامن عشر والّذي أصبح اليوم ملجأ لكلّ قطط الحيّ الشّريدة، وحيث الأسواق ومغنّو الشّوارع والمطاعم الصّغيرة أين تُقدّم الأطباق الحارقة وأين تنتهي كلّ الوجبات بالأغاني. وبما أنّها كانت قادرةً على تقسيم وقتها مثلما تريدُ، فقد تمكّنت من إنهاء لوحتها «عاريتيْنِ في الغابة»، فيها غطّت رأس إحدى المرأتيْن بشالٍ أحمر، وأدخلتْ متلصّصًا يظهر من بين كثافة الغابة: سَعْدانٌ عنكبوتيّ في إيحاء للشّهوة الصّرفة.

ثمّة أيّامٌ تمنّتْ لو لم تَعِشْها. منها يوم 9 مايو 1938. ذلك اليوم كان سيّئًا منذ بدايته. ففي الوقت الّذي كانت فريدا تتجوّل ناحية نصب الاستقلال اعترض سبيلها موكبٌ جنائزيّ يتركّب من ثلاث أشخاصٍ كانوا يتقدّمون

بخطى حثيثةٍ. من الواضح أنّها كانت جنازةَ طفلٍ: تابوتٌ صغيرٌ مطليّ بالأبيض، شُدّت إلى غطائه باقة كبيرة من الزّهور البيضاء. كان هناك فتاتان صغيرتان، تتقدّم إحداهما التّابوت بينما تمشي الأخرى خلفه، وكانتا تضعان على رأسيْهما حمليْنِ خفيفيْنِ. ما بين الاثنتيْن، أي مباشرةً تحت التّابوت، كانت ثمّة طفلةٌ صغيرةٌ ثالثة تمشي مرحةً. لقد كانت تلك الجنازة أشبه بسباق غريبٍ ومثيرٍ، وقد زاد مرح الطّفلة من حجم الألم المنبعث من كامل ذلك الموكب. قد يعتقد المتفرّج للحظة أنّ الطّفل المتوفّى قد نزل من تابوته ليلعب لآخر مرّة في السّاحة. السّاحة الّتي لعب فيها على حصانٍ طينيّ منذ وقت قصيرٍ وهو يمتصّ قطعة من الحلوى الحامضة.

عندما عادت فريدا إلى منزلها، ظلّ ذلك المشهد الدّراميّ يدور في رأسها. كانت كمن عادت بالمشهد إلى ورشتها في سان أنخيل ليستمرّ في حدوثه بتفاصيله على مرأى من عينيْها. من فورها، أنجزتْ رسمًا تخطيطيًّا للوحةٍ مُستقبليّةٍ أين كلّلت الشخصيّات الثّلاث بجماجم، وفتحت التّابوت أين تندفع موجةٌ دمويّةٌ نحو الخارج وأين عوّضت ساحة الاستقلال بمنظر طبيعيّ مقمرٍ. جاء الخادم ليقطع عليها العمل. جاءها محمّلًا بحزمة من الرّسائل.

من بين الرسائل الرّسميّة، هناك أخرى أرسل بها المعجبون والمعجباتُ إلى جانب المنشورات والفواتير. على ظرفٍ منها تعرّفتْ على خطّ عزيزها نيك السّميك والواضح. استندت بظهرها إلى الأريكة وقرأت الرّسالة قراءةً أولى ثمّ ثانية فعاشرة، قرأتها عشرين مرّةً مرتعدةً ودامعة العينيْن. لقد كانت صديقتها محقّةً، فَنِيكْ الّذي لمْ يجرؤ على إعلان القطيعة عبر الهاتف ها هو يعلنها كتابيّا. وهي قطيعة نهائيّة لا مجال فيها للتّردّد. أنهى رسالته بقوله إنّهما استمتعا كلاهما بـ«لحظةٍ» «بديعةٍ» وهو «الشّيء الوحيد الّذي له قيمةٌ» وإنّه في كلّ الأحوال «لا يتمنّى لها سوى السّعادة».

- الأحمق! لهذا إذن تزوّجتْ بأخرى! صرختْ معتبرة أنّ صفة «الأحمق» هذه إنّما هي الصّفة الّتي تلائمه.

ثمّ انهارتْ على سريرها بعد أن التهمت عدّة أكواب من الويسكي، هذا الشّراب الّذي لم تكتشفه سوى مع نيك وقد كانا يشربانه دائمًا قبل المضاجعة وبعدها.

- سعادتي... أيّ سعادة!

كان دييغو من أيقظها. عاد لتوّه من غوادلاخارا أين -كما ادّعى- أنجز سلسلة من البورتريهات العارية لنساء هنديّات. كان بإمكان فريدا أن تسأله ما إذا كانت أولئك «الهنديّات» قادماتٍ مباشرة من شيكاغو أو بودابست أو إنّ كنّ مثل اللّواتي قدمن من «كونشا بيلودا»، نادي شارع فرنشيسكو سوزا للعاهرات، لكنّها خيّرت الصّمت. لم يعد لكلّ ذلك أيّ قيمةٍ. قالت في نفسها: «اذهب وألصق قضيبك بمن تريد، أيّها الوغد القذر!»

ظلّ دييغو واقفًا أمامها في حالة من الغضب الشّديد، كان متعرّقًا مثل حصانٍ أنهى سباقه للتّوّ، فائحًا برائحة رجلٍ بذل مجهودًا بدنيًّا كبيرًا.

- هذا المُسمّى ديفيد ألفارو سيكيروس أنجز جداريّة «البرجوازيّ» أسالت كثيرًا من الحبر!

- نحن في سنة 1939، دييغو، على الرسّامين أن يجابهوا شياطينًا كثرًا، الفاشية واحدةٌ من تلك الشّياطين!

- لماذا أنجزها قبلي ذلك المأبون!

- لا يمكنك منعه من أن يرسم ما يريد، رغم كلّ شيء! إلى أين ذهبتْ خطاباتك الرنّانة عن حريّة الإبداع؟ ثمّ إنّ سيكيروس هو عضو من أعضاء الحزب، بإمكانه أن يفعل ما يشاء...

لم يجب دييغو، تناول كأسًا من يد فريدا وسكب جرعةً هائلةً من الويسكي

في داخله. آه، لا شيء يسير على النّحو المطلوب، لقد عادت «تينا مودوتّي» وبدأت عمليّا في نشر الإشاعات في خصوصه. أمّا تروتسكي، «أفترضُ أنّك على بيّنةٍ بكلّ ما حصل بطبيعة الحال... لا شيء في مكانه، لم نعد نتّفق على أيّ شيء. حتّى أنّه يريد مغادرة الكازا أزول!»

وبينما كان دييغو مستمرًّا في ولولته، كانت هيَ تُركّز عينيْها على إناء بلّوريّ موضوعٍ فوق إحدى المدرّجات. يحتوي ذلك الإناء على عقرب مجفّف يميل لونه إلى الأحمر، وهو عقرب ينتمي إلى فصيلة نادرةٍ جدّا لا نجدها إلّا في محافظة «دورانغو»، عقربٌ يمتلك لدغةً قاتلةً في الأغلب. حتّى أنّ جائزة ماليّة رُصدتْ لكلّ من يمسك بواحدة ليسلّمها للإدارة الرّاجعة بالنّظر. اشترى دييغو العقرب من أحد الصبيان الّذين يتاجرون في كلّ شيءٍ ووضعه في هذا الإناء أين انتهى بأن جفّ لتبقى شوكته موجّهةً إلى ما لا نعرف. قالت في نفسها إنّ زواجهما بات شبيهًا بهذا العقرب، زواجٌ جافّ وميّتٌ، لا مكان للحياة فيه.

خرج دييغو من الغرفة أخيرًا وهو يصرخ قائلًا إنّ الأمر نفسه ينسحبُ على وضعيّتهما وإنّ «لا شيء يسير وفق المطلوب وإنّ حكايتهما قد طالت أكثر من اللّازم وإنّهما مطالبان ببدء التّفكير في الطّلاق، نعم، الطّلاق». أجابت فريدا دييغو مغنيّةً له أغنية تروي قصّة امرأة حزنت لمّا علمت بخيانة زوجها لها:

أصدقائي، تعالوا أخبرْكُم
بشيءٍ ستظلّون تذكرونه
الّذي يحبّني، سأعرف كيف أحبّه
الّذي ينساني، سأنساه.

لي كبرياء وكرامةٌ
لن أجثوَ أبدا على ركبتيَّ

telegram @
yasmeenbook

لذلك فإنّ النّعال الّذي ألقيتُ به بعيدًا

لن أذهبَ لالتقاطه مجدّدًا.

ليس ذلك التّهديد بالطّلاق المهين سوى استمرارٍ منطقيّ لتهديداتٍ ماضيةٍ. منذ ثلاث سنواتٍ وديبغو يهدّد بشبح الطّلاق في كلّ مرّةٍ يعمد فيها إلى خيانة فريدا. فكلّما ثبتتْ الخيانة الزّوجيّة عليه إلّا وشعر بالذّنب ولجأ إلى المهاجمة. لكنّ هذه المرّة، بدا تهديده أكثر جديّةً. كذلك أصبح في الآونة الأخيرة، يلجأ في كلّ مناسبةٍ إلى المهاجمة. ذات مساءٍ، وبعد اختفاء تواصل عدّة أسابيع، سمعت فريدا رنين الهاتف، إنّه ديبغو الّذي كان ثملًا:

- استمعي إليّ فريدا، مضى على زواجنا ثلاثة عشر عامًا. ما نزال نحبّ بضعنا البعض بالقوّة نفسها... تعرفين شهيّتي... أحتاج إلى ممارسة الجنس دائمًا... أنت تزدادين.... في النّهاية... أنت تعرفين تمامًا... أجد صعوبةً في الاستمتاع... أصبح الأمرُ معقّدًا... معقّدًا جدًّا... لذلك، كان عليّ البحث عن غيرك و... أريد أن أكون حرًّا في النّهاية، أنْ أعمل وفق ما تمليه عليّ رغبتي مع النّساء اللّواتي أرغبُ فيهنّ، و... بما أنني لا أريد أن أكون سببًا في أيّ ألمٍ يصيبك، فإنّي أريد أن نفترق.

فريدا الّتي ظلّت تُصغي إليه دون أنْ تنبس بحرْفٍ، أجابتْ قبل أنْ تنهيَ المكالمةَ بضرب سمّاعة «الباكليت» على دعامتها:

- نعم، لكن أريد لذلك أن يتمّ حالًا!

كان نيك قد أعلن عن الفراق عبر كتابة رسالةٍ. ولكيْ يُثبت ديبغو شجاعةً مماثلة ها إنّه يعلن عن انفصاله عبر الهاتف. «كم يبدو هؤلاء الرّجال شجعانًا»، قالت في نفسها. في المساء نفسه، كتبتْ لنيك لتقول له ما كانت تودّ قوله لديبغو: «لا تُسعفني الكلماتُ لأعبّر عن مقدار ألمي. وأنت الّذي تعلم كم أحبّ ديبغو، لك أن تفهم أن ألمي لن ينتهيَ إلّا بموتي. لقد تقرّر الأمر، لنفترق. أشعر أنّي

حطامٌ هنا ووحيدةٌ. أشعر أنّ أحدًا لم يعان مثلما أعاني الآن. أتمنّى أن يتغيّر كلّ هذا خلال أشهرٍ. وإنّي أتساءلُ بصراحة، كيف سيتمّ هذا التّغيّر. لكنّه عليه أنْ يحدث.

ألقت نظرةً أخيرة على العقرب قبل أن تذهب للنّوم. ستبعث بالرّسالة في الغد. هي تعرف نيك. كلّ هذه القصّة ستجعله يتألّم هو الآخر. ستنتقم هذه الرّسالة من جُبْنِهِ. أمّا دييغو، فإنّها تعلم كيف تجعله يتعذّب: أنْ تحصل على عشيق جديد وأنْ تجعله يعلم بذلك.

36

«ريكاردو أرياس فيناس»، شابٌّ جمهوريٌّ التقتْ به في مقهى «لا بارّوكيّا» أين كان جالسًا مع ثُلّةٍ من أقرانه يُحاولون إعادة تأسيس إسبانيا جديدةٍ، لأنّ القديمة ضاعتْ منهم إلى الأبد. كان من السّهل عليها أن تُجرجر ذلك العاشق المجنون إلى سريرها أين اكتشفتْ على غير ما توقّعتْ أنّه أقلّ حُمقًا ممّا يبدو عليه في كلّ ما يخصّ الالتزام السّياسيّ. كان شابًّا وسيمًا وطيّبًا وشديد الحرص على حمايتها- الأمر الّذي كان يلائمُ فريدَا تمامًا في تلك الفترة المهتزّة من حياتها.

بينما كان دييغو مُنشغلًا بإعداد مُستندات الطّلاق، كانت هي تسعى للظّهور برفقة ريكاردو في السّاحات العامّة، كانت تُريد أن يُفتضح أمر تلك العلاقة ليعلم بها الجميع، لذلك كانت لا تتردّدُ في العودة متأخّرةً إلى منزلها، مثيرةً عند دخولها كلّ الجلبة الممكنة. وعلى إثر عرضٍ التأمّ في قصر الفُنون الجميلة لـ«كارمن أمايا»، راقصة الفلامنكو الأولى، تجرّأتْ على ارتداء بنطالٍ كيْ تؤدّي رقصاتها، لم يرَ الجُمهور من العرض سوى فريدا. كانت مُثقلةً بالمجوهرات منذ الرّأس إلى القدميْنِ وقد استغلّت تلك المناسبة كيْ تغطّيَ سنّين من أسنانها الأماميّة بتاجيْنِ ذهبيّين مُرصّعين بماس ورديّ، لقد جعلت ملكة الرّقص الشّعبيّ والصّنّاجات تتدنّى إلى مرتبةٍ ثانيةٍ خلال تلك السّهرة. لم ينتبه أحدٌ لدييغو الّذي كان حاضرًا في المناسبة نفسها، في جانبٍ آخر من القاعة، أين كان يتمسّكُ بذراعيْ عشيقته الجديدة، «إيرين بوهوس» رسّامةٌ هنغاريّةٌ في غاية الجمال.

من ناحيته، كان تروتسكي بدوره قد أنجز قطيعتَهُ التّامّةَ مع دييغو. هذا الذّي اقترح عليه رغم مشاحناتهما البقاء في الكازا أزول، إلّا أنّ «العجوز» أجابه

بأنّه لن يقبل ذلك إلّا بشرط أن يَدْفع له إيجارًا قدره مائتي بيزو شهريًّا. رفض دييغو مُعبّرًا عن مبدإٍ شخصيٍّ مُضيفًا أنّ المنزل ينتمي لفريدا، وهيَ وحدها المخوّلة بقبول ذلك من عدمه. أخذ تروتسكي المُتشبّث بكرامته كما يتشبّث بكسائه تلك الإجابة الّتي بدت له ساخرةً على أنّها شكلٌ من أشكال الضّغط الأخلاقيّ بهدف إجباره على المغادرة. مكسورًا، اكترى منزلًا في شارع فيينا غير البعيد لدى عائلةٍ تُعرف باسم «عائلة تُوراتّي». يوم 5 مايو انتقل إلى ذلك المنزل ومعه ناتاليا ومساعدوه وخدمُه وحرّاسُه الشّخصيّون، دون نسيان الكلبين والأرانب والدّجاجات ونباتات الصبّار.

كان منزلًا في حالةٍ سيّئة جدًّا استأجره بثمنٍ مُتواضع لكنّه كان يتكوّن من غرف كثيرةٍ وحديقةٍ. وكان محاطًا بسُورٍ عالٍ وداكنٍ ممّا يُسهّل عمليّة حراسته. كانت هناك أجزاءٌ كثيرةٌ تالفةٌ من أرضيّته. كما كان يفتقر الأثاث لعدّة مكوّناتٍ أساسيّةٍ. لكنّه هُناك، سيتنعّمُ بالحرّيّة أخيرً وسيقْضي أوقاته كيفما شاء في حيٍّ قد يعتبره هادئًا لأنّه يقع على تُخوم كويواكان.

كانت فريدا حاضرةً يوم انتقاله إلى المنزل الجديد، جاءت لاستعادة المفاتيح الّتي أعطتها له يوم قدومه. في الغرفة الّتي أقام فيها تروتسكي مكتبه، ترك البورتريه الذّاتي الّتي أهدته له فريدا مع القلم-الرّيشة الّذي أعطته إيّاه على إثر إفلاتهما إلى سان مارتن ريغلا:

- أخيّر أن أعيدهما إليْكِ، قالَ مرتبكًا.
- في هذا أنت مخطئ تمامًا، أمّا في الباقي فأنت محقّ.
- الباقي؟
- مغادرتك للكازا أزول.
- هل تعرفين، أشعر أنّي أزداد وحدةً يومًا بعد يومٍ، اليوم أتأكّد من أنّ هذه الوحدة لن تنتهي أبدً... عُمري ستّون عامًا... أشعر كأنّني آخر

المقاتلين المتبقّين من فيلقٍ تمّ تدميره على آخره...

- لقد تحوّلتَ إلى رمزٍ يا ليون. إنّك رمزٌ لعقيدةٍ مستقيمةٍ وواضحةٍ، رمزٌ لحقيقةٍ تاريخيّةٍ. أنت رمزٌ لمعركةٍ مّا.
- لهذه الأسباب إذن: أنا مُدانٌ.

على هذه الكلمات افترقا. عادت ناتاليا إلى الغرفة لتحثّ ليون على الإسراع في المغادرة. بالرّغم من أنّ المنزل الجديد قريبٌ جدّا لكنّها تريد لأسباب أمنيّةٍ أن يصلا إليه قبل حلول الظّلام.

بعد مغادرة الفرقة الصّغيرة، وجدتْ فريدا نفسها وحيدةً في منزل طفولتها. قبالة هذا العالم الّذي بصدد الانهيار أمامها، قرّرت بينها وبين نفسها أنْ تتصرّف. ستبدأ بأن تُسدّد ديونها بإنجاز لوحاتٍ للطبيعة الصّامتة الّتي يسهل بيعها دائمًا.

- ذلك ما يحبّذه البرجوازيّون. ثمّ عنّتْ لها فكرةُ لوحةٍ تعبّر فيها عن الحالة النّفسيّة الّتي تعيشها حتّى تتخلّص من هذا «الألم العاهر الّذي لا يكفّ عن العواء في ليلها»، رغم الحبوب المسكّنة وكؤوس الكونياك. لذلك تراءتْ لها لوحةٌ ستحمل اسم «فريداتان»: توأمتان مُلتصقتان تجلسان جنبًا إلى جنبٍ، يربط بينهما الشّريان نفسه، تمسكان بيديْ بعضهما البعض، لكنّهما مختلفتان، تعيش كلّ واحدة منهما حياتها. في الحقيقة ما هما سوى امرأةٍ واحدةٍ مشطورةٍ إلى نصفيْن. صورة مقتضبةٌ لوجودها. امرأةٌ ممزّقةٌ. مثل ذبيحة بين يديْ جزّار، قَسَمها إلى نصفيْن بعد ضربةٍ قويّةٍ من ساطوره.

37

بالرّغم من أنّ باب التّواصل كان موصدًا بالكامل بيْنَ المُتجاوريْنِ، إلّا أنّ الحياةَ في منزل سان أنخيل غدتْ مُستحيلةً... انتهتْ جملةٌ من الأحداث بأنْ حوّلَتْ حياة دييغو وفريدا إلى جحيمٍ حقيقيٍّ. على الأقلّ من ناحية فريدا كاهلو الّتي لم تعد قادرةً على التّحمّل. ذات يومٍ، أخذ دييغو «السّنْيُور زولوتل» كلبَ فريدا المُفضّلَ إلى منزل واحدةٍ من عشيقاته، حتّى تستخدمه في إخصاب كلبتها. «ليكتفِ بمضاجعة عاهرته الغبيّة المخفيّة خلف ماكيّاجها، لِيَكُنْ! لكن أن يذهب إليها حاملًا مُكوّنًا في حميميّة كلبي «السِّنْيُور زولوتل»، هذا كثيرٌ، اللّعنة!»، بعد أسبوعٍ من تلك الحادثة، قدمتْ إليها امرأةٌ تُدعى «مَارِيًّا» لتعلن لها أنّها ستتزوّج بدييغو. «عليْكِ أن تنتظري حتّى نُنهيَ إجراءات الطّلاق على الأقلّ، أيّتها الغبيّة»، زعقتْ فريدا بقولها ثمّ سارعتْ إلى الاتّصال بالصّحُفِ عازمةً على فَضْحِ أمر هذه العلاقة «غير المشروعة». رغم كلّ التّغييرات، ظلّتْ المكسيكُ غير ليبراليّةٍ في أخلاقيّاتها، لذلك فقد أحدث الخبر ضجّةً كبيرةً، وسُرعان ما أبدى الجميع تعاطفهم مع الزّوجة المغدورة وأُدِينَ العشيقين المُذنبيْن. من الغد، أعلنتْ «بوليت غودار» الممثّلة وخاطفة الرّجال عبر الصّحافة بأنّها ستستأجرُ شقّةً في فندق سان أنخيل الفاخر الّذي يقع في الجهة المقابلة لورشة دييغو حتّى «يتمكّن ذلك الرسّامُ العملاق من إنجاز بورتريه لها وهي مستعدّةٌ للموت اختناقًا بين ذراعيه لو طلب منها ذلك، المُهِمُّ أن ينجز ذلك البورتريه في كنف من السّكينة والهدوء». لا، هذا كثير! لذلك قرّرت فريدا مغادرة المنزل على الفور. في غضون أيّام معدودة وبمساعدةٍ حثيثةٍ من الأصدقاء بمن فيهم ريكاردو عادتْ

لتستقرّ في الكازا أزول مع سرب قردتها السّوداء الصّغيرة وكلابها عديمة الفرو ومعها «السِّنْيُور زولوتل» بعد أن نجحت في استعادته.

كأنّ حياةً جديدةً انفتحتْ أمامها بكلّ بَهَائِها. كانتْ سعيدةً بذلك إلى حدّ مّا، ممّا يعني أنّها سعيدةٌ رغم رِجْلها وعمودها الفقري اللّذيْنِ كانا ينغّصان عليها أيّامها أحيانًا. في العُمق، كانت قادرةً على فعل كلّ ما تريد: الرّسم، الشُّرْب بطبيعة الحال، ممارسة الحبّ، قضاء ساعات من التّجوال في الحديقة، الطبخ، القراءة، الحلم، اللّعب مع حيواناتها.

في نهاية شهر أغسطس، قرّرتْ زيارة ليون. قرارها السّابق كان أن تعيد طلاء الجدران بـ«لون الدّم ولون أعماق البحار»، قال لها «هاريسون وليام شيفيرد»، صديقُهَا الشّابّ الأمريكيُّ الّذي كان يريد أن يُطلعها على قصّة حياته لكنّه عَدَل عن مشروعه هذا بعد أن تبيّن له أنّه لم يكن أكثر من عشيقٍ عابرٍ.

كان المنزل الجديد واقعًا على تخوم كويواكان، هناك أين يتحوّل الشّارعُ فجأةً إلى ممرّ صخريّ كثير الغُبار مُحاطٍ من ناحيتيْه بأكواخٍ بائسةٍ يسكنها المزارعون. كان عبارةٍ عن منزلٍ ريفيّ يعود بناؤه إلى القرن الماضي وله شكلُ الحرف اللّاتينيّ T. كان مُحاطًا بسورٍ إسمنتيّ سميكٍ، رُكّزتْ في أعلاه أسلاكٌ مكهربةٌ وعلى جانبيْهِ بُرجان مُدبّبان. كانتْ لبوّابته المُصفّحة لونُ الرّصاص. البوابة والجدران الصّارمة والبُرجان المُخِيفان المُجهّزان بمدافع رشّاشةٍ أشياءٌ أعطتْ للبناية مظهر إحدى القلاع المُحصّنة. للدّخول إلى المنزل احتاجتْ فريدا إلى تجاوز حاجزٍ مصنوعٍ من أكياس الرّمل، وقطْعِ إشارات الإنذار ثم المُرور من أمام خمسة أعوان شُرطة، ليرافقها أخيرًا واحدٌ من أولئك التّروتسكيين المسلّحين إلى داخل المنزل.

استقبلها تروتسكي بتحمّس وحفاوةٍ، سَعِدَ كثيرًا بأن يُطلعها على مكوّنات المنزل وبأنْ يجعلها تلمسُ بنفسها الأمانَ والحمايةَ الّتي أصبح يتمتّع بهما. غرق

في مدح البناية بطرازها المكسيكيّ القديم، بجدرانها المُشيّدة بالطّوب والجصّ، بصلابتها الّتي تكفي لمقاومة طلقاتٍ مُتواترةٍ من أيّ مدفع رشّاشٍ. فسّر لها أنّه اختار وناتاليا ما يُشبه الجناح الخلفيّ «لمزيد من الأمن». يتكوّن الجناحُ من ثلاث غُرفٍ ومكتبة ومطبخ وحمام وغرفة طعام كانا يقتسمانها مع الحرّاس المقيمين في جهة السّور اليُسرى.

- سجن رائعٌ، أليس كذلك؟ لم تكفّ فريدا عن تكرار قولها هذا بنبرةٍ تختلط فيها السّخريّة بالحزن. لكنّ هذا المنزل القاتم كان يُخفي تُحفةً: تلك الحديقة! أضاف مُشيرًا إلى مربّعٍ عُشبيٍّ فسيحٍ وأخضر أين تتوزّع أحواضٌ من الزّهور وتنبتُ أشجارٌ كثيفة الأوراق.

في الحقيقة، كانت هذه الجنّة المُدهشة تُخفي جنّةً أخرى أكثر إدهاشًا. وهي أكثر ما كان يتمسّك به ليون. فَخَلْفَ حاجزٍ تؤلّفه نباتاتُ الصّبّار الّتي جمعها خلال تنقّلاته في أحواز مدينة مكسيكو، كشف لفريدا ركنه المفضّل على الإطلاق: دجاجاته وأرانبه! قال وهو يضع قفّازيْهِ -«تعلمين أنّ أبسط خدشٍ قد يمنعني من مسك ريشتي بالشّكل الصّحيح»- وبدأ في إطعام أرانب سمينةٍ، بعضها رماديّ وبعضها الآخر أبيض مع عصابةٍ صغيرة من الدّجاجات المُنقنقة:

- على كميّة الطّعام أنْ تُحدّد بدقّةٍ كبيرةٍ. ينبغي تفقّد الحيوانات باستمرارٍ، ينبغي مراقبتها أيضًا والانتباه إلى أيّ علامة من علامات المرض أو وجود أيّ طفيليّات. نحتاج إلى طريقة صحيحةٍ للتّعامل معها، نحتاج للدقّة والمراقبة ثمّ أخذ القرار- تمامًا، مثلما يحدث في السّياسة.

وسط هذا الحصن المُحاط بخصومٍ شرسين «ثمّة حصنُ آلامو[1] الخاصّ بي...»، ثمّة مكتب ليون الّذي لا يمكن الولوج إليه إلّا بالمرور من غرفة الطّعام،

(1) حصن آلامو: من رموز ثورة تكساس ضدّ الحكوميّة المكسيكيّة في أواسط القرن التّاسع عشر.

وهو المكان الّذي بدا لفريدا ملاذًا للسّكينة المطلقة. كان كلّ شيء في داخله مرتّبًا بدقّةٍ مُتناهيةٍ: الكتب ومجموعاتُ المجلّات والجرائد وكراتين الأرشيف. في الوسط تمامًا، تتركّز طاولة خشبيّة وفوقها جهاز «الدّيكتافون» باسطواناته الّتي تُتيح لتروتسكي الإجابة بلغاتٍ عديدةٍ على الرّسائل الّتي تَرِدُ عليه من العالم بأسره وأخيرًا حُزُمات مقالاته وكتبه المرصوفة هي الأخرى بعنايةٍ.

تأثّرتْ فريدا تأثّرًا حقيقيًّا لأنّ هذا المكتب كان في بعض نواحيه نُسخةً متطابقةً مع المكتب الّذي كان في الكازا أزول. غير أنّ ذلك المنزل كان ينتمي لها، أمّا هنا فقد شعرتْ حقّا أنّه بصدد اطلاعها على شيءٍ حميميّ يخصّه لوحده. راحتْ تلمس مكوّنات المكتب في شبه خشوع بأطراف أصابعها، الرّيشاتُ وأقلام الرّصاص المرصوفة داخل آنية فخّاريّة، الورق النّشّاف القديم، قطّاعة الورق العاجيّة، المصباح ذو الرّقبة المعقوفة. كان هناك زرّ ملتصقٌ بالطّاولة وهو زرّ يخوّل لتروتسكي إرسال إشارة هجوميّة في حال اضطرّ لذلك. رأت أيضًا سلاحًا آليّا عيار 25 وكذلك مسدّسًا عيار 38.

- للدّفاع عن النّفس، قال تروتسكي وقد لمح على عينيْ فريدا ما يُشبه الانشغال المُفاجئ.

أخذ ليون يحدّثها عن تفاصيل يومه دون أنْ يكفّ عن العبثِ بسلاحيْهِ النّاريّين. يبدأ نهاره السّادسة صباحًا عندما يستفيق من نومه ليتوجّه مباشرةً إلى القنّ فينظّفه، ثمّ يعود إلى مكتبه ليستغرق في العمل إلى أن يحين موعد الإفطار. بعد ذلك، يَعود مرّة أخرى للاعتناء بالحيوانات، يتناول غداءه، يأخذ قيلولة، يستقبل بعض الزّائرين، يعود لإطعام دجاجاته وأرانبه ليعود للعمل من جديد إلى يأتي موعد العشاء.

- عثرتُ على توازني في هذه الرّتابة، فريدا. دون هذه الرّتابة اليوميّة، ما كنتُ لأقوى على الصّمود أكثر.

كانا يقفان وجهًا لوجهٍ لا تفصلُ بينهما سوى الطّاولة الخشبيّة الثّقيلة. مدّت فريدا يدًا وضعتْها على يد ليون:

- الحياةُ زائلةٌ، افتح إذن أمامك الطُّرق الّتي لا نختارها عبثًا.
- كلّ ما أريده يا فريدا، هو أن أتمكّن من وقفةٍ قصيرة بمحض إرادة في وسط تلك الطّريق ثمّ أبدأ بعد ذلك من جديدٍ.
- هذا مستحيل، سيؤخّر ذلك الرّحلةَ الوجوديّة الكبرى.
- من ذلك يأتي عدم الرّضى ومن ذلك ينبع اليأسُ... وكذلك الحزن.
- أنا لا أؤمن بالقدر. لا أريد سوى أن أحيا، هذا تماما ما يشكّل هدف حياتي الأسمى.
- أمّا أنا فلا أعرف ما هو هدفي بالتّحديد يا فريدا.
- أن تعتني بحفيدك من ضمن أشياء أخرى يمكنك الاعتناء بها، قالت ناتاليا الّتي اقتحمت المكتب بطبقٍ عليه أكوابٌ من الشّاي، ثمّ أشارت إلى صبيٍّ صغيرٍ في العاشرة من عمره بصدد اللّعب في الحديقة، كان ينتعلُ صندلًا جلديّا وسروالا قصيرًا.
- حفيدكما؟ سألت فريدا.
- سِييفَا ابنُ بنتنا زينة، أجابتْ ناتاليا بصوتٍ مرتعش من البكاء. بعد وفاة أمّه، كان «الوليدُ» كما يناديه تروتسكي قد انتقل للعيش مع لِيُوفَا عمِّهِ وجَانْ صديقته. قُتِل لِيُوفَا فلم تجد جان سوى أنْ تهرّبه إلى إحدى المؤسّسات الدّينيّة. بعد عدّة أشهرٍ من الأبحاث والمحاكمات لمعرفة الّذي سيتكفّل بالطّفل تمكّن ألفريد ومارغريت روسمر، صديقا تروتسكي القديمان من جلب سييفا إلى كويواكان.
- مات أطفالنا الأربعة قالت ناتاليا. سييفا هو الآن من تبقّى لنا من العائلة.

عندما عادت فريدا إلى منزلها، لم تتمكّن من حبس دموعها. كان كلّ ذلك

حزينًا جدًّا. ذلك الرّجل الّذي عاش مُطاردًا، ذلك الطّفل الّذي كان يلعبُ بين حرّاس مسلّحين وأرانب حبيسة قفصها. التّاريخ تاريخُ من الكمائن الّتي ستنتهي بأنْ يدمّر ذلك العالم الصّغير: لم يكفّ تروتسكي منذ سنوات على تكرار قوله إنّ ستالين سيفضّلُ في النّهاية عقد اتّفاق صغير مع أدولف هيتلر. - منذ أيّام قليلةٍ وُقّعتْ اتفاقيّةٌ ألمانيّة سوفيتيّةٌ. نعم، تاريخ الكمائن سينتهي بتدمير كلّ شيء، بدْءًا من حياة ذلك الرّجل، حياة ذلك الطّفل، حياة ناتاليا، بما فيها من شكوك وآمال وكلّ ما ناضلوا من أجله. لم يعد حبّ فريدا وتروتسكي في خضمّ كلّ ذلك سوى قوسين بلا أمل، أمّا حبّ فريدا وديبغو وفريدا فلم يكن سوى سرابٍ. هكذا تسير الحياةُ في منزل شارع فيينّا، داخل ذلك المنزل الشبيه بقلعةٍ أين تدور أوبريتٌ تافهة، وهكذا تسير الحياةُ في الكازا أزول. خلال الوقت بالذّات، يركض العالم الّذي اقتلعه من هدوئه الوهميّ فرسان الدّمار الأربعة إلى مذبحةٍ جديدةٍ.

قبل أن يترك فريدا، كان ليون قد همس في أذنها قوله: «أتمشّى في حديقة هذا المنزل الصّغيرة ومن حولي تحوم أشباحٌ بجباه مثقوبة، ورغم ذلك، لا أعترف بأيّ تراجيديا شخصيّة. لا أعترف سوى بتراجيديا واحدة، تلك الّتي تخصّ الثورة، تلك الّتي تخصّ الإنسانيّة وقد أصبحتْ أثقلَ من أن يتحمّلها كاهلي». في بحث فريدا عن كأس من الكونياك في خزانة المطبخ، مرّت بالرّوزنامة الحائطيّة من أين اقتلعتْ عدّة وريقات إلى أن وصلت لتاريخ اليوم الّذي كان: 26 أغسطس 1939. انفجرت فريدا بضحكة منفعلة. يقابل اليومُ مرور ثلاثة عشر عامًا على زواجها من ديبغو في محكمة كويواكان. كانت «تينا مودُوتّ» شاهدة زواجهما وكانت قد نظّمت من أجلهما مأدبةً في شرفة بيتها. كعكة الزّفافِ الّتي أُعِدّتْ من أجلهما كانت مزخرفةً بحماماتٍ وبورودٍ من السّكّر المثلّج وفي أعلاها كان هناك أيقونةٌ لزوجيْنِ متلاصقيْنِ. كان الرّجل يرتدي بدلة زواجٍ ويضع قبّعة تهتزّ حوافّها إلى أعلى وكان يضع قفّازيْنِ. أمّا المرأة فكانت في روب من التّولِ الأبيض الشّفّافِ. صورة زوجيْن لم تنجح فريدا وديبغو في أن يكوناها ولن ينجحا أبدًا.

38

شيئًا فشيئًا، تعوّدتْ فريدا على أركان الكازا أزول، تعوّدًا كان أكثر سهولةً ممّا توقّعتْ. كانت تفاصيل طفولتها منتشرةً في كلّ مكانٍ، وكذلك كانت تفاصيل قصّتها مع ليون وحياتها مع دييغو. فهمتْ حينذاك أنّها كانت تحتاج وقتًا كيْ تستعيد ملكيّة ذلك المنزل نهائيًّا. ذات يومٍ، اكتشف دييغو الصّعوبات الماليّة الّتي تعيشها، لذلك اقترح عليها المساعدة: «لن أقبل أيّ نقودٍ من أيّ رجلٍ، ما دمتُ على قيد الحياة. أنت تستوعب ذلك، لا!».

لذلك، شرعت في العمل ليلًا نهارًا. أنجزتْ لوحة «السّرير الزّوجيّ الجريح»، أين نرى سريرًا بدعاماته أربع مُتداعيةٍ وملطّخةٍ بالدّماء، ثمّ أنجزت بورتريها ذاتيًا مع طائر طنّان، في واجهته نرى طائرًا صغيرًا يخرج من بين ساقيها ميّتًا على شاكلة رضيعٍ مات في الولادة، ثمّ لوحةً كبيرةً بعنوان «قتيلاتُ الولائم» الّتي فيها رسمت عددًا من النّساء الجالسات إلى جانب هيكلٍ عظميّ على سرير ذي أربع أعمدة... لكنّ البرجوازيّين المُتعوّدين على شراء الشّمعدانات شعروا بالخوف أمام لوحاتها. دماءٌ غزيرةٌ، مبالغةٌ في رسم الموت، معاناةٌ كبيرة، إنّها لوحاتٌ لا تصلح لأن تكون «ديكورًا»: «كيف تُريدن لي أن أضع هذه اللّوحة في صالوني، في مدخل مبنى مؤسّستي، في قاعة انتظار مكتبي؟» اكتفتْ ببيع اللّوحة الّتي كانت قد رسمتها من أجل نيك، طبيعةٌ ساكنةٌ تغلبُ عليها البهجة، ثمّ أرسلتْ إليه رسالةً أمضت في أسفلها باسم «مكسيكيّتُك»، رسالةٌ ظلّت بلا ردّ رغم أنها وجّهتْ له فيها اعتذارها عن بيع تلك اللّوحة ووعدتْهُ بإنجاز أخرى ما إن تتحسّنُ الظّروف.

حلّ الخريف ليُخيّم على مكسيكو كما على حياتها. ما تزال اجراءاتُ الطّلاق جاريةً كما هي، وكانت تتخلّلها أحيانا خصوماتٌ تنشبُ في المرّات القليلة الّتي يخاطبها فيها دييغو بالهاتف. ذات يومٍ، أغرقها بوابلٍ من الشّتائم الّتي لم تتوقّع يومًا أن تصدر منه. لا شيء يسيرُ وفق المطلوب حقًّا. ومن الرّاديو المركّزِ في غرفة الطّعام، سمعتْ إعلان الحرب في أوروبّا وخبر نَسْفِ أوّل سفينةٍ إنجليزيّةٍ من قبل غوّاصةٍ ألمانيّةٍ.

اقتصر أملها الوحيدُ على الرّسم. كان الرّسم دائمًا ما ينقذها من المآزق. عادتْ بها الذّاكرة إلى جاكلين، إلى اللّوحة الّتي وضعتْ تصوّرًا على متن السّفينة في اتّجاه نيويورك: «عاريتان في الغابة». كان بإمكانها أنْ تشتغل على الحبّ المِثْليّ طوال ذلك الوقت، لكن بعد أن تُدخل عليه بعض التّعديلات، كأن تُضيف إليه بعض العناصر الموروثة من أسلافها المكسيكيّين أو من أسطورتها الدّاخليّة. في رسم تلك اللّوحة غمرتها فرحةٌ كبيرةٌ، تعمّقتْ مع الاقترابِ الحثيثِ ليوم 15 سبتمبر.

ظلّتْ منذ طفولتها عاشقةً لذلك اليوم البديع الّذي يُقابل الاحتفال الوطنيّ المكسيكيّ. ظلّ شهر سبتمبر بالنّسبة إليها شهر الوطنيّة. لذلك كانت دائمًا تشتري أعلامًا صغيرةً حاملةً للألوان الوطنيّة -الأخضر والأبيض والأحمر- وتُزيّنَ بها كلّ غرف المنزل وتغرسها في كلّ الفواكه المُعدّة للطّاولة وفي أواني الزّهور المركّزة بالرّواق المؤدّي للفناء. كانت دائمًا ما تزيّن ملابسها بتلك الأعلام وتجعل ألوانها تظهر على حبّات البطّيخ الّتي ترسمها في لوحات الطّبيعة الصّامتة، كما كانت تُقيم مأدبةً بالمناسبة، تدعو إليها أصدقاءها.

تخلّل يوم 15 سبتمبر 1939 حدثٌ لم تتمكّن من فهم أهميّته فور وقوعه. ففي الوقت الّذي كانت فيها مُنشغلةً بإملاء آخر تعليماتها على الطبّاخة في خصوص إعداد حساء السّمك والأرزّ ثلاثيّ الألوان بالفلفل والجوز، الطّبق الّذي يحمل ألوان العلم المكسيكيّ المُعدّ من أجل ضيوفها، رنّ جرسُ الباب.

كان رجلًا يُدعى «فرانك جاكسون»، الّذي لم تتعرّف عليه في بادئ الأمر. لذلك أوشكتْ على طرده. الاسم لم يكن مألوفًا بالنّسبة إليها خصوصًا وأنّ أعمالا كثيرةً ما تزال في انتظارها... لم تتراجع عن طرده إلّا عندما قال لها أحد خَدَمِها بنظرةٍ ماكرةٍ أنّ ذلك المسكين إنّما هو رجلٌ وسيمٌ وقد جاء مُحمّلًا بباقةٍ ورد هائلةٍ.

عجيب! لم يكن وجهه غريبًا تمامًا، ولا شعره الطّويل والغزير، ولا عيناه الواسعتان، ولا جبينه العريض، ولا التّأتأةُ الخفيفةُ الّتي تتخلّل أحاديثه وبالخصوص باقة ورده العظيمة... لقد التقتْ بذلك الشّابّ النّحيف ذي الكتفيْنِ العريضيْنِ من قبل. نعم، لقد التقتْ به سابقًا وهو يحمل باقةً وردٍ مُشابهة. لكنّ اسم «فرانك جاكسون» لا يذكّرها بشيءٍ. عندما لاحظ ارتباكها، شرع في سرد بعض الأدلّة الّتي من شأنها أنْ تساعدها على تذكّره:

- باريس، بروتون، المعرض المكسيكيّ في قاعة «بيير كول»...
- جاك موران!
- تمامًا!
- لكن لماذا...؟
- لماذا فرانك جاكسون؟
- نعم.
- هربتُ من بلجيكيا بجواز سفرٍ مزوّرٍ، كيْ أتجنّب الخدمة العسكريّة. لا أريد المشاركة في أيّ مذبحةٍ.
- هل أنت من دعاة السّلام؟
- نوعًا مّا... حتّى أنّي غيّرتُ الجنسيّة. أنا الآن كنديّ مع أنّه كان بإمكاني الحصول على جنسيّة أمريكيّة لكنّ ذلك كان يضطرّني إلى أن أتقدم بطلب للحصول على فيزا يعني أنْ أُخْضِع مستنداتي للفحص القنصليّ بنفسي.

- وأفترض أنّك لم تعد تمارس الصّحافة.
- لا، أنا الآن رجل أعمالٍ غير معنيّ بالمسألة السّياسيّة، رياضيّ وأسعى للاستمتاع بالحياة...
- ماذا عن خطيبتك...
- سيلفيا؟ سألتقيها قريبا في نيويورك أين سنتزوّج. في انتظار ذلك، سأظلّ حرّا وأعزبًا، تلك طبيعة عَقْدِنا الّتي اتّفقنا عليها...

دعته للبقاء من أجل تناول العشاء. وافق فرانك جاكسون متحمّسًا. كانت لحظاتٍ من السّعادة الّتي لم تعشْها فريدا منذ وقتٍ طويلٍ. ولمّا صرّح أحد المدعوّين الثّملين بأنّه يعرف فرانك جاكسون، الوسيط التّجاريّ الأوروبّي الّذي كان يشتغل في مصلحة بيع الزّيوت للأمريكيّين والّذي توجّهتْ أعماله الآن إلى تحويل الماس، انفجر الجميع ضاحكين.

- عندما يشرب بابلو، فإنّه يهذي بأيّ شيء! أجابت فريدا.

بعد ذلك، قرّرت المجموعة السّعيدة القيام بجولةٍ في شوارع المدينة القديمة المُبلّطة. ففي الأزقّة وعلى ساحات منتزه «السُّونتونير»، تدور رحى احتفالات كثيرة.

خلال الأسابيع الموالية، تناقصتْ لقاءات فرانك جاكسون وفريدا شيئًا فشيئًا. كانا أحيانًا يذهبان إلى السّينما أو يتجوّلان في الأسواق المليئة بثمار التّين الشّوكيّ الخضراء والبيضاء والحمراء الّتي جلبها بائعوها من مناطق البلاد الصّحراويّة، وكانا في تلك الأسواق يستمتعان بامتصاص ثمرات اللّيمون الحامضة. كانت فريدا عندما تستقبلُ ضيفها ذلك للعشاء في الكازا أزول تُخرج صحونها البيضاء الّتي يُرسم عليها حرفا ف. د، وتسكب له في صِحَافٍ بلّوريّة مدوّرة حساء الأرزّ الأبيض أو شراب ورد جَمَايْكَا الأحمر. وكانت أحيانًا ترتدي لاستقباله زيّ «تيهوانا» الخاصّ، وترشق وردة في شعرها وتملأ أصابع يدها

بالخواتم. كانت سعيدةً بتلك الممارسة، لأنّها كانت ترى في نظرة الرّجل الجالس قبالتها شهوةً جيّاشةً. ربّما ستمارس معه الحبّ ذات يومٍ، ذلك ما ستقرّره لاحقًا، إلّا أنّ ذلك اليوم لم يحن بعد.

ذات صباحٍ، وقد اتفقتْ معه على الذّهاب إلى مدينة «تيوتيهواكان» الأثريّة، وبعد انتظار دام ساعاتٍ، انتهتْ بأن طلبتْ من السّائق إعادة سيّارة «الفورد بريك» إلى دييغو وكانت قد استعارتها منه لمدّة يومٍ. لم يأتِ فرانك جاكسون لا خلال ذلك الصّباح ولا في الأيّام الموالية، اختفى فجأةً بالطّريقة نفسها الّتي ظهر بها عند بابها. رحل جون فان هايجونورت بدوره يوم 5 نوفمبر:

- لقد عشتُ كلّ هذه السّنين في ظلّ ليون، حان الوقت لأعيش قليلًا لنفسي...

- إلى أين تتوجّه؟

- سأذهب لقضاء بضعة أشهر في نيويورك، بعد ذلك، سنرى.

كأنّ سنة 1939 لا تريد الانتهاء. كانت فريدا تُريد الانتقال إلى العام الموالي مباشرةً وأن تنسى هذا العام «المُتعفّن» إلى الأبد. عادت للعمل على لوحتها «الفريداتان». صارت تراها بأكثر وضوحٍ. ستكون من ناحيةٍ أولى في فستانٍ تقليديّ ومن النّاحية الثانية ستكون في فستان من طراز «تيهوانا». لابدّ من أن تعمل أكثر على إبراز الفروق بين «الفريداتيْن». لذلك، ستكون الأولى أنيقةً ومتعجرفةً، وستجسّد الثّانية فكرة الجمال المُتّزن. الأمر الّذي سيجمع بينهما: هي جراحُ الماضي. إنّ ذلك بالتّحديد ما تريده أن يكون واضحًا: مرأتان متألّمتان، مرأتان جريحتان.

كان لديها أيضًا مشروع ثانٍ، سينقذها إن نجح: التّقدّم بطلب للحصول على منحة من مؤسّسة «جون سايمون جوجنهايم». يملك الأمريكيّون أموالًا طائلةً، لذلك سيكون من الجيّد أن تحصل على جزء زهيدٍ من تلك الأموال.

أرسلت في نهاية شهر نوفمبر ملفّها كاملًا، بما ينبغي أن يحتوي عليه من رسائل تحسيسيّةٍ موقّعةٍ من طرف شخصيّات مرجعيّة في حقل الفنون والسّياسة، وموجّهة للمدعوّ «هنري ألين مو». قيل لها من عدّة مصادر إنّ حظوظها وافرة وذلك راجع لشهرتها المتزايدة وللقوّة الرّهيبة النّابعة من فنّها وبالخصوص لأصالتها الواضحة. بمعنى مّا، لن يكون ذلك الملفّ الّذي قدّمته سوى مجرّد إجراء شكليّ لابدّ منه. لزمن طويلٍ، فرض عليها دييغو حياةً لطالما اعتبرتها «حياةً مزوّرةً تملؤها حماقاتٌ لا تُطاق»، لذلك فإنّ تلك المنحة ستمكّنها من انطلاقة جديدة عاشتْ تنتظرها بفارغ الصبر. لم يبق أمامها سوى الانتظار لشهر أو أكثر بقليل: حينذاك، ستكون مطلّقةً ومتمتّعةً بمنحةٍ تجعلها في مأمنٍ من أيّ احتياجٍ لبعض الوقت. بعض الوقت هو كلّ ما تحتاجه كيْ تستطيع الرّسم والعودة للحياة من بابها الواسع.

39

في اليوم الّذي فرغتْ فيه من لوحة «الفريداتان» وصلتها الأوراق الّتي تؤكّد استكمال إجراءات الطلاق. وصلتها وهي جالسةٌ تشرب الشّاي رفقة «ماكينلي هيلم» المُختصّ في تاريخ فنون أمريكا الشّماليّة... لِلَحظةٍ، اعتقدت بأنّها ستنفجرُ من فرط الكآبة والغيضِ. صحيحٌ أنّ دييغو كان من بدأ بإجراءات انفصالهما، لكنّها -كما ظلّتْ تعتقد إلى حدود تلك اللّحظة- انتهتْ بقبول الفكرة وحتّى بلمس بعض مزاياها: ستكون حرّةً أخيرًا، ستنتهي معاناتُها المنجرّةُ عن خيانات دييغو. لكنّها حينذاك وأمام حزمة الأوراق الإداريّة تلك، أمام الواقع الملموس الّذي تقرّرهُ تلك الأوراق الإداريّة، كان الأمرُ مختلفًا تمامًا. مجترّةً غضبها في حضور الأمريكيّ المذهول، شرعتْ في التّعليق عن لوحتها:

- هنا، من هذه النّاحية، تُوجد فريدا الّتي أحبّها دييغو وهناك، من النّاحية الأخرى توجد فريدا الّتي كفّ دييغو عن حبّها. وهنا ما بينهما، ثمة هذا الشّريان المقطوع وهذه الدّماء الّتي لا تسيلُ بغزارةٍ...
- فريدا الّتي تضع ميداليّةً صغيرةً يظهر فيها دييغو طفلًا، تابع المؤرّخ.
- نعم، دييغو عاشقٌ وطفلٌ كبيرٌ...
- والأخرى، إنّما هيَ فريدا المهجورة...
- إنّها تحاول إيقاف النّزيف بواسطة بمقصٍّ.
- وذلك مستحيلٌ، همس المؤرّخ الّذي اعتقد لوهلةٍ أنّ فريدا ستلتقطُ من اللّوحة الأداة الملطّخة بالدّماء لتلقي بها في عمق الغرفة زاعقة من الغضب.

- طبعًا، هذا مستحيلٌ أيّها المغفّل قالت فريدا الّتي بلغ منها الغضبُ مبلغًا كبيرًا إلى درجة أنّها كادتْ أنْ تُسقط كوب الشّاي من يد الأمريكيّ الّذي أصيب بالذّعر وقرّر الانسحاب متوخيّا كلّ الأدب اللّازم.

برحيل الرّجل، استعادت فريدا هدوءها شيئًا فشيئًا. في قراءة عميقة لهذه اللّوحة، فَهْي منْ تُواسي نفسها بنفسها. فريدا الجديدة تُواسي فريدا المهجورة. ثمّ إنّها رغم كلّ شيء، لم ترسم في حياتها أكثر ممّا رسمتْ في فترة وحدتها. هذه الوحدة الّتي ساعدتها كثيرًا في اختيار موضوعاتها الّتي اشتغلتْ عليها. تساءلت في قرارة نفسها إنْ كان المبدع يحتاج إلى أن يكون سعيدًا كيْ يبدع، ستتأكد من ذلك يومًا دون أدنى شكّ... لقد مثّلتْ الأشهر الماضية فترةً من المُعاناة المُبرحة ومن الضّيق التّام. هلْ شاءت الصّدفة وحدها أن ترسم لوحاتها الأكثر دمويّة والأكثر عُنفًا خلال هذه الفترة بالذّات؟ فَلَوْحَةُ «أربعة سكّان من المكسيك» كانت أشبَهَ بطُقس من الطّقوس الّتي تُعْتَمد لطرد الأرواح الشّريرة، بينما تعرض لوحة «قلب» قلادة شوكيّة وقلبًا مقلّعًا من مكان، أمّا في «ما أعطاه لي الماء» فنرى قدميْنِ تطفوان على مياه حوض استحمام مليء بالنّفايات، وكانت لوحة «ذكرى جرح مفتوح»، البورتريه الذّاتيَّ الّذي يُظهرها بفخذيْنِ مشرعيْنِ، والدّم ينزّ من إحداهما. فيما عدا ذلك، كانت لوحات الطّبيعة الصّامتة الّتي توجّهتْ إليها منذ زمنٍ مكوّنةً في جلّها من فواكه مشقّقةٍ أو مسحوقة أو مُمزّقة: حال لوحات «ثمار الأرض»، «فاكهة الصّبّار»، «حبّة البطّيخ والموت». لو أنّ ذلك الأمريكيّ الحقير ما يزال هنا لصرختْ في وجهه قائلة إنّها نجحت أخيرًا في العثور على هويّتها الشخصيّة في الرّسم ولم يسقها إلى ذلك النّجاح أيّ من الأحكام المُسبقة، وإنّها عملتْ منذ عشر سنواتٍ من أجل مبدإ واحد: إزاحة كلّ ما لا ينبع من دوافعها الغنائيّة الذّاتية الّتي ظلّت وحدها تدفعها لممارسة الرّسم!

تولّدت سعادتها على إثر تأكّدها من العُثور على طريقها الحقيقيّ في فترة لا تُعتبر طويلةً. تمّ إعلامها برفض منحة «جوجنهايم» دون ذكر أيّ أسباب

إلّا إذا عادت بها الذّاكرة إلى كلمات جاكلين الّتي ردّدتها بمناسبة معرضها في باريس: «في هذا العالم الرّجاليّ، من الصّعب أن تكوني امرأةً رسّامةً». لا شكّ أنّها في ذلك الملفّ، كانت قد قدّمت نفسها بتواضع كبيرٍ، لم تكن واثقةً من نفسها بالشّكل الكافي، ولم تتباهَ بقدراتها بالشّكل الكافي أيضًا. ذكرت على سبيل المثال أنّ معرضها الأوّل لم يلتئم سوى في سنة 1938، وتقصد المعرض الّذي تمّ بنيويورك في شهر نوفمبر من السّنة المذكورة، وذكرتْ أنّ ذلك المعرض لم يُعقب سوى بآخر في قاعة «رونو كولّ» بباريس في السّنة نفسها وأنّ متحف اللّوفر حصل على واحدة من لوحاتها. كان ذلك غير كافٍ بالنّسبة للماكينة الثقافيّة الأمريكيّة العملاقة.

الأهمّ من ذلك كلّه هو أنّ مشاكلها الصحيّة عادت من جديد. عاد ظهرها ليعذّبها العذاب الأكبر مرّة أخرى إلى درجة أنّ الدكتور «فاريل» الّذي تابع حالتها منذ البداية أمرها بالتمدّد على سريرها والتزام الرّاحة التامّة مع محاولة إنقاص ما لا يقلّ عن العشرين كيلوغرامًا من وزنها من أجل تخفيف حمل الظّهر. أخصّائيّون كثر على غرار الدّكاترة «فريديريكو مارين» و«ليو إلويسير» و«فيجا أساوي» مرّوا من أمام سريرها لينتهوا للخلاصة نفسها دون أن يلتقوا ببعضهم البعض، والخلاصة تتمثّل في: وجوب زراعة النّخاع العظميّ. والأسوأ من كلّ ذلك هو ظهور مُفاجئ لفطرياتٍ على أصابع يدها اليُمنى ممّا سيحول بطبيعة الحال دون مواصلة الرّسم بالشّكل الصّحيح. لم تعد فريدا قادرةً على التّحمّل أكثر. بدتْ بعيدةً على أن تتنعّم ببعض الرّاحة دون اللّجوء إلى الكونياك الّذي أصبحت تحصل عليه في صناديق تصلها إلى حدود الكازا أزول.

ذات مساءٍ وكلُّ المكسيك تستعدّ لاحتفالات عيد الميلاد، شعرت بوحدةٍ قاتلة لذلك طلبت من ليون أن يأتي لزيارتها. لم تلتقِ بأحدٍ خلال الأسابيع القليلة الماضية، كانت تقضي أيّامها منعزلةً في منزلها مع حيواناتها ولوحاتها وقوارير الكحول. لعلّها اعتبرت نفسها بلا أصدقاء أو لعلّها فقدتْ أصدقاءها إلى الأبد،

لذلك راحتْ تقضي ساعاتٍ طوالًا في رسم التّرهات وفي مزيد الاكتئاب. كانت الرّسالة الّتي تركتها لتروتسكي أشبه بالاستجداء. طُبعت قبلة حمراء أرجوانيّة ووضعتْ داخلها ريشاتٍ ورديّة زاهية في تعبير عن المحبّة. وجد تلك الرّسالة على إثر عودته من جولةٍ دامت عدّة أيّامٍ في فيلّا «هارّينج» بمدينة تاكسكو من أين جلب أنواعًا جديدةً من الصبّار.

عندما رنّ الجرس كانت فريدا غارقةً بالكامل في العمل على لوحة «الطّاولة الجريحة» وهي لوحة من الحجم الكبير اهتدت إليها بطلب من جوليان ليفي من أجل معرض سرياليّ مستقبليّ. كانت لوحةً مُحيّرةً. نرى فيها فريدا الجالسة إلى الطاولة ومعها ابن أختها وضبيها المحبّب «غارنيزو» ويهوذا على شكل أيقونة تعود إلى فترة ما قبل كولومبس وهيكلًا عظميًا. تحيط بذلك المشهد ستارتان مسرحيّتان تبدوان أقرب إلى محكمة قائمة ودمويّة.

- هذا الشّيء سينتهي بجنوني، قالت فريدا وهي تقبّل ليون الّذي لم يقم بأيّ تعليقٍ. اكتفي ليون بنظرةٍ خاطفةٍ على تلك اللّوحة القادرة على هزّ كيان أيّ شَخْصٍ يراها بقليل من الانتباه، ولاذ بالصّمت.
- إذا كنت جئتَ لتُريَني هذا الوجه العابس فذلك لن يُساعدني في شيءٍ. يمكنك العودة إن كان مجيؤك إليّ يزعجك، قالت فريدا الّتي وضعتْ الفرشاةَ جانبًا لتسكب كأسًا من الكونياك.

اعتذر ليون باسمًا. لا، إنّه رغب في رؤيتها لذلك جاء فور تلقّي رسالتها. لكنّه كان منشغلًا بعدّة أشياء، منها وضعيّته الشّخصيّة -فرحلاته إلى الرّيف لجمع نباتات الصبّار الّتي كان أحيانا يقتلعها ليلًا على ضوء مصابيح سيّارته، تزدادُ صعوبةً يومًا بعد يومٍ حتّى أنّه قد يضطرّ في القريب إلى عدم مبارحة منزله في شارع فيينّا- ومنها أيضًا الوضعيّة العالميّة بكلّ العوامل الّتي تنذر بأحداث دامية:

- شعوب أوروبّا المشتعلة تعيشُ أجواء من البأس واليأس، وإن نجحوا

في قمعهم إلى حدّ الآن إلّا أنّهم على أهبة الثّورة ومحاصرة النّازيّين. بعد انتهاء الحرب، ستنشب ثورة البروليتاريا.

نادرًا ما كانت فريدا تجد الرّد المناسب لتروتسكي الرّجل الملتزم والسياسيّ والمتقوقع على ذاته والمناسب للقضايا الّتي كانت دائمًا تشغله. حدّثها طويلًا عن المصاريع الفولاذيّة الّتي أضافها لنافذة غرفة نومه وعن الحارس الجديد الّذي وظّفه، وهو شابّ أمريكي في الخامسة والعشرين من عمره اسمه «روبيرت شيلدون هارت» وقد بدا له «ملائمًا جدًّا ونقيًّا ومتحمّسًا».

- هلْ تُزعجك حكاياتي؟ سألها مختتمًا حديثه.

- لم أطلب منك أن تأتي لتحدّثني عن مصاريعك وحارسك، أجابته فريدَا ماسكةً يده لتسحبه إلى حافّة سريرها.

- أنت بالغت في الشّرب، أليْس كذلك؟

- نعم. إنّي أُغرق يأسي في الكحول يا عثنوني الحبيب.

بدا ليون شديد التّأثّر. لقد مرّ وقتٌ طويلٌ عن آخر مرّةٍ نادته فريدا بهذه العبارة. تذكّر حميميّتهما خلال تلك الأشهر القليلة الّتي اتّسعت لشغفهما بعد فترةٍ قصيرة من وصوله إلى ميناء «تامبيكو». في الواقع، لم يرفع عينيْهِ عن فريدا منذ دخوله إلى المنزل. كان شعرها المُبعثر شبيهًا بأشعّة شمس سوداء، وكان على وجهها بماكياجه الخفيف يرتسمُ الألمُ واضحًا حتّى بدتْ جلدتُهُ الشّاحبة مصنوعةً من الشّمع. أمّا هي، الحيويّة عادةً، فقد بدتْ له هذه المرّة ساكنةً، لا شيء يتحرّك فيها سوى اليديْنِ المتشنّجتيْنِ والمُثقلتيْنِ بالخواتم. وهما جالسان على حافّة السّرير، شعر بجسدها المهتزّ ملاصقًا لجسده. في لحظةٍ، مدّت يدها لرفع مرآةٍ صغيرة موضوعةٍ على المنضدة بجانب السّرير. أتاحتْ له تلك الحركة رؤية منبت نهديْها والكورسيه الطبيّ الّذي أصبحتْ تضعه منذ عدّة أسابيع. بعد أن نظرت فريدا إلى نفسها، وضعت المرآة الصّغيرة في يد ليون وضمّته إليه بقوّة.

- خذها، هي لك، لقد رأيتُ فيها نفسي آلاف المرّة. إنّها تحتفظ بصورتي.

بعد ذلك، مالتْ ناحية ليون تقبّل أصابع يديه. ثمّ أحاطتْ رقبتَه بيدها لتسحبه إليها وتقبّل شفتيْهِ. انهمرت الدّموع من أعينهما معًا. ظلّا على تلك الشّاكلة لوقتٍ طويلًا، مُتلاصقينْ وليون يشدّ المرآة الصّغيرة بيدٍ مُتصلّبةٍ. حلّ اللّيلُ فانتشرتْ ظلمةٌ خفيفةٌ في الغرفة. بقيتْ لوحة «الطّاولة الجريحة» مضاءة قليلًا، كانت كأنّها تواجههما بشيء غريبٍ، كما لو أنّ شخصيّات اللّوحة تحرسهما وتراقب حركاتهما بأدقّ تفاصيلها. قد يعتقدان لوهلة أنّ تلك الشّخصيّات على أهبة الانسلاخ من اللّوحة لتتجسد أمامهما في الغرفة ثمّ تشرع في محاورتهما وإبداء رأيها حول سير العالم من حولهما.

- ألا نبدو أنا وأنت كالمحكومينْ بالسّجن مع وقف التّنفيذ، تساءلتْ فريدا.

- يا لهذا الشّقاء الّذي نعيشه يا فريدا العزيزة. ما عدتُ أقوى على تحمّل هذا الذلّ الّذي لا معنى له. ما تزال الهزيمة الأخلاقيّة لرفاقي الثّائرين القدامى تسكنني. لقد قُتلوا جميعًا شرّ قتلة، قُتِلوا لأنّهم خانوا بعضهم البعض وخانوا ضمير الثّورة. وأنا، أنا المحاط دائمًا بالأشباح، من تُراني سأخون الآن؟

- لن تخون أحدًا، مطلقًا. لن تخون رفيقًا ولا نفسك.

عندما غادر ليون الكازا أزول مُحاطًا بحرّاسه الشّخصيّين، كان يخيّم على مدينة مكسيكو هدوءٌ مخيفٌ.

- ستحلّ الظلّمة، قال السّائقُ الّذي أخرج المسدّس من حافظته قبل أن يُحكم غلق الباب على ليون الّذي ظلّ يلوّح بيده لفريدا وقد رافقته إلى حدود عتبة البوّابة.

40

أُفْتُتِحَتْ سنة 1940 بنذور شُؤم. فقد تعوّدتْ فريدا جمع كلّ أفراد عائلتها وأصدقائها ليلة «عيد العماد» كيْ يتشارك الجميعُ في تناول «كعكة الملك» الّتي تذهب لشرائها بنفسها من «لا فلور»، أفضل محلّ لبيع المرطّبات في مدينة مكسيكو. إلّا أنّ هذه المرّة لم يأت أحدٌ من المدعوّين. وكيْ تتحدّى سوء الطّالع هذا أو بالأحرى كيْ تقول إنّ لا شيء تغيّر، فقد قرّرت الذّهاب رغم كلّ شيء إلى «لا فلور دي مكسيكو». لكنّه النّحس وقد امتلك صاحبته. فما إن عتّبتْ المحلّ بفستانها «التّهيوانا» المزيّن بمجوهرات عائدة إلى ما قبل كولومبس، وبألوانها الزّاهية حتّى شرعت النّسوة البرجوازيّاتُ المتبوعات بخادماتهنّ المحمّلات بشتّى أنواع المرطّبات في الغمغمة بتعليقاتٍ مهينة وعبارات لاذعة: «ماذا تصنع هنا زوجة الرّسّام الشّيوعيّ، ذلك الخنزير المُسمّى ريفيرا؟»، «ما الّذي دفع بهذه العاهرة الحمراء للمجيء لتدنيس أرضنا؟» أمام كلّ هذه العداوة، لم تجد فريدا الّتي كانت بالأمس القريب قادرةً على إرسال هؤلاء الأوباش إلى الجحيم غير المغادرة دون النّبس ولو بكلمةٍ واحدةٍ، مغادرة معبد الشّراهة هذا مطأطأة الرّأس مُصطدمة في خروجها بالنّادلات اللّواتي كنّ يرتدين مآزر سوداء لها أطواق من الدّانتيل وبالأواني الطّينيّة الكبيرة أين كان ينبتُ السّرخسُ والجُلْسَان بوروده البيضاء.

نعم، لقد بدأ شهر يناير هذا بشكلٍ سيّءٍ حقيقةً. كان الطّقسُ شديدَ البرودة والأخبار الواردة من العالم بأسره شديدة القتامة. عندما تلقّتْ فريدا رسالةً من شبيه الشّبح فرانك جاكسون يُعلمها فيها بمقدمه إلى مكسيكو مصحوبًا بخطيبته

سيلفيا لم تفهم لمَ أرسل إليها تلك الرّسالة. أخبرها أنّها سيقيمان في الشّقة عدد 820 من نُزل «مبنى النّاسك» التّاريخيّ وأنّه عاد إلى مكسيكو لقضاء بعض «الشّؤون التّجاريّة» وأنّه يرغب في رؤيتها. لم تتمكّن من إنهاء قراءة أسطر الرّسالة الأخيرة أين أعلمها لسبب لا يعلمه إلّا الله أنّه ينوي شراء سيّارة «بويك»: إلّا أنّ واحدًا من قردتها الّذي اشترته لمقاومة وحدتها والّذي كان يقفز حُرًّا هنا وهناك بين الفناء والمنزل جاء ليختطف منها الرّسالة ويحوّلها إلى مزقٍ متناثرة...

5 يناير، تمام الشّهر بعد النّطق بالطّلاق في المحكمة، قرّرت فريدا القيام بما قامت به سنة 1934 على إثر اكتشافها الأليم للعلاقة السريّة الّتي جمعتْ دييغو وكريستينا: قصّ شعرها. فما حدث هذه المرّة عبثٌ مطلق. على الرّغم من طلاقها من دييغو إلّا أنّها لم تستطع أن تستوعب علاقته مع «بوليت غودار»! حذّرته قبل أن تُقدم على فعلتها، لطالما أحبّ شعرها الطّويل: «إذا لم تكفّ فورا عن الالتقاء بغودار فإنّي سأقطع شعري عن آخره». أجابها دييغو معتمدًا على الجانب القانونيّ وحده: «لكن فريدا، نحن لم نعد متزوّجيْنِ. هل استوعبت طلاقنا؟ هل تعلمين معنى نكون: مطلّقيْن!» كان الأمر أقوى من أن تتحمّله: نظرت طويلا إلى المقصّ، ثمّ جالسة أمام المرآة، قصّت كلّ شيء. راح شعرها يتساقط خصلاتٍ صغيرةٍ على الأرض مثل فراشاتٍ هامدةٍ، حاملةً معها قطعًا من روحها، من غبطتها الحياتيّة، من حيويّتها، من ابتساماتها. عندما فرغت من فعلتها تلك، شعرت برضًى تامّ: «لكأنّني تحوّلتُ إلى جنيّة أو إلى بحّار»، قالت في نفسها، ثمّ عاودت الاتّصال بدييغو:

- لديّ خبر سيّء من أجلك أيّها الضّفدع العجوز: لقد قصَصْتُ شعري. صرتُ أشبه برجلٍ حقيقيٍّ، لا ينقصني الآن سوى القضيب. لا يهمّ، سيعود إلى سالف طوله، كما أتمنّى!

لم تتوقّف عند ذلك الحدّ. لم تكتفِ بالتّمسّك بعذاباتها بل أيضًا بفرادة تلك العذابات، الأمر الّذي دفعها للمُضيّ قُدمًا في الانتقام من نفسها. لذلك، تهيّأتْ

لرسم بورتريه ذاتيٍّ وهي في شعرها القصير، «لتكن لوحةً انتقاميّةً، باسم الرّبّ»، هكذا كانت تُردّدُ مع كلّ ضربةٍ من فرشاتها. كان كلّ عنصر من تلك اللّوحة يحمل معنى مُحدّدًا يزيد في حجم ألمها ويصفها بأدقّ تفاصيلها. بدوره، اتّخذ الفضاءُ المحيطُ من حولها سمةً انتقاميّةً، ففيه تناثرتْ خصلات شعرها السّوداء الّتي بدتْ زاحفةً مثل الثّعابين، كانت تتلوّى من حول دعامات الكرسيّ المكسيكيّ الأصفر المُذهّب، على ذلك الكُرسيّ بالذّات رسمتْ نفسها وهي جالسةٌ على شاكلة رجلٍ يُباعدُ بين فخذيْه قليلًا، وكانت مع ذلك كلّه ترتدي بدلةً رجاليّةً وتنتعل زوجي حذاء بأربطةٍ كبيريْن وأسوديْنِ. في يدها اليُمنى، رسمت المقصّ أداة المجزرة. لم يعد هناك ما يُشير إلى تلك المرأة الّتي لم تعدْ تريد أنْ تكونها، لا أكثر من قُرطيْ أذنيْها شبه المخفيّيْنِ. في الجانب العلويّ من اللّوحة وكما هي عادتها دائمًا خطّتْ نصًّا قصيرًا فيه استعادتْ كلمات أغنية كانت تُدندن بها دائمًا: «إذا كنتُ قد أحببتُكِ في الماضي، أنت الّتي تبكين، فلأنّ جدائل شعرك كانت ناريّةً، أمّا الآن وأنت صلعاء، فإنّي لم أعد أحبّكِ».

وفي فترةٍ نزلت فيها الحرب العالمية الثّانية بكلّ ثقلها على القارّة العجوز لتُغرقها في الرّعب النّازيّ، أصبحتْ المكسيك ملاذًا للأوربيّين الفارّين من ويلات الصّراع. ممثّلون وشعراء وموسيقيّون ومهندسون ومفكّرون ومصوّرون فوتوغرافيّون، عديدون هم الّذين وصلوا إلى هنا فارّين من باريس وبرلين وموسكو ومدريد... لويس جوفيه، بنجامين بيريت، مارك شاغال، ريميديوس فارو، روجيه كايُّوا، كلّ هؤلاء حوّلوا المكسيك إلى ميدانٍ للحداثة. وهكذا، لم يكن من الغريب على حركةٍ ذات شعبيّة مثل الحركة السّرياليّة أنْ تُنظّم احتفالًا كبيرًا.

17 يناير، فتح المعرض العالميّ للسّرياليّة أبوابه في مركز «إينيس أمور» للفنون. شاركتْ فريدا بلوحتيْن من أعمالها: «الفريداتان» و«الطّاولة الجريحة». لكن سرعان ما ذهبتْ آمالها المعلّقة على ذلك الاحتفال الكبير أدراج الرّياح

بالرّغم من أنّه كان يضمّ أسماءً لامعةً في مجالات الرّسم والأدب والفنون... فمنذ أن ألقتْ فريدا نظرةً على كتالوج المعرضِ المُعلِنِ عن «السّاعات الحكيمة» و«الدّعوات المحروقة» وغيرها من «الإطارات المُشعّة»، ساورتْهَا بعض الشّكوك. في الأمسية الافتتاحيّة المخصّصة لشرب الكوكتيلات، وجدتْ لشكوكها تلك كلّ المبرّرات المُمكنة. فقد ارتبط ذلك الحفل السّاذج بكلّ تلك الشّكلانية الفضفاضة الّتي تكرهها، تحوّل المعرض إلى مكان هامد تملؤه تلك الكبرياء الّتي اضطرّت إلى مجابتها في باريس. غصّت القاعة برجال في بدلاتٍ رسميّة ونساء في أحدث الموديلات القادمة من باريس. لقد وجدتْ نفسها خلال تلك التظاهرة رفيعة المستوى بما أغرقها من كؤوس الشّمبانيا والكونياك والويسكي وبما تخلّلها من المُحلّيات والأوراق النّقديّة في وضعيّة انزعاجٍ تامّ حتّى أنّها اضطرّت في لحظةٍ للخروج إلى مزاريب إحدى الشّوارع المجاورة للتّقيّؤ.

ليلًا، انتقل أغلب المدعوّين إلى باحةٍ كانت عبارةً عن كابريه شهيرٍ وفي غاية الفخامة، بينما اختارت فريدا العودة إلى منزلها مشيًا على الأقدام، كانت تتقدّم بخطواتٍ بطيئة لأنّ أوجاعًا قاسيةً بدأت بالتّسرّب إلى عمودها الفقريّ.

باستثناء مقالة «أدولفو ماندیز سمارا» الّذي تساءل إن لم تكن الحركة السّرياليّة مساويةً للّاشيء فإنّ المعرض عرف نجاحًا منقطع النّظير. كانت فريدا في قمّة غضبها. ندمت على قبولها المُشاركة فيما يشبه ذلك القدّاس الكبير المثير للشّفقة: «كان بإمكاني أن أشكّ قليلًا، لا وجود لمكانٍ يحشر فيه بروتون الحقير أنفه دون أن تنتشر فيه الرّائحةُ كريهةً!».

ما إن انتهت المهزلة السّرياليّة تلك حتّى أخذتْ جملة من الأحداث الجادّة مكانها. ابتداء من الهجمات الّتي وُجّهت ضدّ تروتسكي. ذكر بعضُ المهووسين بثورة 1917 أنّ تروتسكي عندما يكون محقّا في شيءٍ مّا، فإنّه «يُصاب ببعض التّعالي» في حين عندما يتبيّن أنّ لينين من كان مُحقّا فإنّ «الجميع يروْنَ مجرّد

تصريح بحقيقة بسيطة لا تسيء لأحد». لقد كان تروتسكي زعيمًا كبيرًا، كان عقلًا سياسيًا محنّكًا، هذا بلا أدنى شكّ لكنه لم يكن «يحسن توجيه أتباعه». «ماذا يمكن لهذه التّرّهات أن تنقص منك، لا تُلقِ بالًا لهذا الهراء!» قالت له فريدا. أمّا فيما يخصّ المقالة الّتي نُشرتْ في «لا فوز دي مكسيكو»، النّاطقة باسم الحزب الشّيوعيّ المكسيكيّ الّتي أكّدت على أنّ مشروع اغتيال تروتسكي لمْ يعد من ضمن الأوليّاتِ بما أنّه «هُزم سياسيًّا»، فلنْ يثير سخرية أحدٍ أكثر من فريدا.

- الخبر الأروع من كلّ هذا يتمثّل في استبعاد كاتب المقالة ومدير التّحرير في الآن نفسه، قال ليون ثمّ أطلعها على صحيفة أخرى اسمها «الفوتورو» الّتي «كشفتْ» منذ فترة قصيرة دون أن تذكر اسمه أنّ جهاز البوليس السّريّ الألمانيّ أسقطه من حساباته بعد أن كشفتْ صلته بالإمبرياليّة الأمريكيّة!
- لكن، هذا مثيرٌ للسّخرية يا ليون! هذا فظيع! قالت فريدَا وهي تقهقه بأعلى صوتها.
- هكذا تُصبح الكتابةُ عند كلّ الّذين يتهيّؤون لاستبدال ريشاتهم بمدافع رشّاشةٍ، أجابها بكلّ رجاحة عقلٍ.

41

هكذا كان تروتسكي، مهووسًا باغتياله إلى درجة أنّه قرّر كتابة وصيّته. وذلك ما عزم على شرحه لفريدا في محاولةٍ منه للتّخفيف عنها عندما حدّثته عن آلام أصابع قدميْها المبرحة وعن «حالتها العامّة الأشبه بالزُّبالة»، فهي لا تتغذّى بالشّكل الكافي، تدخّن كثيرًا، تنام نومًا مضطربًا ممّا جعلها تتجشأ كثيرًا- بَرْبْ، أعذرني!- أعلمته أيضًا أنّها أصبحتْ تشبه «مرجلًا سريع الغليان» أكثر من العادة... ثمّ أنهتْ حديثها ببعض المزاح الّذي تملك سرّه وحدها:

- ما تزالُ بعيدًا عن الموت كلّ البعد، يا عثنوني الحبيب، تبدو في صحّة جيّدة.

لم يكن ليون متّفقًا معها في هذا الصّدد:

- إنّي أخدعُ كلّ المحيطين بي في كلّ ما يتعلّق بصحّتي. أبدو نشيطًا لكنّ ضغط الدّم عندي لا يكفّ الازدياد. النّهاية قريبةٌ يا فريدا.

لم تستطع فريدا منع نفسها من الضّحك:

- كان عليْك أن تُضيف إلى الّذي قلته إنّك بالرّغم من كلّ الّذي يحدثُ تظلّ ثوريّا بروليتاريّا وماركسيّا وماديّا جدليّا، ما يعني أنّك ملحدٌ متشدّدٌ.

- تماما، وأشعر أنّ النّزيف الدّماغيّ على الأبواب.

- ولهذا تعتزم كتابة وصيّتك قبل حلول هذا المساء؟

- سأوصي بنقل كلّ ما أملك لنتاليا، وهكذا يتسنّى لي تقرير لحظة موتي بنفسي.

- إذنْ، لن يكون ستالين الّذي سيتكفّل بقتلك؟

ابتسم تروتسكي ولم يردّ عن سؤال فريدا الّتي اغتنمت الفرصة لتتابع قولها:

- لقد أصبح منزلُكَ عبارةً عن معسكرٍ حقيقيّ يصعبُ اختراقه. سيحتاجون إلى جيش كاملٍ لإزاحتك من هنا. قيل لي إنّك ضممت مُساعديْنِ آخريْنِ.

- هذا صحيحٌ، قال تروتسكي. سأعرّفك عليهما حتّى تبدي رأيك فيهما.

سعدتْ فريدا بذلك. سيتمكّنان أخيرًا من الانتقال للحديث حول شيء آخر لا يتعلّق بالوصيّة وما يتبعها من أجواء كئيبة. توجّه ليون ناحية النّافذة المفتوحة وأشار لشابّ واقفٍ في السّاحة. حدّثها عن ذلك الشّابّ من قبل، إنّه روبيرت شيلدون هارت الأمريكيّ المُكنّى بـ«بوب» والّذي كلّفه بحراسة المنزل.

- لقد أحبّه الجميعُ هنا، قال تروتسكي، لا علاقة له بالثّقافة، يقوم بما عليه فعله دون شكوى أو تبرّم. حتّى أنّه فرغ لتوّه من تجديد كلّ الأسلاك الكهربائيّة المربوطة مباشرةً بجهاز إنذار شرطة الحيّ.

- هل تعتقد أنّه قادرٌ على أن يجلب لي بعض علبٍ من سجائر «اللّاكي» أو «التشيسرفيلد»، لا أملك النّقود الكافية لشرائها؟

- أحدّثك عن الأمن فتحدّثينني عن السّجائر!

- أي نعم، يا حبيبي، تلك فريداكَ!

في تلك الأثناء، طرق أحدهم باب مكتب تروتسكي. دخلت شابّة تحملُ حافظةً مليئةً بقصاصاتٍ صحفيّة. كانت في الثّلاثين من عمرها، قصيرة القامة، نحيفة وتضع نظّارتيْن سميكتيْنِ.

- أمريكيّة حقيقيّةٌ، سكرتيرة حقيقيّةٌ، تروتسكيّة حقيقيّة! قال تروتسكي.

كانت الّتي وظّفها في الآونة الأخيرة مع «بوب».

ظلّت المرأتان تطيلان النّظر إلى بعضهما البعض. بدت الشّابّة متفاجئة مثلها مثل فريدا.

- سيلفيا أغيلوف، قالت.

- صديقة جاك جاكسون؟ قالت فريدا متردّدةً.

ابتسمت سيلفيا أغيلوف:

- ليس جاك بل فرانك، فرانك جاكسون.

- نعم، تماما، قالت فريدا. إذن أنا تلقّيتُ رسالةً من فرانك جاكسون. اعتقدتُ أنّكما ستصلان خلال شهرٍ.

في تلك الأثناء، كانت السّكرتيرة بصدد وضع ملفّاتها على مكتب تروتسكي وباستماعها لكلمات فريدا الأخيرة أبدتْ نوعًا من الاندهاش.

- نحنُ هنا منذ أكثر من شهر!

- لم نجد طريقة لإقناعها بالإقامة عندنا، قال تروتسكي ثمّ أضاف بنبرةٍ مازحة: هي مقيمةٌ مع خطيبها. لابدّ أنّها مغرمةٌ جدّا حتّى تتمكّن من العيش إلى جانب شخصٍ يرفض مجرّد الالتقاء بي!

- لا ليس هذا. إنّه يكره السياسة. يقول إنّها لا تصلح لشيء!

- قناعة غريبة. قال تروتسكي ثمّ سأل: وما هو عمله؟

- إنّه وكيل أعمالٍ لدى شركةٍ نفطيّة كبيرة.

- اعتقدت أنّه مسيّر فريق بلجيكيّ لنَحّاتي الماس، قالت فريدا معترضةً.

- لا أبدًا، يا لهذا العمل، ردّتْ سيلفيا.

- لا عليك، لابدّ أنّي أخطأتُ قالت فريدا الّتي توجّهتْ بخطوةٍ عرجاء ناحية تروتسكي لتقترح عليه الذّهاب إلى الحديقة «لتفقّد عمله كبستانيّ ولإطعام الأرانب...».

42

أحيانًا، هنالك تلك الأحداث الّتي قد تبدو بلا قيمةٍ غير أنّها تُساعد على تأبيد تفاصيل الحياة. وهو تمامًا ما حدث خلال ذلك الأحد الّذي يقابل «عيد الشّموع». في ذلك العيد، جرت العادة أن يتمّ إكساء تمثال طفلٍ باللّون الأبيض، وهو تمثال يرمزُ للطفل الإله الأسطوريّ «بلتيزين تكوتلي». مناسبةٌ تُعِدّ خلالها النّسوة لفائف «التّامال» المحشوّة باللّحم أو بالذّرة النّاعمة. في ذلك اليوم، استقبلتْ فريدا بعضًا من جيرانها. وحينما كانت بصدد ترتيب فطائر «كِريبْ الكُوسَا» والفاصوليا الحمراء المُغمّسة في الجُبن والحبّات الأخيرة من كعك الفواكه الّتي لم يذق مدعّووها لها طعمًا ولا حتّى حملوها معهم، اقتحم فرانك جاكسون المطبخ وهو محمّلٌ ببباقته الهائلة كما تعوّد. دعتْهُ فريدا للجلوس ثمّ قدّمت له طبقًا من المُعجّنات الّتي تبقّتْ من المأدبة. بدا لها شبيهًا بعاشق خجولٍ في تلك الأفلام الصّامتة. لكنّ الرّجل الّذي كان يجلس قبالتها لم يكن هو نفسه الّذي التقت به في باريس ولا الّذي جاء لزيارتها منذ بضعة أشهرٍ. بدا لها كأنّه شاخ قبل الأوان. كان ذا ملامح شاخصةٍ أو كمن خرج لتوّه من حالة تسمّم. ازدادتْ متلازماتُهُ المتشنّجةُ كمًّا وكيفًا. كان يتحدّث بشكلٍ سريعٍ متعثّرًا في أغلب الكلمات الّتي ينطق بها، لينتهي به الأمر إلى التّأتأة الواضحة. ما يزالَ كما هو يولي اهتمامًا لما يضع من ألبسة ممّا يجعله يبدو أنيقًا دائما على الرّغم من نظّارتيْهِ اللّتيْنِ لإطاريْهما شكلُ قَرْنَين.

وعندما اعترفتْ له فريدا بعدم فهمها لرحيله الغامض ولا لرسالته الّتي أعلمها فيها بقدومه في تاريخ محدّد تبيّن فيما بعد أنّه لم يكن صحيحًا لأنّه على ما

بلغها كان قد وصل إلى هنا منذ شهرٍ بالرّغم من قوله إنّه يرغب في رؤيتها، ظلّ على غموضه وتورّط في مبرّراتٍ يكذّبه بعضها البعض، مبرّراتٍ لم تكن لتقنعه هو نفسه. تفسيرٌ واحدٌ كان صحيحًا ويخصّ السّبب الّذي دفعه للمجيء إليها: لقد التقى بتروتسكي.

- ظننتُ أنّ ذلك ليس من اهتماماتك وأنّ السّياسة لا تصلح لشيءٍ، قالت فريدا.

- هذا صحيح، لكن ألَا يُقال إنّ الظّرف هو من يصنع السّارق؟

وهكذا روى لها كيف أجبرتْهُ سيلفيا الّتي سافرت إلى نيويورك على أن يعدها بالذّهاب معها للالتقاء بتروتسكي حال عودتها، وكيف شاءتْ الصدّفة وحدها أن يصافح يد ذلك الرّجل الّذي يملك ذكاء خارقًا «لنعترف بذلك رغم كلّ شيء». باختصار، هكذا جرت الأمور: كان مُتعوّدًا على إيصال سيلفيا إلى شارع فيينّا على متن سيّارته «البويك» الفاخرة والعودة مساءً لانتظارها أمام الحرّاس الّذين كانوا يعتلون البرج القائم فوق السّور المُحيط بالمنزل بأسلحةٍ في قبضاتهم وبأصابع على الزّناد. لذلك لم يجرؤ يومًا على دخول تلك القلعة. ذات صباحٍ وهو يرافق سيلفيا كعادته التقى رجلًا يُدعى «ألفريد روسمر» ومعه زوجته «مارغريت» وهما المناضلان التّروتسكيّان اللّذان كانا قد جلبا حفيد تروتسكي من باريس. بمرور الأيّام تواصلتْ لقاءاتُهُ بذيْنك الزّوجين إلى نشأت معهما صداقةٌ مّا. كانا يريان فيه صورة الشّابّ الحسّاس ويرى فيهما المنتبهيْنِ لوحدته. التقوا عدّة مرّاتٍ لتناول العشاء والتّجوّل معا. وعندما مرض «روسمر» ذات مرّة اقترح عليه اقتياده إلى المستشفى الفرنسيّ في مكسيكو، فوافق. لذلك تعدّد ذهابه وإيّابه بين المستشفى والقلعة. ذات يومٍ، عندما ذهب لشراء الأدوية وحملها إلى القلعة، ألحّ «بوب» على إدخاله لأنّ تروتسكي يريد الالتقاء بهذا الشّاب الكريم.

- كيف كان اللّقاء إذن؟ سألت فريدا.

- كان قصيرًا جدًا ولطيفًا.
- كيف وجدت تروتسكي؟
- كان الّذي حدث غريبًا، توقّعتُ أن يكون رجلًا يسعى بالخصوص وراء تحقيق رغباته الشّخصيّة يدفعه إلى ذلك تعطّش للانتقام والكراهيّة، رجلًا لم يكن النّضال العمّاليّ أكثر من تعلّةٍ لإخفاء تفاهته وحساباته الضيّقة إلّا أنّي التقيتُ بزعيم سياسيّ حقيقيّ غارق في نضاله من أجل تحرير الطّبقة العاملة.
- إذن، أيّ تحليل يمكن أن يدلي به شخصٌ لا تعنيه السّياسة؟
- في الحقيقة، أكثر ما لفت انتباهي هو المنزل. أحتفظ بما يُشبه الصّورة الفوتوغرافيّة الدّقيقة عن المنزل والفناء والجدران وبرجيْ المراقبة والغرف بمن ينام فيها ومكتب تروتسكي ونظام الخطوط الهاتف والأسلاك الكهربائيّة وجهاز الإنذار وكلّ الأجهزة الأوتوماتيكيّة الأخرى الّتي رُكّزتْ لأمن الإقامة. ثمّة مدينةٌ كاملةٌ في ذلك المنزل بأعوان شرطته وحرّاسه والنّظام الّذي يتبعونه.
- أنت لست رجل أعمال، لابدّ أنّك جاسوس.
- يا لِلْمَلل!

في الأسابيع الموالية تواصلتْ لقاءاتُ فريدا وفرانك عدّة مرّاتٍ. نشأ نوع من الصّداقة والمحبّة بينهما. كانا يقضيان أمسياتهما معًا في نادي «الكيت كات»، البار الّذي يقع في ملتقى شارعيْ الاستقلال و«الكال دولوريس». وكانا يستمتعان في عبور كلّ مدينة مكسيكو على متن حافلات صغيرة يُطلق عليها اسم الشّاحنات والّتي كانت تتوغّل بهما بسرعةٍ كبيرة في الشّوارع المليئة بالبضائع وبسكّان المكسيك الأصليين الملتحفين بأرديةٍ بيضاء. وكانا يتناولان العشاء في «إنجلاس»، أكثر مطاعم المكسيك شياكةً إلى أين تأتي شابّاتٌ برجوازيّاتٌ في

فساتينهنّ الحريريّة الشّفافة بألوانها الوردية الشّاحبة وبكعوبهنّ العالية طراز لويس الخامس عشر، وشبّانٌ في أحذيتهم المنخفضة وقبّعاتهم الأمريكيّة.

خلال «أسبوع الآلام»، شاهدهم الجميع وهما يسيران يدًا بيدٍ ضاحكيْنِ من المجسّمات الورقيّة العملاقة ليهوذا الّتي كانتْ تحترق محدثةً انفجاراتٍ صغيرة. شاهدوهم أيضًا وهما في ساحة «التّوروس»، حلبة مصارعة الثّيران المشيّدة بالحديد والإسمنت المُسلّح والّتي تشبه في شكلها الخارجيّ إلى خزّان غازٍ عملاقٍ تملؤهُ الاستعراضاتُ العساكر الّذين يؤدّون نغماتٍ نحاسيّة على صهوة خيولٍ مغطّاة بالرّيش الأسود شاهرين سيوفهم الوامضة تحت أشعّة الشّمس، منها يتقاطر الدّم أسود بعد ذبح الثّور الجاثي على ركبتيْه الأماميّتيْنِ قبل أن يتلقّى طعنات أخرى. شوهدت فريدا باكيةً ومرتعدةً بين ذراعيْ فرانك جاكسون الّذي بدا متحمّسًا في متابعة المشهد الدّائر أمام ناظريْهِ.

على إثر انتهاء الجنون الدّينيّ الّذي يتّصف به «أسبوع الآلام»، والممارسات الوثنيّة الّتي تتمّ في حلبات الثّيران، استعادت السياسيّة حقّها في التّعبير عمّا فيها من جنونٍ. أطلقت الصّحافة العنان لمهاجمة تروتسكي من جديد. مثّل الأوّل من مايو مناسبة مثاليّة لعناصر منتمين للحركة الشيوعيّة أو المناصرين لها للتّعبير عن رفضهم لتواجده في البلد. انطلقت حركة جماهيريّة حاشدة في محاولةٍ للتّأثير على الحكومة انتهتْ بالفشل. لذلك، اضطلعت الجرائد بمواصلة حثّ الجماهير على النّضال بالقيام تحرّكاتٍ يعرضون فيها لافتاتٍ تفضح «أكثر الخونة خطورةً وشراسةً». وجّه كلّ عمود صحفيّ تهمةً خاصّةً. وهكذا تواترت التّهم على تروتسكي من كلّ مكانٍ، فهو من نقض وعده بعدم التدّخل في شؤون البلاد الدّاخليّة، وهو عميل لإسبانيا فرانكو، وهو الجاسوس لصالح المعسكر الرّجعيّ للجنرال «خوان أندرو ألمازان»، وهو أيضًا العميل السرّي لشركات نفطيّة أمريكيّة. ولفضح كلّ هذه التّهم، عمدت صحف «البوبيلير» و«الماشيت» إلى إنجاز طبعات خاصّة وتوزيعها على صناديق بريد سكّان المكسيك.

أحيانًا تضيق فريدا ذرعًا بكلّ «ذلك القرف» وفق تعبيرها وبفرانك الّذي هو أبعدُ من أن تطاله بذاكرته المُذهلة الّتي صارتْ تُحيّرها والّذي أبدى استعداده ليصبح عشيقها برغم وعوده لسيلفيا بالزّواج. في نهاية شهر مايو، أنجزتْ طلبَ بورتريهًا لـ«سيغموند فريستون»، جامع الآثار الفنيّة الثّريّ المقيم في مدينة روتشيستر الأمريكيّة مقابل خمسمائة دولارًا. اختارت ذلك العمل ألوانًا مبهجةً أضافتها لخلفيّةٍ ذات اللّون اللّيميّ، «لونُ الجنون والالتباس، لون ملابس الأشباح الدّاخليّة، لون المخبولين الّذين أصبحتُ واحدةً منهم». كانت تشعر بالإنهاك الشّديد، بالاكتئاب والسأم إلى درجة أنّها قرّرتْ قبول دعوة «إميليو شيشي» النّاقد الإيطاليّ وهو رجل وسيمٌ في الخمسين من عمره، أحبّت شاربيه الأسوديْنِ. وكان قد كتب عدّة مقالات هاجم فيها دييغو. وبما أنّ ذلك القرد البدين كان يتحدّث في كلّ مكانٍ يتواجد فيه عن اعتزامه على الزّواج من جديد، فإنّها راحت تُخطّط ليكشف العالم بأسره أنّها ذاهبةٌ في زيارة لمقبرة «التّيبياك» مع شخصٍ يعتبرهُ مجرّد كيسٍ بشريّ مليء بالحساء غارقٍ في الدّعاية السّياسيّة معتبرًا نفسه الأجدر «بتزيين التّريكاليوم الّذي ينتمي لأثرياء أجانب» ما يعني غرفة طعام المبنى الجديد لقصر البورصة في سان فرانسيسكو.

في الطّريق المؤدّي إلى «التّيبياك»، لم يتوقّف إميليو عن مدح فريدا: فقياسًا مع الكتلة «الفيليّة» لدييغو فإنّها تُعدّ أكثر رشاقةً وصغرًا. فبالنّسبة إليه، هي الأجدر بحيازة لقب الرّسّامة الأولى، أكبر المجدّدات، الرّسّامة الحديثة، بينما لا يعدو دييغو في العمق إلّا أنْ يكون رسّامًا من الدّرجة الرّابعة.

- أنت تعلمين ذلك فريدا، أحدّثك بصراحة كبيرة، وتلك طبيعة قلمي، إذا ما أزحنا من أعماله الأسلوب الدّعائيّ والفلكلور والنّفَسَ المضحك لا يبق في أعماله سوى الشّيء القليل...

كانت فريدا الّتي لا تزيح عينيها من وجه الإيطاليّ سعيدة بالاستماع إليه. فهو البلسم الّذي سيمكّنها من نسيان دييغو الحقير.

تجاوزا الحرم المُخصّصَ للعذراء، القبّة الّتي تتراكمُ فوقها الزّهور وأمامها يجثو عدد كبير من الهنودِ. كان الدّخول إلى الجبّانة يتمّ عبر طريقٍ مُتصاعدةٍ ومبلّطةٍ ومتعرّجة يحفّها من الجانبيْنِ جداران مُنخفضان. من الغريب ألّا تكون فريدا قد زارتْ هذا المكان من قبل، لذلك فقط تمنّى «شيشي» أن يكون أوّل من يجعلها تكتشفه: من أعلى المدرّجات، كان يمكن مشاهدة كلّ المنخفض أين تقع مدينة مكسيكو المحاطة بجبالٍ زرقاء وبحيراتٍ برّاقةٍ. لكن، لم يكن ذلك المشهد أكثر ما هزّ كيان فريدا. ففي غمرة العُنف الّذي لمسته على تلك النّباتات الاستوائيّة البرّيّة الّتي تُفضّلها الحركة الرّومنسيّة ثمّة آثارٌ جنائزيّةٌ تضفي على المشهد نوعًا من الاختلال -مجسّماتٌ ملائكيّة رخاميّة، رموزٌ مدنيّة، ألواح اسمنتيّة مخترقة بجذور شجريّة هائلةٍ- تراءى لفريدا ما يُشبه السّقيفة الصّغيرة حيثُ كان البستانيّون يضعون أدواتهم وحيث يودع متعهّدو دفن الموتى مصابيحهم الجنائزيّة- كان المكان قاتمًا وكثير الرّطوبة. بدت هذه السّقيفة الخشبيّة كأنّها تخفي كوّةً تفتح مباشرةً على غرفة انتظار الموتى. دبّ الرّعبُ في نفسها. وكان هنالك لافتةٌ صغيرةٌ تذكّر الزّوار أنّ القبور هنا إنّما هي مساكنٌ أبديّةٌ. كانت لافتةً سخيفةً ومخيفةً في آن. وكان في عمق السّقيفة يتركّزُ تابوتٌ خشبيّ قديمٌ ومتآكلٌ، وكان مفتوحًا. شعرت فريدا بنوع من الانجذاب إلى التّابوت. أمسكت يد «شيشي» وتوجّهت ناحيته. كان التّابوت فارغًا بطبيعة الحال، لا يحتوي سوى على ما يُشبه مفرشًا من الأوراق الميّتة والمتحلّلة. دبّت رعدةٌ في فريدا وشعرتْ كأنّ نَفَس الموت الكريه داعب وجهها.

بعد مغادرتها المكان، طلبت من الإيطاليّ أن يرافقها مباشرةً إلى منزلها. لم يفهم الرّجل شيئًا. لماذا كلّ هذا التّسرّع؟ كان الجميع قد حذّروه، الزّوجان ريفيرا ثنائيّان مريضان: مطلّقان أم غير مطلّقيْنِ، ذلك ما لا يغيّر شيئًا.

قضتْ فريدا تلك اللّيلة مرتعبةً. لم تتمكّن من النّوم. لم تكفّ عن تذكّر ذلك التّابوت الّذي كان يمتلك شيئًا خارقًا. كان الموتُ في كلّ مكانٍ من حولها. لذلك امتنعت عن النّوم، ستظلّ مستيقظة حتّى تمنعه من إصابتها.

43

كانت فريدا منهارةً في ورشتها ومنكسرةً. كانت بالكاد قادرةً على التّنفّس. لقد سمعت الخبر في الرّاديو وها هي تحاول استيعاب حقيقة الّذي جرى. حدث كلّ شيء بسرعةٍ كبيرةٍ. اعتقدتْ للحظة أنّها كانت في إحدى كوابيسها. كان خبرًا مروّعًا: تعرّض تروتسكي منذ لحظات إلى هجومٍ! «اللّعنة، ردّدتْ في نفسها، لقد شعرتُ بذلك البارحة في مقبرة التّيبياك. كلّ تلك الأشياء الفظيعة أشعر بها قبل حدوثها!» حاولت الاتصال بالمنزل دون جدوى، كان الهاتف مُعطّلًا. أمّا الكازا أزول فقد كانت محاصرةً من قبل الشّرطة الّذين منعوها من الخروج. كانت الأخبار تردُ عليها منقوصة ومتناقضةً. أعلنوا في بادئ الأمر، أنّ مجموعةً صغيرةً من الرّجال في أزياء الشّرطة البلديّة تمكّنوا من اقتحام المنزل في حدود الرّابعة صباحًا من هذا اليوم 24 مايو 1940، واغتالوا كلّ المقيمين فيه بما في ذلك الطّفل الصّغير الّذي حاول الفرار. أكّدوا على أنّ الاقتحام حدث ليلًا من قبل مهاجمين يتحدّثون الإنجليزيّة بلكنةٍ أمريكيّة وأنّهم صرخوا في الحُرّاس «إذا بقيتم حيثُ أنتم في الدّاخل، لن نمسّكم بسوء!» ذكر بيانٌ آخر أنّ حوالي عشرين رجلًا في أزياء الجيش المكسيكيّ قد تمكّنوا من اقتحام المنزل وفي أياديهم مدافع رشّاشة من النّوع «الطومسون» وأنّهم شرعوا في إلقاء قنابل حارقة ثمّ أطلقوا الرّصاص على النّوافذ والأبواب المُوصدة. قُتِل الجميع فيما عدا تروتسكي الّذي أصيب بجروح بليغةٍ والّذي تمكّن من استخدام سلاحه. وأفاد بيانٌ ثالثٌ متناقضٌ مع البيانيْنِ السّابقيْن: كان «بوب شيلدون هارت» من فتح الأبواب للمهاجمين، لذلك تمكّنوا من الولوج إلى القلعة دون عراقيل تُذكر. تمّ

تقييد الحرّاس الشّخصيّين ثم خطفهم وقتلهم بكلّ تأكيد. قُتل سيبفا وانزلق جثّةً هامدةً من على السّطح إلى حيثُ لجأ، أمّا تروتسكي وناتاليا فقد اختارا الانتحار. من المنتظر، ألّا يُعثر على أيّ أثرٍ للمهاجمين لكنّ الشّرطة تفترض أنّ أحد المسؤولين الكبار في الحزب الشّيوعيّ المكسيكيّ قد يكون شاركَ في المذبحة...

في نهاية الأصبوحة، ولج إلى الكازا أول أحد المُقرّبين من الكولنيل «لياندرو سانشيز سالازار»، رئيس المخابرات في مديريّة الشّرطة، والّذي كان فجرًا قد أجرى بحوثه في منزل شارع فيينّا برفقة بعض القُضاة والصّحفيّين. دخل إلى الكازا أزول كما يدخل إلى منزله. بإمكانه إذن أنْ يُسعف فريدا بأخبارٍ أقلّ عجائبيّة من الّتي وردتْ في الرّاديو لكنّها مطالبةٌ قبل ذلك بأن تستقبله متوخّيةً كلّ الحذر. راحت الأدلّة تتراكم: عثرت الشّرطة على بقايا قذائف كثيرة وشُحناتٍ عديدةً وكمّيات مهولةٍ من الخراطيش وعلى منشار كهربائيّ واثنتيْ عشرة قطعة من الدّيناميت وأسلاك كهربائيّة مخصّصة للمتفجّرات وعلى قنبلتيْن حارقتيْن، كما شرعت في تحليل آثار الأقدام والبصمات، بعد ذلك وجدتْ شاحنات وسيّارات اُستخدمت في نقل «الكوماندوز»... وهي عصابةٌ متركّبةٌ من عدّة رجالٍ مسلّحين كانوا قد تمكّنوا من دخول المنزل ليقصفوا الغرف الّتي افترضوا بأن تكون ناتاليا وتروتسكي ينامان داخلها ثمّ عادوا من حيثُ أتوا.

- لم يمتْ أحدٌ على أيّ حال.

كادت فريدا أنْ تنفجر بكاءً. ها قد علمت أخيرًا أنّ تروتسكي على قيد الحياة. سكبت لنفسها كأس كونياك كبيرًا دون تقديم أيّ شيء للشّرطيّ.

- هل هناك جرحى؟

- الطفل الصّغير.

- هل إصابته خطيرة؟ سألت فريدا مفكّرة في سيبفا الصّغير الّذي عاش رغم حداثة سنّه محاطًا بالأموات والأشباح وبالكثير من العنف.

- أعتقد أنّها كذلك...

- من هم الجُناةُ؟

- سنتحدّث عن ذلك لاحقًا مدام ريفيرا، قال المفتّش. لدينا بعض الشّكوك... وقد أتينا إلى هنا لتساعدينا.

- طبعًا، أجابت فريدا مع أنّها في سرّها لا ترى بماذا يمكنها أن تساعد الشّرطة الفيديراليّة.

- ثمّة أمرٌ أخيرٌ، قال الشّرطيّ، لا تستغربي، لقد تمّ قطع خطّك الهاتفيّ. لا يمكنك إجراء المكالمات ولا استقبالها إلى أن يأتي ما يخالف ذلك.

- لكن، لماذا؟

- هي التّدابير الأمنيّة.

لو لم تكن فريدا ما تزال تحت وقع صدمة هذا الصّباح الرّهيب، لكانت انفجرت صارخةً في وجع الشّرطيّ، لكنّها لم تعد تملك القوّة الّتي تمكّنها من ذلك ولا حتّى لتُبدي أيّ معارضةٍ أمام هذا الأسطول الّذي غزا منزلها وراح يقلبها رأسًا على عقبٍ. انعزلت في ورشتها وظلّت تنتظر هدوء العاصفة. لم تكن تشعر أنّها قادرةٌ على المقاومة، لا ليس اليوم ولا الآن.

- أنا لا أفهم حقّا ما الّذي يحدث، انتهت بأنْ تقول للشّرطيّ.

- مع أنّ الأمر بسيطٌ، أجابها ثمّ قدّم لها تفسيرًا لو لم يجعلها تغرق في يأسٍ تامّ لكانت انفجرت بتلك القهقهة الخاصّة بها وحدها.

في الواقع، حدثت أشياء غامضةٌ من شأنها أن تجعل البعض يعتقدون أنّ النّجاة من ذلك الهجوم المرعب إنّما هي عائدة للصّدفة وحدها الّتي كادت أن تكون معجزة، الأمر الّذي يجيز فرضيّة أنّ الهجوم هو مجرّد مسرحيّة من وضع تروتسكي وأتباعه. لقد تمكّن تروتسكي من تنظيم كلّ ذلك بنفسه، الأمر أشبه بدعاية هدفها كسب مزيدٍ من التّعاطف مع قضيّته.

- ليست تلك القضيّة سوى كوميديا، قال الشّرطيّ. حتّى أنّني كنت حاضرًا بنفسي في شارع فيينّا بعد لحظات من وقوع الهجوم، والتقيتُ بتروتسكي الّذي كان يجيب على أسئلتنا بهدوء أولمبيّ. لقد نجا لتوّه من الموت إلّا أنّه كان مسترخيًا مثل رجل جاء لاستقبال بعض الضّيوف في مدخل منزله.

- لقد كان دائمًا على تلك الحال لو عرفته. المزاج الجيّد والهدوء شبه الخارق والشّجاعة، ينتمي كلّ ذلك لطبيعته الاعتياديّة.

- لقد نجا من موتٍ محتوم بأعجوبة ومع ذلك يلعب دور جنتلمانٍ!

- روت لي ناتاليا القصّة التّالية: ذات يومٍ، انفجر سخّان الماء المُركّز في عليّةِ المنزل وانتشرت النّيران في كلّ مكانٍ. انتهى النّاجون باللّجوء إلى جناحٍ صغيرٍ خائبين ويائسين: التهمت النّيرانُ مخطوطاتٍ وأرشيفاتٍ. وبعد أنْ استقرّ الجميع، رتّبَ تروتسكي مخطوطاته فوق الطّاولة ثمّ دعا كاتبته وراح يُملي عليها فصولًا من كتابه الّذي كان بصدد إنجازه كما لو أنّ شيئًا لم يحدث.

- ذلك تماما ما فعله اليوم! على ما يبدو عندما وصل رجال الشّرطة وجدوه جالسًا إلى طاولته يكتب.

- أعتقد أنّ ردّة فعله تلك هي الوسيلة الوحيدة الّتي تحافظ على توازنه العقليّ. هل تفهم؟

- أنت تعرفينه جيّدًا على ما يبدو.

- نعم، هذا صحيح. يعلم هذا السياسيّ كيف يُسيطر على عواطفه وهذا أمر يمكن فهمه بكلّ بساطة.

- لا شيء بسيط في التّحقيقات، يا سيّدة ريفيرا. كلّ شيء معقّد. ولهذا أريد منك أن تتبعينا...

- ماذا؟

- نعم، في انتظار الانتهاء من التّفيش، نودّ طرح بعض الأسئلة عليْكِ، لنقل نودّ أخذ تصريحاتك.

- ماذا إن رفضت؟

- هو الكولونيل «ليأندرو سانشيز سلازار» شخصيّا من يودّ طرح بعض الأسئلة عليك... ولا يمكن الاستهانة بأوامر الكولونيل «ليأندرو سانشيز سلازار».

44

للرّجل الواقف أمامها قامة متوسّطة، بدا قويّا بالقدر الكافي وبطبعٍ هادئ وحازمٍ. الكولونيل رجلٌ خلاسيّ مليء بالحيّويّة، عيناه تُشعّان نشاطًا وذكاء ودهاءً. وبما أنّه ممّن أفرزتهم الثّورة فقد مرّ كلّ التّرقيات العسكريّة واُشْتُهِر بقبضته الحديديّة. بعد أن دعا فريدا للجلوس قبالته، أمرَ بكوب شاي سارع إلى التهام جرعاتٍ حارقةً ليشرع مباشرة في إجراء ما أسماه «المحادثة الودّيّة» أكثر من كونها «استجوابًا». أوصى الكاتبة بألّا تنسى ذكر تاريخ اليوم، 25 مايو 1940، وساعة المحاورة ثمّ انطلق بنبرة تغلبُ عليها اللّطافة.

في البداية، أطلع فريدا على خبرٍ لم تكن تعرفه. لقد كان الرّجل ذكيّا كفايةً حتّى يعرف أنّه خبر من شأنه أنْ يسبّب لها بعض الاضطراب الأمر الّذي سيستغلّه لصالحه. كان مكتب الكولونيل فخمًا تزيّنه ثلاث لوحات من إنجاز مُعلّمي رسم الجداريات في المكسيك: أوروزكو وسيكيروس وريفيرا.

- الثّالوث المقدّس، قال لفريد باسمًا وقد رآها تنقل عينيْها من لوحةٍ إلى أخرى.

أخذ الرّجل جرعةً أخرى من الشّاي.

- لم تدعني إلى هنا كيْ تحدّثني عن الرّسم، أليْسَ كذلك؟ قالت فريدا هازئةً.

- لا. لكنّي سأطلب منك أن تُخبريني بشأن واحد من هؤلاء الرسّامين خصوصًا أنّك تعرفينه جيّدًا: دييغو ريفيرا.

- صحيح... هو رسّام لا أستطيع إلّا أنْ أعرفه تمام المعرفة.

- هذا رائع. هل تعرفين أيْنَ هو الآن؟

- لا.

- إنّه متورّط في القضيّة.

- ماذا تريد قوله؟

- حسنًا، أيّتها السيّدة الكريمة، اعذريني على أن أكون صريحًا إلى أبعد حدٍّ، أنت تعرفين بلا شكّ أنّه يقتسم حياته بين امرأتيْنِ، الفنّانة المجريّة «إيرين بوهوس» والممثّلة «بوليت غودار».

- نعم، أعرف.

- بحسب ما انتهت إليه أبحاثنا، وبينما نحنُ نتهيّأ للبحث في منزله بسان أنخيل، عَبَرَ من أمام أنظار الثّلاثين رجلًا من رجال الكولونيل لاروزا وكان مُتخفّيًا تحت لوحاتٍ في عمق سيارة تقودها «إيرين بوهوس» وكانت بوليت غودار معهما تجلسُ في المقعد الخلفيّ. لقد كنّا ننوي إلقاء القبض عليه، لذلك يعتقد الجميع أنّه غادر التّراب المكسيكيّ...

- ولماذا كنتم تنوون إلقاء القبض عليه...

- لم يكن خلافه مع تروتسكي خافيًا على أحدٍ. ثمّة من أفادنا أنّ ريفيرا كان قد أقسم على قتله.

- مجرّد هراء!

- قيل لنا أيضًا أنّ المهاجمين اقتحموا المنزل صارخين «يحيا ألمازار»، الّذي هو كما لا يخفى عنك اسم المرشّح لرئاسة الجمهوريّة ضدّ كارديناس والّذي زوجك يدعمه...

- لم يعد زوجي أيّها الكولونيل.

- صحيح. أرجو أن تعذريني.

- هل تريد أن تقول لي إنّكم تشتبهون في تورّطه في محاولة اغتيال تروتسكي؟
- نعم. ربّما يكون من خطّط لها أيضًا. وهذا يعني أنّك تصبحين من المشتبه فيهم.
- سيكون من الأفضل أن تذهبوا للبحث بعيدًا...
- أين بالضبط؟
- في ناحية «سكيروس» على سبيل المثال. فهو لا يكفّ عن القول إنّه سينتهي بأن «يقضي على ذلك الخائن العجوز تروتسكي». ثمّ إنّ «سكيروس» قاتلٌ حقيقيّ على عكس دييغو تماما. لقد انتمى للثّورة المكسيكيّة ثمّ للفيالق السّتالينّيّة الّذين اغتالوا مناضلي الأناركيّة الأسبانيّين، إنّه من يحسن مسك السّلاح واستخدامه.
- هذا غريب. هذا ما قاله لنا تروتسكي هذا الصّباح. ولأكون أكثر وضوحًا، لم يدافع تروتسكي عن ريفيرا عندما أعلمناه بأنّه ينتمي للمُشتبه فيهم لكنّه تمسّك بسكيروس عندما ذكرنا اسمه... ماذا ترين؟

وفي ردّ رأتْ أنّه يناسبُ كلّ ذلك، وقفت فريدا وتهيّأت للمغادرة. إلّا أنّ ثلاثةً من الشُّرطة المسلّحين دخلوا المكتب لمنعها، فعاودت الجلوس. جرتْ بقيّة المحادثة في جوّ من الغموض التامّ. تحوّلت فريدا إلى ما يشبه إحدى شخصيّات كوابيسها البغيضة. لم تعد تسيطر على شيء. لم تعد تفهم شيئًا. كان ما يحدث أمامها في غاية القساوة والألم. هذا بالإضافة إلى دييغو الّذي فرّ مثل جبانٍ ساعدتْهُ على ذلك «عاهرتاه»! لكنّ الكولونيل «لياندرو سانشيز سلازار» زوّدها رغم كلّ شيءٍ بالمعلومات اللّازمة حتّى تُعيد تركيب كلّ مراحل الحادثة. لم يكن المهاجمون قتلةً محترفين كما اتّضح للجميع، لم يتدرّبوا كفايةً على أساليب التّفتيش الفعّال للمنازل. أمّا الهجوم في حد ذاته فقد تمّ بإيعازٍ من «بوب شيلتون هارت» الّذي كان من فتح لهم الباب. فبالنّسبة للمحقّقين، هذا الرّجل كان دون أدنى شكّ

شريكًا في المؤامرة، حتّى أنّه سارع إلى الهرب فيما بعد. رآه شهود عيان يركب واحدة من الشّاحنات الّتي توغّلت به في متاهة شوارع كويواكان. في النّهاية، لقد نجا كلّ مساعدي تروتسكي الّذين كانوا متواجدين على عين المكان خلال الهجوم، ابتداء من الطبّاخة إلى الخدم، مرورًا بالحرّاس الشّخصيّين والزّوجين «روسمر». وردتْ كلّ أقوالهم متّسقة: كان الهجومُ سريعًا وغير منظّم، تساءلوا جميعًا كيف تمكّن تروتسكي من النّجاة من طلقات المدافع الرشّاشة، وأكّد بعضهم أن بوب حاول التّصدّي لهم لذلك «تمّ اختطافه» من قبل رجال العصابة. الأفظع من كلّ ذلك، هي فرضيّة الكولونيل القاضية بتوريط ديبغو، ذلك غير معقول بالمرّة. كشف لها أيضًا أنّ الرّسّام ترك على مرسمه بورتريها لشّابّة هنديّة كان بصدد الاشتغال عليها وبورتريها آخر لـ«بوليت غودار». وجد رجال الشّرطة السّكاكين الصّغيرة والفُرُشَ ملطّخة بالدّهان المبتلّ. من الواضح أنّه لم يكن يخطّط لفراره.

- وماذا عن سييفا، سألت فريدا، هل هو بخير؟

- نعم. أصيب بخدش بسيط في القدم. لامسته رصاصةٌ. هل تعلمين أنّنا عثرنا على ما لا يقلّ عن ثلاثة وسبعين أثر رصاصة على الجدار فوق سرير تروتسكي مباشرةً؟ تابع الكولونيل قوله وهو غارق في التّفكير. هما إمكانيّتان اثنتان لا ثالث لهما: إمّا هو مجرّد تمويه يرمي إلى تشتيت انتباهنا أو مجموعة من الحمقى الّذين أخفقوا في توجيه ضربتهم...

- هل يمكنني العودة إلى منزلي كولونيل؟

- سأجعلهم يرافقونك.

- أنا حرّة؟

- نعم. لكنّك تظلّين ذمّة الشّرطة. أنت حرّة ودون هاتف لعدّة أيّام على الأقلّ، إلى أن تهدأ الأمور... نعرف قطع الخطوط بشكل سريع، لكنّ إعادتها تتطلّب وقتًا أطول.

45

بعد عودتها إلى المنزل، عاشت فريدا أيّامًا من الوحدة المُرعبة. أيّامًا لم تكف الشّرطة خلاله عن مراقبة الحركة ذهابًا وإيّابًا. ظلّ الهاتف كما هو مقطوعًا. الخبر الوحيدُ الّذي ورد عليها من «الخارج»، كانت الرّسالة المطوّلة الّتي تلقّتها من دييغو، وفيها اعترف بأنّه ارتعب من فكرة التّعرّض لهجوم مشابه لما تعرّض له تروتسكي، لذلك لجأ لمحاميه للتّخفّي في بادئ الأمر ثمّ سلّم نفسه للشّرطة أين خضع لاستجوابٍ روتينيّ انتهى بإطلاق سراحه. أخبرها بأنّه حصل على فيزا من سفارة الولايات المتّحدة الأمريكيّة بهدف مغادرة البلاد. لكنّ جزء الرّسالة الأكبر كان مخصّصًا لقضيّة حميميّة يحتاج فيها إلى مساعدة فريدا دون غيرها. كان إلى جانب خوفه منْ أن يعثر عليه القتلة يخشى أن يتعرّض منزله للسّطو، لذلك كان يريد منها أن تنقل ما أسماه «كنز مونتزوما» إلى مكانٍ آمن. لذلك، فإنّ فريدا مطالبةٌ بتغليف التّماثيل الواحد بعد الأخرى وأن تحصيَها وأن تضعها كلّها في صناديق كبيرة من الخشب وألّا تترك في منزل سان أنخيل سوى الأثاث عاريًا.

كتبتْ له ردّا فوريّا قالت له فيه إنّه بإمكانه النّوم ملء جفونه. ستنجز كلّ ما طلب منها، ستضع جانبًا القطع الأكثر قيمةً وهشاشةً، ستنقل إلى منزلها الرّسومات والصّور الفوتوغرافيّة واللّوحات، ثمّ أضافت أنّه في عودته سيجد منزله نظيفًا وحديقة مرتّبةً بعنايةٍ. الّذي لن تقوله سيكون بالتّأكيد عذاباتها الّتي ستعيشها في تنفيذ المهمّة المنوطة إليها. ستذكّرها كلّ قطعةٍ تغلّفها لتضعها في الصّندوق الخشبيّ بحياتها معه. لكلّ تمثال صغير، لكلّ رسم، لكلّ صورة فوتوغرافيّة قصّةٌ كانت ذات يومٍ قصّتهما معًا: قصّة فريدا ودييغو. أنهت رسالة

بإعلامه أنّ «أولئك القذرين» بإمكانهم قتلها، قتل فريدته الصّغيرة لكنّها لن تسمح لهم بسرقة أشيائه الثّمينة. في الحقيقة، كانت تشعر في داخلها بفراغ رهيب. فبعد أن تحرّرت كما كانت تتمنّى دائمًا ها هي عاجزة لا تعرف ما الّذي يمكن أن تفعله بهذه الحريّة. إنّها غير قادرة على العيش بعيدًا عن حبّ دييغو، كان طلبه للمساعدة أمرًا رائعًا. لقد طلب مساعدتها هي دون غيرها لأنّها الوحيدة القادرة على فعل ذلك. لأنّها الوحيدة الّتي لا يمكنه تجاوزها.

30 مايو، عاد الخطّ الهاتفيّ للعمل أخيرًا. الشّخص الأوّل الّذي كانت تتمنّى مكالمته لم يكن دييغو رغم كلّ شيء، لكنّه ليون. إنّها في حاجةٍ ماسّة لسماع صوته. كانت من النّادرات اللّواتي يملكن رقم خطّه المباشر، ذلك من شأنه أن يجنّبها المرور عبر ناتاليا أو أيّ من مساعديه. كان هو من رفع السّمّاعة. وصلها صوته متّزنًا اتّزانًا عجيبًا. اتّبع أسلوبًا ساخرًا تقريبًا في إطلاعها على حقيقة ما جرى، على كلّ ما شاهد وسمع وعاش. كان قدم نام متأخّرًا خلال ذلك اليوم لأنّه عمل كثيرًا. تناول حبّة منوّمة. حدث كلّ شيء بسرعة كبيرة. تعالت طلقات من عدّة مدافع رشّاشة قلّعته من سريره في السّاعة الرّابعة صباح. كان هناك انفجاراتٌ ورائحة البارود تنتشر في كلّ مكانٍ. غطّته ناتاليا بجسدها وهما ممدّدان بين الجدار والسّرير، بينما كان سيبفا يصرخ في غرفته. ثمّ ساد صمتٌ «شبيه بصمت القبور». اجتمع كلّ المتواجدين في الفناء، وتروتسكي الّذي سارع بالخروج إلى الشّارع أين وجد كلّ الحرّاس مجرّدين من أسلحتهم ومقيّدين...

- دام كلّ ذلك أقلّ من عشرين دقيقة، لا وجود لموتى أو جرحى، كان بوب الوحيد الّذي تمكنّت العصابة من اختطافه.

- وسيبفا؟

- سيظلّ صوت صرخاته في الظّلمة وتحت القصف وهو ينادي «جدّي! جدّي!» من أكثر ذكريات تلك اللّيلة المأساويّة.

- هل هو بخير؟

- إنّي أراه الآن في إحدى أركان الحديقة، بصدد اللّعب والاستمتاع. هذا الصّباح، عثر مرّة أخرى على رصاصةٍ مخترقةٍ للجدار، انتزعها بسكّين المطبخ ثمّ قال لي: «إنّنا لا نموت يا جدّي». إنّه رجلٌ صغير رائع. وإنّه يمنحني قوّةً لا تُصدّق.

- هل هناك جديد في خصوص سير الأبحاث؟

- بحسب آخر ما وردني من أخبارٍ، الهُجوم من تنفيذ عناصر استفزازيّة مُطاردة من قبل الشّرطة والجيش بهدف زعزعة أمن البلاد. يا للسّخريّة! وعليه، لكيْ يعيدوا السّلام إلى البلاد، لابدّ من طردي...

- ما الّذي يمكننا فعله؟

- لا شيء. أن ننتظر ظهور الحقيقة. ستظهر. سيتأكّد الجميع من أنّ «سيكيروس» من نفّذ محاولة الاغتيال.

- وماذا عن دييغو في كلّ ذلك؟

- دييغو مجرّد جبان. حتّى أنّه ووفق ما قيل، هرب للاختباء بعيدًا. هل تظنّين أنّه يجرؤ على التّخطيط لهجوم؟ إنّه يعرف كيف يرسم المسدّسات أمّا استخدامها فذلك شأن آخر... هيّا، علينا نسيان كلّ ذلك الآن. الحياة مستمرّة.

- مستمرّة لكن ليس بالشّكل الّذي كانت عليه.

- بلى. أؤكّد لك. لقد التقيتُ أخيرًا بصديقٍ لك، فرانك جاكسون، وقد أبدى استعدادًا لاقتياد الزّوجين «روسمر» إلى مدينة فيراكروز.

- اعتقدتُ أنّه رافق روسمر إلى المستشفى.

- لا، لقد ذهب روسمر المستشفى منذ أسبوعيْنِ، ذهب وحيدًا دون مرافقة من جاكسون.

- ألمْ تلتق بجاكسون منذ أسبوعيْن؟
- لا، أتذكّر التّاريخ الّذي التقيته فيه، كان يوم 28، بعد أربع أيّام من حدوث الهجوم التّافه. كنت في المدجنة حينذاك. صافحته بحرارة. حتّى أنّه أهدى سيفا طائرةً شراعيّة صغيرة. شرب كوب قهوة قمّ توجّه مباشرة إلى فيراكروز.
- ألم تجده غريبًا بعض الشّيء؟
- إطلاقًا. إنّه يبدو لي خجولًا ووديدًا. ورغم ذلك، لم أفهم لماذا لجأ إليّ هو الّذي كان يدّعي معرفة مكسيكو حق المعرفة كيْ أدلّه على أقصر طريق تُخرجه من المدينة... ربّما هو شخصٌ يحبّ اصطناع القصص، هي قصّةٌ إضافيّة، لا شيء مهمّ.
- بالعكس يا ليون، لكلّ شيء أهمّيته.
- لكن، لا يا فريدا. أنت تعرفين قصّة الرّجل الّذي لكيْ يخلّص صديقه من صداعه قام بإفراغ مسدّسه في جمجمته.
- هذا لا يُضحكني.
- لم لا. ينبغي عليك الضّحك رغم كلّ شيء. حسنًا، إليك نكتة أخيرة قبل إغلاق الخطّ، أنا مطالبٌ بالرّد على مقابلة وردت في جريدة إنجليزيّة: «الرّجل، كان محظوظا: من بين الثّلاث رصاصات الّتي أصابته، إلّا أن واحدةً فقط قتلته». هذه نكتة مناسبة، أليس كذلك؟
- نعم، هي كذلك بلا شكّ، قالت فريدا والموتُ يسكن روحها ثمّ قطعت المكالمة مع ليون فجأةً.

في غلق السّماعة، حاولت استيعاب الوضعيّة برمّتها. لماذا كذب عليها فرانك؟ يبقى ذلك سؤالا مؤلمًا. شعرت فريدا كما لو أنّها في مفترق طُرقٍ: إنّها تشتاق لدييغو، الهجوم الّذي استهدف ليون هزّ كلّ كيانها، فرانك يشدّها إليه

بألغازه، ثمّة انقطاعٌ تخلّل ممارستها الرّسم وهي لا تعرف إلى أين توجّه فنّها من هنا فصاعدًا.

أغرقت تداعيات الهجوم الفاشل الّذي استهدف تروتسكي المكسيكَ في وضع معقّدٍ. لا شيء واضح. تمّ إيقاف سائق دييغو الّذي شُوهد في الأنحاء مساء الهجوم. أمّا الحزب الشّيوعيّ فإنّه سعى جاهدًا للتّبرّؤ من تلك القضيّة. في بداية يونيو، عندما صرّحت الشّرطة باسم سيكيروس بشكلٍ واضح تبرّأ منه جهاز الحزب دون أيّ تردّد. في حقيقة الأمر، كانت الأبحاث متوقّفة. وإذا كانت نظريّة «مهاجمة- النّفس» -بمعنى أنّ تروتسكي هاجم نفسه بنفسه حتّى يُظهر الشّيوعيّين المكسيكيّين مظهر الإرهابيّين- ما تزالُ جائزةً فإنّ نظريّة تورّط سيكيروس قد أخذت في البروز أكثر فأكثر خصوصًا أن لا إشارة واحدة بدرتْ منه أو من أحد أتباعه. كانوا قد تبخّروا في الطّبيعة الأمر الّذي اعتبره البعض نوعًا من الاعتراف. خلال تلك الفترة، جمع أتباع تروتسكي وبعض المتعاطفين عدّة آلاف الدّولارات بهدف تحويل منزل كويواكان إلى حصن حصينٍ. تمّ رفع الجدرانُ إلى ستّة متر. شُيّد ملجأ صغيرٌ بأسقف وأرضيّاتٌ مقاومة للقنابل. تمّ تعويض البوّابة القديمة بأخرى مزدوجة صنعت من المعدن ورُبطتْ بنظام تحكّم كهربائيّ. وضعتْ مصاريع معدنيّة بسمك ثمانية سنتمترات على كلّ النّوافذ. تمّ بناء ثلاثة أبراج مضادّة للقنابل وهي أبراج لا تُشرف فقط على ساحة المنزل بل على كلّ الأنحاء المجاورة. كما تمّ تركيب شبكاتٍ من الأسلاك الشّائكة وأسيجة مضادّة للقنابل هي الأخرى. وأخيرًا، ضاعفت الحكومة المكسيكيّة عدد الشّرطة المكلّفة بحراسة المنزل ثلاث مرّات، خُصّصتْ لهم ثلاث نقاط مراقبة.

وبالرّغم من كلّ هذه التّدابير، ما تزال فريدة على القلق نفسه. فهي الّتي تعتبر أنّ تروتسكي إذا ما كان بعد على قيد الحياة فإنّ ذلك عائدٌ إلى مُجرّد نزوة حياتيّة. كانت كلّ يومٍ تفكّر في الرّجل الّذي يعيش في زنزانته منتظرًا يوم الحسم، لكنّه رغم ذلك لا يستسلمُ للعواطف مستخدمًا الدّعابةَ والسّخريّة كمتراسٍ:

«اعلمي يا فريدا أنّي منذ الهجوم، أقول كلّ صباح لناتاليا: هذا يومٌ سعيدٌ آخر، نحنُ على قيد الحياة». أحيانًا، كانت فريدا تفكّر أنّها تعيش فيما يُشبه الزّنزانة هي الأخرى لكنّها لا تستطيع أن تقول لنفسها كلّما طلع النّهار: هذا يوم جديد، هذا يوم سعيد- أنا بعد على قيد الحياة... ثمّ إنّ في بعض الأيّام تجد نفسها مشتاقة لذلك «الوغد دييغو» حقّ الاشتياق!

46

نعم. كلُّ ما تريده هو التّحدّث إلى دييغو. لكنّ الهاتف غير كافٍ. لابدّ من أن تراه، حتّى إن كان من أجل استعادة الرّسالة الّتي أرسلتها إليه. لا ينبغي أن تعثر عليها «ساقطتاهُ، بطلتاه الزّائفتان اللّتان يعتبرهما منقذتيْهِ من الموت، الآنسة بوهوس ومدام غودار». لذلك استقلّت أوّل طائرة إلى سان فرانسيسكو برغم آلام ساقها وظهرها الّتي شرعت في التّنكيل بها من جديد. هكذا وجدت نفسها في صبيحة من صباحات يونيو أمام باب ورشة دييغو، البناية رقم 49 من شارع «كاهُون» في حيّ «تيلغراف هيل». كان صباحًا جميلًا ومُنعشا، السّماء زرقاء صافية. كان ثمّة ضوء لازورديّ يتراقص من أعالي الأشجار وعصافير بألوان زاهيةٍ تنتقل هنا وهناك مثل براعم من الورود الّتي تفتّحتْ حديثًا. كانت فريدا سعيدةً لأنّها نجحتْ في التّوفيق بين رغبتها العميقة وأفعالها. لكنّ الباب لم يُفتح. جاءتها الإجابة من فوق المدرج من قبل خادمةٍ قصيرةٍ استخدمت لغةً رسميّة. السيّدة غودار رحلت لتصوير فلمها، الآنسة بوهوس غادرت عملها لأنّ أمّها منعتها من العيش مع رجلٍ دون المرور من أمام السيّد رئيس البلديّة والقسّ أمّا السيّد دييغو فهو في «جزيرة الكنز» بصدد رسم جداريّته «بانامريكانا» ذات الألواح العشرة الّتي تتناول موضوع وحدة البلدان الأمريكيّة.

لم تفهم فريدا الأمر على الفوْرِ. لم تستوعب لماذا كان على الخادمة القصيرة أن تُشير للجزيرة الشّهيرة الّتي وردت في رواية «ستيفنسون». أيّ علاقة يمكن أن تربط تلك الجزيرة بدييغو: ما الّذي في وسعه أن يصنع على جزيرة لا توجد إلّا في ذهن كاتبها...؟ سرعان ما تبدّد الغموض لمّا أوضحت لها الخادمة

القصيرة أنّ «جزيرة الكنز» هي في واقع الأمر جزيرةٌ اصطناعيّةٌ تمّ انشاؤها خصّيصًا للمعرض العالميّ في «غولدن غيت» الّذي يشارك فيه دييغو. لكنّها لم تشجّعها على الّذهاب إلى هناك بسبب الازدحام الرّهيب الّذي يسدّ الجسر الرّابط بين سان فرانسيسكو وجزيرة «يوربا بوينا»، الجزيرة طبيعيّة المجاورة لجزيرة الكنز.

لكنّها لم تكن تعرف فريدا بالقدر الكافي، الّتي برغم إرهاقها الشّديد، أوقفت سيّارة أجرة لتجد نفسها بعد عدّة ساعات قبالة دييغو، الّذي -ويا للغرابة- لم يتفاجأ لرؤيتها، كان يعتلي سِقالةً ليعمل أمام مرأى آلاف الزوّار المُتعاقبين على مشاهدة جداريّته المركّزة على إطاراتٍ فولاذيّة قابلة للنّقل. كان هنالك بالقرب منه حارسٌ شخصيّ مكلّف بحمايته من الكوماندوس السّتالينيّين وأيضًا من التّروتسكيّين ممّن مازالوا يشتبهون في تورّطه في الهجوم الأخير.

بعد وقتٍ من الصّمت، صمتٌ حتّمته فرط مشاعرها -إذ هي ترى دييغو لأوّل مرّةٍ بعد انفصالهما- شعرتْ فريدا بغضبٍ جنونيّ مُتصاعد في داخلها سيجعلها تنفجر إن تواصل بتلك الوتيرة. فعلى هذه اللّوحة الّتي من المفترض أنْ تصوّر الوطنيّة المشتركة لكلّ سكّان أمريكا، نرى دييغو ماسكًا بيد تلك العاهرة «بوليت غودار» يعانق بيده الأخرى شجرة الحبّ والحياة. كانا يتبادلان نظراتٍ مُغرقةً في الحُبّ. أمّا فستان الممثّلة فقد كان بلونٍ أبيض ناصعٍ وكان يرتفع قليلًا ليكشف عن ساقيْنِ رائعتيْنِ بتدوّرٍ مثاليّ. لم تستطع فريدا منع نفسها من أن تسأله بقولها:

- ما هذه التّرهاتُ؟

- إنّها الأنوثة المراهقة القادمة من أمريكا الشّماليّة في اتّصالها الودّي مع أحد المكسيكيّين، ردّ دييغو من أعلى سقالته.

- «الأنوثة المراهقة»، اللّعنة. ممثّلتك القذرة في الثّلاثين من عمرها!

كانت فريدا ممثّلةً أيضًا إحدى أجزاء تلك الجداريّة. كانت في فستانها «التيهوانا»، تمسك فرشاةً ولوحة ألوان وكانت تبدو ناظرةً للفراغ بعينيْنِ باهتتيْنِ.

- ما تينك العينيْنِ الشّبهتيْن بعيني بقرة! ولوحة الألوان تلك، لم يرسمني أحدٌ بصدد العمل وفي يدي لوحة ألوانٍ، لابدّ أنّ هناك سبب قويّ لذلك.

- إنّها فريدا كاهلو، رسّامة مكسيكيّة رقيقةٌ، تستمدّ أفكارها من ثقافة حضارات بلادها القديمة وهي تُجسّد...

- وهي تجسّد اللّاشيء! لماذا يولي لها ريفيرا ظهره؟ كيْ يضاجع أمريكيّته بشكلٍ أفضل؟

مستغرقًا في الرّسم، كفّ دييغو عن إجابتها تاركًا العنان لغضب فريدا أن يتصاعد ما شاء. إنّه يعرفها أكثر من اللّازم، فعندما تكون بتلك الحال لا شيء قادر على إيقافها ولا حتّى الزّوّار الّذين كانوا يتابعون المشهد مذهولين. في النّهاية، اتّهمت فريدا دييغو بالمشاركة في محاولة القتل.

- أنت من حاول قتل ليون! إنّك خلف كلّ تلك الحماقة!

لم يُبد دييغو أيّ تأثّر واختار عدم الإجابة، تاركًا الفرصة بصمته لتوقّعاتٍ عديدةٍ منها: أنّه لا يمكن أن يكون إلّا راضيًا على محاولة اغتيال «العجوز».

- هل كنت تُريد له أن يمسح الأرضيّة! لم تستطع بعد القبول بأنّه ضاجع زوجتك! ألهذا فعلت ما فعلت؟

كانت كلّما تكلّمت أكثر كلّما تناقص الحاضرون من أمامها وكلّما وردت كلماتها غير متّسقة، إلى أن أخذتْ في الصّراخ:

- لهذا فعلت ذلك، يا حبيبي! لهذا، يا دييغو يا عشيقي! يا دييغو يا كلّ كوني! يا دييغو يا خطيبي! يا دييغو يا طفلي! يا دييغو يا أنا!

وهي صارخةٌ تكرّر عبارة «دييغو=أنا»، راح وجه دييغو يتّخذُ ملامح فرانك جاكسون شيئًا فشيئًا إلى أن أصبح أكثر وضوحًا ثمّ سمعته يحدّثها بكلّ هدوء.

- مثل فتاةٍ صغيرة أو مثل مجنون القرية.

- هل تحسبني حمقاء أم ماذا؟ ما هذا الهراء؟

- فريدا، هل تسمعينني؟ فريدا، هل أنت بخير؟ فريدا...

كان الصّوتُ شديد النّعومة والدّفء. اختفت الغشاوة الّتي كانت تمنعها من النّظر بوضوحٍ. ثمّ أصبح الصّوت واضحًا تمامًا. تعرفّت فريدا على الفضاء المحيط بها، إنّها ورشتها في الكازا أزول وفرانك جاكسون ينحني عليها ليمسح على وجهها. لقد كانت في حلمٍ إذن.

- في أيّ يومٍ نحن؟

- 11 يونيو 1940.

- تبًا، هل نمت كلّ هذا الوقت؟

- ما الّذي حدث؟

- عاودتني آلام ظهري. جاء الطّبيب. أصابني بالرّعب. الظّاهر أن كورسيهات الجبس والجلد لم تعد كافيةً. تحدّث عن كورسيه من المعدن. ستبدأ المهزلة من جديد... ثقوبٌ، أشعّةٌ، ارتشاحٌ... حتّى أنّ تدخّلًا جراحيًّا ممكنًا... لِلَحْم فقراتي القَطْنية، في انتظار كلّ ذلك أغرقني في المهدّئات.. لابدّ أنّ بالغتُ في أخذها هذه المرّة، المورفين، لقد بالغت...

ساعدها فرانك على النّهوض. ألقت نظرةً على ما حولها ولاحظت الفوضى الكبيرة. ملابسٌ ملقاةٌ أرضًا، بقايا أكل، وبالخصوص قوارير مقلوبة وأكوابٌ مهشّمة ولوحاتٌ متناثرة كما لو أنّ عاصفةً مرّت من هنا. من حسن الحظّ أنّ لوحاتها سليمة. جمعتها تباعًا.

- انظر إلى لوحاتي، فرانك. هي الأمور ذاتها دائمًا: الدّم، الموت، المعاناة. الحلم: هيكلٌ عظميٌّ يبتسم لي ملء شدقيه... وهذا البورتريه الّذي سأبيعه لنيكولاس، ذلك الوغد الكبير... ما كان عليّ فعل ذلك لكنّي أحتاج إلى أموالٍ: هل ترى هنا، رسمتُ لنفسي قلادةً فيها جثّة هامدة لطائر طنّان... وذلك البورتريه الّذاتي الآخر أين توجد قلادة من نوع آخر: تاج شوك المسيح ولا شيء آخر!

تأثّر فرانك كثيرًا:

- هذه اللّوحاتُ بديعةٌ، هل تعرفين؟

- كلّما ازدادتْ معاناتي كلّما رسمت لوحاتٍ أجمل. هل تعرف ماذا يقول ذلك الأحمق دييغو؟ يقول إنّي الآن في قمّة فنّي! ولماذا؟ لأنّنا انفصلنا وذلك ما يجعلني مريضةً! ولأنّني لم أعد أملك شخصًا يمكنني مضاجعته!

- لكنّك لن تعودي إليه؟

- كلّ ما أعرفه الآن، هو أنّني مطالبةٌ بالتّعوّد على حياتي هذه الّتي أعيشها بين الخوف والرّعب. عندما أدرك هذا المعطى سيكون بمثابة فهم كلّ شيء!

لم ينبس فرانك بكلمة، بدا أضعف من تحمّل كلّ ما يراه. كان شديد التّأثّر لا بما سمع من كلماتٍ بل بدقّتها. استغلّت فريدا صمته وسألت مغيّرة مجرى حديثها تمامًا:

- لماذا كذبت عليّ يا فرانك؟

- عمّ تتحدّثين؟

- لقد التقيت بتروتسكي منذ وقت قصيرٍ لا كما أخبرتني ذلك اليوم.

- هو مجرّد خلطٍ بين الأيّام.

- لا أظنّ.
- أردتُ أنْ أفرحك. اعتقدت أنّك تفرحين للقائي به، لذلك سبّقتُ اللّقاء.
- لأيّ هدفٍ.
- هكذا. لا تغضبي. يحدث أن أكذب أحيانًا. لابدّ أنّي مصابٌ بنوع من الهوس... على ذكر تروتسكي، وأنت نائمةٌ أدلت الشّرطة بتصريحات للصّحافة. تحدّثت عن امرأتيْنِ سكنتا الحيّ منذ وقت قصيرٍ، تمكّنتا من إقامة علاقات غراميّة مع أعوان الشّرطة المُكلّفين بحماية تروتسكي... تم إيقاف المرأتيْنِ وعدد من الشّيوعيّين المتنفّذين. اعترفت المرأتان بكلّ شيء. في رأيك من دفع لهما حتّى تقوما بذلك العمل الدّنيء؟
- دافيد ألفارو سيكيروس. كنت متأكّدة من ذلك منذ البداية! وليون أيضًا!
- إذن هو سيكيروس الّذي حصل على أزياء الشّرطة والأسلحة والسيّارات، وهو الّذي أشرف على العمليّة في زيّ رائد. قيل أيضا أنّه كان متبوعًا بسكرتيره الخاص.
- أنطونيو بوجول؟
- نعم، إنّه الاسم على ما أعتقد. كان يرتدي زيّ ملازم.
- وما الجهة الّتي تختفي وراء كلّ هذا؟ المخابرات الرّوسيّة بكلّ تأكيد!

أومأ جاكسون برأسه موافقًا- كانت حركة تعبّر عن التّسليم التّامّ، قال:

- لا شيء يمكن فعله ضدّ ذلك الجهاز...
- في المرّة القادمة، سيتوخّون طريقة جديدة. قالت فريدا شاردةً.

لم يجب فرانك. وبعد صمتٍ، صارح فريدا بأنّه مضطرّ للسفر إلى نيويورك في الغد حتّى يلتقي برئيسه في العمل، لأنّ صفقات هذه الأيّام لم تكن جيّدة.

- يصعب عليّ تركك وحيدة، قال لفريدا وهو يضمّها بين ذراعيه، فريدا الّتي فكّرت لوهلة أنّها قادرة إلى سحبه إليها وإجباره على البقاء معها.
- لا. ارحل. بما أنّني حلمت بدييغو، فإنّني سأهاتفه. سيكون ذلك أكثر واقعيّة. أحتاج التّحدّث إليه.

47

لكي تزوّد نفسها بالشّجاعة الّتي تحتاجها لمكالمة دييغو، أعدّت مشروبًا منشّطًا يتركّبُ أساسًا من التّكيلا وعصارة القصب السّكريّ وكميّة جيّدة من «البولكا» وردّدت: «لأوروبّا البيرةّ وللصّين أفيون الخشخاش الأبيض ولبلدان البحر الأبيض المتوسّط العنبُ الأسود، ولروسيا الفودكا، أمّا نحن في المكسيك فلنا غاباتُ «الماغواي» بدموعها الّتي تنساب سوداء لامعة من أعلى براعمها الكبيرة المتوجّهة نحو السّماء على شاكلة أيرٍ! العسل! «بولكا البولكا»!».

- دييغو، هذه أنا.
- من تكون هذه «الأنا»؟
- فريدتشاك، اللّعنة عليك... لقد حلمتُ، رأيتنا نمشي معًا في مدينة «أواكساكا»... كانت الرّياح الشّماليّة تعصفُ بقوّة وتهزّ النّوافذ ذات الأخشاب النّخرة. جُلنا داخل الكنيسة والدّير القديم... ثمّ تابعنا طريقنا مباشرة إلى أن وجدنا نفسينا في جبل أزرق، كان أزرق زُرقة زهور الكتّان... كان أشبه بسحليّةٍ عملاقة... حلمت أيضًا أنّي زرتك في «جزيرة الكنز»... أين كنت تعتلي سقالتك...
- فريدا، إنّها الرّابعة صباحًا.
- هل أيقظتك؟
- هل هاتفتني لتحدّثيني عن أحلامك؟
- لقد أيقظتك... تبًا... هل كنت مع عاهرتك «غودار»؟
- فريدا، ماذا تريدين بالضّبط؟

- أنْ نتزوّج مرّة أخرى... لكن بشرط أن... ألو؟ ألو؟

أنهى دييغو المكالمة بعنفٍ! لقد كانت متأكّدة من حدوث ذلك، كان عليها أن تستعدّ لمكالمتها جيّدًا، أنْ تشحذ حُججًا دامغةً، ألّا تشرب كلّ هذه الأكواب اللّعينة من شراب «البُولْكا»، أو أن تكتفيَ بخلط بيرّة مع البولكا كما يفعلُ رجال الشّرطة دائمًا. ساعدتها الكحول على النّوم. نامتْ بين مخالب السّحليّة العملاقة الّتي كانت تراقبها من مكانٍ مّا. سحليّةٌ بمخالب ناعمةٍ. على ظهر السّحليّة العملاقة لمعتْ أنثى بلشون زرقاء، كان بطنها الضامّر يهتزّ على وقع أنفاسها. كانت بخير. كانت تغرق في الحزن وتأبى الصّمود. إن تذكّرتْ هذه التّفاصيل يومًا فسيكون في وسعها إنجاز «بورتريه ذاتيّ مع سحليّة عملاقة حالمة».

من الغد، أفاقت برأس متصدّع من الكحول. أفاقتْ ببطء شديد. ما تزال مسألةُ حياتها مع دييغو تُحيّرها، لذلك فهي تحتاج أنْ تبوح بحيرتها تلك لشخص تثق فيها تمام الثّقة. أوّل اسم خاطر على بالها، كان ليون بطبيعة الحال. إنّها تعترف بذلك، إنّها لا تقطع نهائيًّا مع عشّاقها القدامى وعشيقاتها السّابقات وكلّ الّذين أحبّتهنّ في الماضي لعدّة أشهر أو حتّى لليلةٍ واحدة. كذلك دأبتْ فريدا دائمًا. إنّهم هنا جميعًا يدورون حولها مثل كويكباتٍ مُنجذبة إلى الشّمس الّتي -كما قد يبدو غريبًا للجميع- تحتاج إلى دفئهم. فريدا، شمسٌ باردة وجريحة ومنهكةٌ، لذلك ترغبُ في أن تتدفّأ بالتّواصل معهم.

فُتِحت البوّابةُ المعدنيّةُ الثقيلةُ. دخلت فريدا مصحوبةً بأحد الحرّاس الشّخصيّين بما أنّ ناتاليا خرجتْ للتّسوّق. وقفتْ أمام ليون الّذي كان بصدد غلق باب القفص أين أرانبه المضطربة. نزع قفّازي عمله. نفض بلوزته الزّرقاء. وفي بطءٍ، أخذ فريدا بين ذراعيْهِ. كان سعيدًا برؤيتها.

- ها إنّني اليوم قائدٌ أعلى لجيشٍ من الدّجاج والأرانب!

في مكتبه، غرق مباشرةً في التّعليق على آخر الأخبار، كما لو أنّ المكان نفسه ما يُحدّد الرّابط الخاصّ الّذي يجمعه بالعالم. عندما يكون في حديقة المنزل مع الأرانب والدّجاجات، يتحلّى بخفّة الظلّ والسّعادة ويتحدّث عن هذه الأشياء أو تلك. أمّا في مكتبه، فلا يمكن أن يكون غير تروتسكي السّياسيّ.

- سأقول لك يا فريدا إنّ استسلام فرنسا طامّةٌ كبرى! هتلر هو الوجه الأكثر بربريّةً والأكثر اكتمالًا للامبرياليّة الّتي تتّجه بالحضارة الإنسانيّة إلى حتفها. ما نعيش اليوم سلسلة لا نهائيّة من المصائب: لم يساعد أحدٌ هتلر أكثر ممّا ساعده ستالين، لم يمثّل أحد خطرًا على الاتّحاد السّوفيتيّ أكثر مما مثّله ستالين وما يزال يمثّله.

رنّ جرس الهاتف عديد المرّات. ردّ سريعًا على مُحاورةٍ لصالح إحدى الصُّحف في نيويورك. لم تسمع فريدا سوى بعض الكلمات المتناثرة: «دولة يهوديّة في فلسطين؟ هذا مجرّد عبث... مع تدهور الرّأسماليّة الأمريكيّة، بلغتْ معاداة السّاميّة مستوياتها القياسيّة في الولايات المتّحدة - وربّما أكثر في ألمانيا... أو ينبغي أن توجد حكومة ثوريّة تمنح اليهود منطقةً-دولة... لكن لا، لا يمكن للحركة العمّاليّة أن تُساند المملكة المتّحدة في حربها ضدّ ألمانيا... باسم الأمميّة الرّابعة، أعبّر عن رفضي التّامّ لدخول البريطانيّين الحرب إلى جانب الأمريكيّين...».

بانتهاء المكالمة، أخذ تروتسكي في الدّوران مثل نمرٍ حبيسٍ في قفصه. لم تره بتلك الحال من الهيجان من قبلُ، كان يضع النّظارتيْنِ لينزعهما، ويجلس على الكرسيّ ليقف، يهمّ بالاستلقاء على الأريكة ليتراجع، يمسك بمسدّسه ليخرج رصاصات ثمّ يعيدها من جديد... وكان في كلّ ذلك يلوّح بكتاب «هتلر قال لي» الّذي كان بصدد قراءته. حاولتْ أن تحدّثه عن دييغو وعن رغبتها في العودة إليه لكن دون جدوى. كان لا يُصغي إليها تمامًا. حتّى أنّه تجرّأ على أنْ يجيبها على حيرتها ذلك بشكلٍ عنيف:

- هذه فكرةٌ مجنونةٌ تماما. بعد أن حُظيتِ بوحدتك أخيرًا، بعد أن

انفصلت عن ذلك القرد المُتعجرف، ها إنّك تريدين العودة إلى قفصك مثل أرانبي!

- لكن لا، ليس هذا.

- ماذا إذن؟

- إنّه شعور يصعب شرحه... أعتقد أنّي أكره دييغو، لأنّه يجبرني على ألّا أحبّه، فيما عدا ذلك أنا...

- أنت تعقّدين الحياة بلا داعٍ، فريدا. لقد رسم في جداريّته بسان فرانسيسكو ستالين على هيئةِ قاتلٍ مقنّع. هذا جيّد. لكنّي أنا الّذي من المُفترض أن أكون معلّمه فلا أظهر في أيّ من أعماله. ممحوّ أو مشطوب سيّان. صورتي عنده لا تختلفُ كثيرًا عن الصّور المُعالجة في جهاز المخابرات الرّوسيّة. إذا لم تفهمي أنّ شخصًا يجرؤ على محو ليون تروتسكي من التّاريخ هو شخص لا يستحقّ شيئًا، إذن فعلى الدّنيا السّلام!

كان ليون سجين فقّاعة غضبه غير قادرٍ على الخروج منها. ليذهب دييغو ورك الخنزير السّمين ذلك إلى الجحيم! لديه كفايته من المشاكل الّتي تنتظر حلًّا. مع أنّ توجيه الاتّهام إلى سيكيروس مؤخّرًا كان من الأشياء الّتي يعتبرها بلسمًا لقلبه المُثقل. تقديراته لم تكن مخطئةً. لقد اتّجه إلى تلك الفرضيّة مُنذ البداية. الفرضيّة الّتي تأكّدت من خلال الرّسالة الّتي بعث بها سيكيروس بنفسه إلى الجرائد، والّتي كتبها في حفرته أين ما يزالُ يختبئ إلى اليوم: «لم يسعَ الحزبُ بقيامه لذلك الهجوم إلّا لتسريع طرد تروتسكي من المكسيك، يُمكن لأعداء الحزب أينما كانوا أنْ يتوقّعوا معاملةً مشابهةً!»

في الحقيقة، ثمّة شيء آخر يشغله. تعرف فريدا ليون كفايةً حتّى تشكّ في وجود حدث آخر جعله يبدو مجروحًا إلى ذلك الحدّ، حدثٌ يخفيه خلف فيضٍ الكلام الّذي تتخلّله حركاتٌ مسرحيّة مبالغٌ فيها.

- ماذا حدث ليون؟ سألت فريدا الّتي وجدت نفسها مرّة أخرى في وضعيّةٍ كثيرًا ما عاشتْها من قبل: كثيرًا ما لجأت إلى أحدهم تشكوه همّها بهدف التّخفيف من حملها إلّا أنّها تغرق في هموم الآخر لتعود إلى منزلها أكثر ثقلًا.

فجأةً، بدا ليون على وشك البكاء:

- لقد عُثر على بوب... قصدي على جُثّته.

الّذي حدث كان رهيبًا. في الرّابعة مساءً، انطلق موكبٌ متركّبٌ من عدد من سيّارات الشّرطة ومعهم تروتسكي ليصلوا عند حلول الظّلام إلى مزرعةٍ مهجورة في «سانتا روزا» على طريق تشقُّ «صحراء الأسود». بعد خلع الباب وتفتيش الغرف الواحدة تلو الأخرى دون العثور على شيء فيما عدا مِنْفضَة مملوءة بأعقاب سجائر «اللّاكي»، النّوع الأمريكيّ الّذي لا يمكن أن يدخّنه إلّا أمريكيّ أو مكسيكيّ مرفّه. كان الكولونيل ورجاله يتهيّؤون للرّحيل حينَ اكتشف أحد الأعوان مُربّعًا تُرابيًّا نُبِشَ حديثًا في إحدى أركان المطبخ. على الضّوء الأزرق المرتعش المنبعثة من الفوانيس، وأمام عينيْ تروتسكي المُرتعب، راحتْ الجثّة تظهر شيئًا فشيئًا، البطن، فالرّكبتان والذّراعان ثمّ كامل الجسد الّذي كان مطمورًا تحت طبقة من الجير الأبيض. بكشف الوجه، شعر تروتسكي الّذي شهد الويلات في حياته بالانهيار التّامّ: لقد اتخذتْ جلدته لونًا برنزيًّا مُدهشًا، وشعره تموّجاتٍ حمراء عجيبة. «روبيرت شيلدون هارت»؟ سأل الكولونيل متوجّها لتروتسكي. «نعم»، أجاب. ذلك لا يترك مجالًا للشّكّ في التّالي: بعد أن اختطف رجالُ سيكيروس «شيلدون هارت» قدموا به إلى المزرعة وأعدموه.

شعرت فريدا بالأسى. لم تمرّ لحظة على تروتسكي دون أن يعيش وقائع تلك المأساة. حكى لها كيف مكث لبعض الوقت، يتأمّلُ ذلك الجسد الهامد، حزينًا ومهزومًا، بدموعٍ مُنهمرةٍ من عينيْهِ، عاجزًا تمامًا على أن يكفّ عن بكائه

الصّامت. وصف لها بدقّة كيف بدأت الأمطار بالهطول بعنفٍ لتحوّل الثّنايا إلى جداول موحلة والطّرق إلى وديانٍ يصعب عبورها. في عودته إلى السيّارة، تعثّر تروتسكي بحجرٍ وانزلق. أصابته المياه في وجهه وتخلّلتْ معطفه إلى كلّ بدنه. غارقًا في العرق والمطر، حشر بنفسه إلى داخل إحدى سيّارات الشّرطة الّتي عادتْ به إلى مكسيكو. إذا كانت فكرة ذلك الشّاب الّذي تمّ اختطافه وقتله خلال نومه- «مات وهو نائمٌ يضعُ يدًا هادئةً حول جسده- فكرةً يصعب عليه احتمالها، فإنّ فكرةً أخرى تبدو أكثر ثقلًا: بحسب الشّرطة، بوب هو الرّجل الّذي فتح الباب للمعتدين. بوب هو الّذي خان إذن. وذلك تمامًا ما يأبى تروتسكي التّسليمُ به. حتّى أنّه لا يريد الاعتراف بأيّ من الأدلّة الدّامغة الّتي أدلتْ بها الشّرطةُ: إلى جانب أنّ «روبرت شيلدون هارت» عضو من أعضاء الحزب الشّيوعيّ الأمريكيّ فهو أيضًا عميلٌ سوفيتيّ تكمن مهمّته في ضمان الاتّصال مع مجموعة العملاء المكسيكيّين المُتواجدين حول سيكيروس.

- لقد ظلّ بوب وفيًّا إلى آخر لحظة، أنا متأكّد من ذلك. ظلّ وفيًّا لأفكاره وبالتّالي وفيًّا لشخصي. نعم، هذا تمامًا، وبسبب ذلك الوفاء قُتِل بوب، غير أنّ التّحقيق يقول العكس. أشعر حقّا أنّ الكولونيل سالازار مخطئ، الخطأ أمرٌ بشريّ لكنّه من شأنه أن ينقل التّحقيق إلى النّاحية المغلوطة.

باستماع فريدا لليون، تذكّرت كلماتها الّتي قالتها لفرانك في آخر لقاء بينهما: «في الهجوم القادم، ستتوخّى المخابرات الرّوسيّة أساليب جديدة...»

- أشعر بالإرهاق الشّديد فريدا... كم أودّ أن أرافقك مرّة أخرى إلى «كويرنافاكا» و«أميكاميكا»، هناك أين تنتصبُ البراكين المهولة بسفوحها البيضاء المحاطة بالغيوم القُطنيّة... بدلًا من أعيش ذلك، ها هم يريدون لي أن أصدّق أنّ أصدقائي خونة! هل تعرفين؟ يكفي أن يدّعي أحد عملاء المخابرات الرّوسيّة أنّه صديق لي حتّى ينجح في قتلي داخل منزلي الخاصّ... هل تُصدّقين رواية سيكيروس شيلتون، أنت؟

- سيكيروس مجرّد حثالة. أمّا التّحالف بين المُخابرات الرّوسيّة والبوليس السرّي الألمانيّ فيبقى فرضيّةً معقولةً تمامًا.

توقّف ليون الّذي لم يكفّ عن المشي هنا وهناك طوال المحاورة، ثمّ اقترب من فريدا، تحقّق من عدم وجود أحدٍ بالقرب منهما ثمّ همس لها بصوتٍ تملؤه الثّقة والاقتناع:

- لو كان بوب عميلًا في المُخابرات السّوفيتيّة، لتمكّن من قتلي ليلًا ومن ثمّ الرّحيل دون أنْ يحتاج إلى تحرّك عشرين شخصًا، أين يمثّل كلّ شخصٍ منهم خطرًا كبيرًا لوحده.

telegram @
yasmeenbook

48

الآن، هي مُجبرةٌ على أن تعترف أنّ حياتها بعيدًا عن دييغو هي حياةٌ أقلّ اهتزّازًا وتحفيزًا من الأيّام الّتي عاشتها إلى جانبه- مع أنّ الثّمن الّذي دفعته للصّمود كان باهضًا جدًّا. لم تكن مغامراته العاطفيّة تُثيرها إثارة حضور دييغو، عندما يكون في مكانٍ مّا، متستّرًا في الظّلام، يتابع حركاتها وسكناتها. في الحقيقة، تظلّ فريدا في حاجةٍ لغيْرته بما فيها من شراسة وغباء، في حاجة لطلقات مسدّسه الّتي لمْ تُلحق الأذى بأحدٍ لحسن الحظّ، لصرخاته في وجه منافسيه من الرّجال والنّساء- الّذين كثيرًا ما كانوا مُتوهّمين.

وكذلك ما حدث في إحدى أمسيات يوليو حين ذهبت للالتقاء بشابّ اتّخذتْه عشيقًا لفترة قصيرة في إحدى الفنادق القريبة من هضبة «الشّابلتيبيك»، تأكّدتْ يومذاك من أنّ الإثارة الجنسيّة لا يمكن أنْ تكون إلّا نسبيّةً في غياب المُجازفة والشّعور بالخوف. كانت علاقتها تلك تقليديّةً وخاطفةً، بلا فائدة تقريبًا. حتّى أنّها لم تكلّف نفسها إعلامه بالانفصال. كلاهما كانا يعلمان مقدما أنّ قصّتهما لن تؤدّي إلى أيّ شيءٍ، إلّا إذا نقلت على إحدى لوحاتها الجسد الرّياضيّ لذلك المراهق الّذي لا شكّ في أنّه كان ذا أصول هنديّة.

في غد تلك الحكاية الّتي لم يكن فيها ما يميّزها، استقبلتْ فرانك جاكسون في منزلها. أكّد لها أنّه أُجْبِرَ على البقاء مدّةً في إحدى قرى ولاية «بويبلا» المكسيكيّة بسبب مرضٍ مُفاجئ وأنّه الآن مقيمٌ في مونتغيرو «الغرفة 113»، المؤسسةُ الهادئةُ والمركزيّة الواقعة في شارع «الباساو» إلى أين ستلتحق به سيلفيا ابتداء من يوم 19 يوليو. ما تزال فكرة زواجهما قائمةً لكنّه مطالبٌ قبل ذلك

بالعثور على وظيفة مستقرّة، الأمر بعيد المنال، بعد أن أفلس الشّريك الّذي كان يعمل معه.

ظلّ فرانك جاكسون كما هو في تعامله مع فريدا، شديد الانتباه لتفاصيلها، متمسّكًا بطبع «العاشق الخجول» معها. لكنّ فريدا وجدته مُتغيّرًا مرّةً أخرى. لقد كان دائمًا حرباءَ حقيقيّةً وذلك ما أصبح يزعجها تقريبًا. لم يعد الرّجل هو نفسه: أصبح وجهه بمسحة رماديّة-خضراء وحركاته أكثر توتّرًا وتشنّجًا. وبالخصوص، هو الّذي كان دائمًا يفخر بعدم وضعِ شيء على رأسه، أصبح الآن يضعُ قبّعةً رماديّة يزيّنها شريطٌ أسود. كان يضغط بذراعه على معطفه في تشنّج واضح ويمسك بمظلّته كأنّه يُشهر سلاحًا. لكن، قد يكون أكثر ما صدمها لديه، هو نوعٌ من عدم الاحترام والوقاحة، صفتان جديدتان لم يكن يمتلكهما من قبل. صفتان صار الآن يجرجرهما معه كما يُجرجر شيئًا قبيحًا دون وعيٍ كبيرٍ. فقد كان يقاطع كلامها باستمرار ولا يصغي إليها إلّا لمامًا. وكان يجلس غير عابئ على حافّة طاولة تستخدمها في العمل، وهي طاولةٌ مليئةٍ بالأوانيَ الّتي تضع فيها فُرَشها ولوحات ألوانها وأوعية دهانها وقطع كثيرة من القماش الملطّخة بالألوان وسكاكينها إلخ.

حينذاك، وهو يجلسُ على إحدى زوايا الطّاولة بتصنّعه وتشنّجه كما لو أنّه في عيادة طبيّةٍ، أطلعها على سرّه العظيم: لقد فتحت سيلفيا عينيه أخيرًا ليتوجّه اهتمامه للسّياسة.

يوليو هو شهر الأمطار في المكسيك. معها تهبّ رياح على الأشجار لتحدث فرقعاتٍ غريبةً وتهزّ أبواب المنازل المُفكّكة وتعزلُ بعض القرى الصّغيرة عن الحياة وحتّى بعض الأحياء الواقعة في هامش المدن الكُبرى. ما إن يجنّ اللّيل حتّى يختفي السّكان في الظّلمات الّتي تغمرهم من كلّ جانبٍ. إلّا أنّ ذلك الوضع كان يدعمُ روتينًا حياتيًا مُحدّدا ويساهم في انتشار بعض الآليات والطّقوس الغريبة.

في هذا الإطار، التقت في مرّاتٍ عديدة بسيلفيا وفرانك -الثّنائيّ الّذي يجمع بين قبيحةٍ حمقاء وغاوٍ مخادعٍ- أو بفرانك لوحده الّذي حدّثها ذات يوم عن أمّه مطوّلًا، أمّه الّتي يكنّ لها إعجابًا بلا حدودٍ. «هي امرأةٌ حيويّة وشجاعةٌ، قال، نحيفة ومفتولة العضلات، لها عينان زرقاوان وواسعتان وشعر غزيرٌ وبشرةٌ سمراء داكنة». كانت لها كلّ الخصائل والصّلابة حتّى في عقوباتها الّتي كانت دائمًا عادلة ودقيقة. ذات يومٍ حينما كانت في الخارج، أكل تفّاحة وهو يعلم أنّ ذلك ليس من حقّه طالما لم تأذن له. ظلّ ينتظر عودتها، بعد أن حشر نفسه بنفسه في إحدى الزّوايا واضعا يديْهِ على رأسه منتظرًا ضربات المسطرة الّتي لن تتأخّر كثيرًا في الانهيال عليه.

لكنّ الرّوتين الأكثر ملاءمة لها وضرورة أيضًا كان يتمثّل في الزّيارة الأسبوعيّة الّتي تؤدّيها إلى عزيزها ليون بالرّغم من حضور ناتاليا غير الودّي، الّتي لمّحت في عديد المرّات إلى قصّتهما تلميحات تكاد تكون فاضحة. يعلم اللهّ وحده لماذا فعلت ذلك. كما لو أنّ هذه المرّة انفتح ذلك الجرح الحقيقيّ، ذلك الجرح الّذي كان أقوى ممّا تعتقد ليدفعها للنّطق بتلك الكلمات الجريئة لأنّها لم تجد شيئًا آخر تفعله ولأنّها رغم الحيطان العالية ونُظم الحماية والأبراج والحرّاس المسلحين ما تزال تخشى أنْ يتعرّض تروتسكي لمحاولة اغتيالٍ آخر. لم تكن تلك الغيرة تختلف كثيرًا عن صنائع طفل مشوّه من فرط خوفه.

كذلك كانت الأيّام تنقضي، وليون يحدّثها عن السّياسة ونباتات الصّبّار والأرانب وفريدا تطرح قضاياها الفنيّة وعشقها لدييغو الّذي يأبى الأفول، الأمر الّذي كان يُغضب رجلها ذا العثنون بالرّغم من أنّ حبّها له ما فتئ يزداد يومًا بعد آخر لأنّه حبّ منحها الكثير وسيمنحها أشياء أخرى في قادم الأيّام. كان ما بينهما من تكاملٍ من تلك الأشياء الّتي لم تعد ناتاليا قادرة عن تحمّلها.

انتهى شهر يوليو بلا شيء يميّزه، انتهى أخيرًا بعد تمطّط أيّامه. يوم 19 أغسطس وبينما كانت ترتشف الشّاي في حديقة «سجن شارع فيينّا»، كما كان

يُسمّيه ليون أحيانًا، توسّلت إليه بأن يأتي لزيارتها في ورشتها. لم يزرها منذ أسابيع عديدة بالرّغم من أنّها أنجزتْ لوحات جديدة تريده أن يراها. هي لوحاتٌ ذات أحجام صغيرة لكنّها شديدة الكثافة والقوّة. ثمّة لوحات أكثر بهجة وخفّة، «طبيعة حيّة» عامرة بالفواكه الغرائبيّة وبالألوان. اتّجهت ناتاليا الّتي كانت حاضرةً لتلقي نظرة على مفكّرة ليون لترى في أيّ ساعة يمكنه زيارة ورشتها. أغضبتْ تلك الحركة فريدا غضبًا شديدًا. اللّعنة! هل كان حقّا بحاجة للنّظر في جدول مواعيده حتّى يزور الكازا أزول! كان لديه عدّة مواعد مع صحفيّين وموعدًا آخر من المتوقّع أن يستغرق وقتًا طويلًا مع... فرانك جاكسون.

عبّرت ناتاليا عن تعاطفها مع فريدا دون قصد كبيرٍ منها:

- ألا ترى أنّك تبالغ في لقاءاتك مع المدعوّ جاكسون؟ من المؤكّد أنّه أبدى استعداده كيْ يأخذك في جولةٍ على الأقدام إلى حدود الجبال المحيطة بمكسيكو بتعلّة أنّك تُحبّ ذلك. من المؤكّد أنّه زارك خمس مرّات على الأقلّ في غضون أسابيع قليلة، حتّى أنّه جلب لي علبة شوكولا، لكن...

- إنّه يريدني أن أصلح له مقالةً كتبها. هو نصّ حول الاقتصاد الفرنسي؟

- هل هو مهمّ إلى هذه الدّرجة؟ سألت ناتاليا.

- بكلّ تأكيد، أجاب ليون. في المناقشة الّتي دارت بين أربعتنا أنت وأنا وهو وسيلفيا في خصوص الدّفاع عن الاتّحاد السّوفيتي إن كنت بعد تتذكّرين، كان الوحيد الّذي وافق على حججي.

- هذا ليس سببا كافيا، قالت فريدا. إذن يكفي أن يكون المرء متّفقا معك حتّي...

- لقد أصبح صديقًا مقرّبا من سكرتيري جوزيف هانسن. وهكذا يمكننا أنْ نجعل منه عنصرًا فاعلًا يتبنّى الأمميّة الرّابعة.

- هل ترين يا فريدا، صديقنا ليون ساذج كبيرٌ. إذا أردت رأيي، فإنّي أجده غريبًا هذا المدعوّ فرانك جاكسون!

- هل تريدين أن نتحرّى حوله؟ سأل تروتسكي.

- لم لا!

- استمعي إليّ، لقد رفضتُ أن يتمّ تفتيشه في كلّ مرّة يأتي لزيارتي، فكيف أقبل بأنْ نقوم بتحرّ عنه. ما تلك إلّا أساليب ستالين لا أساليبنا نحن! الأصدقاء الّذين يدخلون إلى هنا لا يمكن تفتيشهم بأيّ شكلٍ من الأشكال!

- حسنًا، لتعلم إذن أنّي لا أحبّه. لا أحبّ ذلك النّوع الرّجل.

- ما رأيك يا فريدا؟ سألت ناتاليا.

- صحيحٌ أنّه غامضٌ بعض الشّيء، أجابت فريدا ثمّ التفتت نحو ليون لتضيفَ: نهايةً، هل ستأتي إلى ورشتي غدًا أم ستبقى هنا لتعيد تشكيل العالم مع صديقك الجديد فرانك جاكسون؟

- سآتي إلى ورشتك، أجاب ليون وفي نظرته ارتسم شيءٌ قد يحيل إلى وحدةٍ عميقةٍ. لكن قبل ذلك، لديّ هديّةٌ لك.

- اختارت ناتاليا الانسحاب. لم تكن تعرف عن أيّ هديّة يتحدّث لكنّها خيّرتْ ألّا تعرفها.

الهديّة كانت عبارة عن دفترٍ مُغلّفٍ بالجلد الأحمر وعليه حرفا «ج. ك.» منقوشان بالذّهب الرّفيع وعلى صفحته الأولى كَتَبَ العبارة التّالية: «لا تنسيْ أنّي أؤمن بك».

- يمكنك في كلّ مرّة تشعرين فيها بالوحدة أن تُسجّلي فيه أفكارك أو أن ترسمي عليه.

- تقصد أن أسجّل فيه مذكّراتي الحميمة.

- نعم. لكنّه يظلّ مرتبطًا بي، بنا. في كلّ مرّة تمتدّ يداك لتصفّحه، ستهرب منه بعض ذكرياتنا لتحلّ أخرى. لن يكون بيتًا لكلمات عامّةٍ بل بيتًا لكلماتنا نحن.
- ولماذا «ج. ك»؟
- اشتريته ذات يومٍ عندما كنتُ في لندن من سوق الخردوات. يقال إنّه كان ملكًا لـ«جون كيتس» الشّاعر الإنجليزيّ.
- ذلك الشّاعر الّذي يتحدّث عن «الجمال الرّهيب».
- لا أعرف. لكنّها عبارةٌ تلائمك كثيرا: فريدا أو الجمال الرّهيب.

بدا على فريدا تأثّر كبيرٌ.

- إنّها هديّة رائعة يا حبيبي. لكنّك أعدت لي ما كنت قد أهديْتُ لكَ: لوحتي والقلم-الريشة.
- لقد كتبتُ أشياء كثيرةً بقلمك...
- غدًا عندما تأتي لزيارتي، هل ستستعيد البورتريه الّذي أهديته لك؟
- نعم، أعدُكِ بذلك، أجاب ليون الّذي عادت به ذاكرته فجأةً إلى حدثيْنِ من طفولته دون أن يعرف السّبب.

عادتْ به الذّكرى الأولى إلى عمر السّادسة عشر، يوم دخل أوّل مرّةٍ إلى مدرسة «نيكولاييف» الثّانويّة. كان يرتدي بدلةً جديدةً ذات لونٍ بيج داكنٍ ممّا جعله يبدو في هيئة برجوازيّة. أمّا الذّكرى الثّانية فعادت به إلى زمنٍ سابقٍ عن الأولى عندما أراد أبوه أنْ يجد له مُدرّسًا خاصّا يعلّمه قراءة الكتاب المقدّس في نسخته العبريّة في محاولةٍ منه للجمع بين الثّقافة الرّفيعة وبعض التّقوى.

عندما كانت فريدا تتهيّأ لركوب السّيّارة الّتي ستُقلّها إلى المنزل، عنّ لها أنْ تعود من أجل قبلةٍ أخيرة على خدّ ليون الّذي رافقها إلى حدود البوّابة المعدنيّة غير مكترثٍ لتنبيهات الحرّاس. أخذها بين ذراعيه قائلًا:

- لقد منحني القدر بمهلةٍ أخرى. ستكون مهلةً قصيرةً بلا شكّ. فستالين لنْ يتخلّى أبدًا عن فكرة اغتيالي.

كانت الأمطار قد توقّفت عن الهطول عندما وصلت إلى الكازا أزول، لكنّ السّماء ظلّت مُثقلةً بغيوم داكنةٍ. سماءٌ كانت تخنق أنفاس المدينة كما لو أنّها جرسٌ بلّوريّ معتمٌ. وكانت الرّطوبة تختلطُ تحت ذلك الجرس بحرارةٍ شبيهة بحرارةٍ دفيئةٍ زجاجيّةٍ. حينذاك، شعرت أنّ الأصوات الّتي كانت تتردّد هنا وهناك تصلها مُختنقةً ممّا أثقل تنفّسها كما لو كانت في إحدى تلك الحدائق الاصطناعيّة. عاد إليها مشهدٌ شبيه بمشهد إحدى اللّوحات، أين يظهر رجلٌ يبتسم ابتسامةً أقرب إلى السّخريّة وعيناهُ تلمعان بخضرتهما الفاتحة من خلف نظّارتيْنِ بُنّيتيْنِ. رجلٌ طويلٌ القامة ما يزالُ في عنفوانه وله ثغرٌ شهيّ. ابيضّ شعرُهُ أو يكادُ من فوق عثنونٍ مُدبّبٍ مائل إلى الخلف، على جانبيْ وجهه خصلاتٌ غزيرةٌ تتشوّشَ لتعطيَ مظهره نوعًا من الإشراقة. بالنّسبة إليه، هو الوجه الّذي يستحيل نسيانه بملامحه اليانعة والحيويّة، بملامحه الخالية من كلّ علامات المرارة. وجه رجل لطالما أحبّته بعمق.

49

رتّبت لوحاتها الأخيرة بعنايةٍ فائقةٍ، جعلتْ ورشتها تبدو مثل المعرض الصّغير. في مكانٍ خاصّ، أحاطت بشريطٍ ينتهي بعقدةٍ شبيهةٍ بالّتي تُزيّن بيضة عيد الفصح البورتريه الّذي أنجزته سنة 1937 والّذي سيأخذه ليون معه. قرّرتْ هذه المرّة ألّا تبالغ في شرب الويسكي: هما كأسان من أجل افتتاح يومها لا أكثر.

لم يحدّد ليون في أيّ ساعةٍ سيأتي. اكتفى بأن قال لها: «حسنًا، غدا 20 أغسطس، خلال النّهار». وبينما كانت هناك غيماتٌ تتشبّثُ بأعالي سفحَيْ «بوبوكاتبتيل» و«إيزتاكيهواتل» البُركانيّين، أشرقتْ شمسٌ رائعةٌ على كامل الحوْضِ أيْنَ تقع العاصمة الأزتكيّة. في الحديقة، كانت ورود الدّفلى والصبّار والبوغنفيليا تتمايلُ ناشرةً نوعًا من البهجة. تفاديًا لما يمكن أنْ يسبّب لها الانتظار من قلق، قرّرتْ فريدا أن تُواصل العمل على لوحتها الجديدة: «مسيرة شبح زابّاتا». على خلفيّةٍ متشكّلةٍ من بحيرة محاطة بتلال قاتمة أين تومضُ في البعيد بروق عديدةٌ وأين يمكن أن يشعر الرّائي أنّ هبّة ريح بصدد تحريك المشهد، يطلّ هيكل «زابّاتا» العظميّ مُتقدّمًا لمسيرة شعب من الفلّاحين بأزياء تقليديّة مُلطّخة بالدّماء. في الزّاوية اليُمنى من اللّوحة، توجد امرأةٌ هنديّةٌ تجثو خلف أكوامٍ ضئيلةٍ من نباتات قد تُحيل إلى الفلفل والبرتقال والبصل إلّا أنّها في الحقيقة أعضاءٌ أجساد الفلّاحين الّذين كانوا يتبعون زابّاتا المشدودةُ إليهم بما يُشبه الحبال السُّريّة. في الزّاوية اليُسرى، يوجد شيخ يغنّي عازفًا على قيثارته: كانت قدماه تنغمسان في التّربة على شاكلة جذور وكان لآلته الموسيقيّة شكل جنينٍ.

لم تشعر بمرور الوقت في البداية. كانت غائبةً بالكامل في تجريب مادّة لونيّة جديدة تعتمد أساسًا على صمغ الأشجار، ممّا أجبرها على إعادة خلط المادّة حتّى تتوصّل أخيرًا إلى الكميّة المناسبة. كانت تُريد أنْ تحصل على تركيبة لامعةٍ من اللّون الأحمر «أريده لونًا أكثر حمرةً من الحُمرة نفسها!». انتهتْ بعد عدّة تجارب بأن توصّلت إلى الحلّ المثاليّ: التّرفيع في كميّة الصّمغ. استخدمتْ تلك المادّة في تلوين الفواكه. «ها قد حصلت على لوني الأحمر العالي! ها قد حصلتُ على لوني الأحمر العالي!» مضى النّهارُ نحو نهايته. انتقلت من حالة نفاذ الصّبر إلى الحزن ثمّ إلى الغضب. «لكأنّ ذا العثنون سيخذلني!» غمغمت بقولها وهي تسكب كأسها العاشر من الويسكي. لكنّها، لن تكلّمه مهما حدث. كذلك كانت تفعل مع الرّجال المتخلّفين عن مواعيدهم. لم يسبق أن هاتفت منهم أحدًا ولن تفعل هذه المرّة...

قرّرتْ أن تستلقيَ لأخذ قسطٍ من الرّاحة. لقد عملت طوال اليوم دون توقّفٍ. راحت تتأمّلُ اللّوحة مُدخِّنَةً سيجارتها. انفجر شبحُ «زابّاتا» بضحكةٍ ساخرة، بدا كأنّه توقّف عن قيادة شعب المزارعين ليتقدّم شعبًا آخر من الأموات الّذين تساقطوا خلال الثّورة المكسيكيّة. كانتْ حائرةً. ما الذي تريد قوله من خلال هذه اللّوحة؟ لقد رسمت الألم والحبّ والحنان وحتّى الجنون دون شكّ. لكن، هذه اللّوحة ما الّذي تعنيه حقًّا؟ ردّتْ دون وعي كبيرٍ: «أوه، اللّعنة! لن أهتمّ بما قد تعنيه أو لا تعنيه. إنّي أرغب في الرّسم لا غير!» لاحظتْ أنّ لوحتها تحتاج إلى شوارع مُرقّطة بالأزرق والأبيض والورديّ ولنباتات الليّلك وأشجار المانجو، تحتاج للدّجاج والدّيوك الروميّة والفتيات الشّابات بتنانيرهنّ القماشيّة وشالاتهنّ العريضة. عندها يمكن للشّيخ ذي القيثارة- الجنين أن يصدح بأغنية كورّيدوس. ينبغي عليها أنْ تُضيف إليها نصًّا قصيرًا ما إن تُسعفها القوّة للنّهوض وبعد أنْ تدخّن سيجارةً ثانيةً: «يمكنك أن تسمع رنين مهمازه./ ما يزالُ صوته قادرًا على إدخال الرّعب إلى قلبك/ عندما ينطلق من بين أسنانه العاضّتيْنِ على اللّعنة،/ صراخُهُ آمرًا ناهيًا رجاله، الأموات».

سرعان ما اختفى غناء الشيّخ خلف ضوضاء رهيبة. تعالتْ ضجّة كبيرة في الجوار كما لو أنّ هنالك موكب من الخيّالة بصدد الاستعراض في الشّوارع المحيطة، بعد ذلك دوّتْ صفّارات سيّارات اسعاف «الصّليب الأخضر»، تلاها هدير سيّارات الشّرطة. قالت فريدا في نفسها إنّ الحرب في أوروبّا لابدّ أنْ يكون لها مثل هذا الضّجيج ومثل هذه الفوضى. لقد بدا الأمرُ وكأنّ المكسيك برمّتها اهتزّتْ لحدثٍ هائلٍ ومثير للوساوس.

فجأةً، اقتحمتْ مجموعةٌ من الرّجال المسلّحين الكازا أزول ليعتقلوا فريدا دون سابق إنذار غير تاركين لها الوقت لارتداء ملابسها أو لإجراء مكالمة. سارعوا إلى تقييد يديْها قبل أن يلقوا بها إلى داخل شاحنة لا تحمل أيّ علامة، شاحنة انطلقتْ من فورها لتشقّ مكسيكو مطلقة صفّارتها ومتوجّه إلى مقرّ الشرطة.

كان الوقت ليلًا. وكانت كلّ مصابيح المدينة مضاءةً.

50

في البداية، اعتقدتْ أنّها تعيشُ أحد كوابيسها أو لعلّها ماتت وهي الآن في الجحيم. ثمّ سرعان ما اصطدمت بالواقع: البرد، الرّائحة الكريهة، الضّجة المُتواصلة، هي دلائلُ على أنّها موقوفة في السّجن المركزّي. ناولوها قهوةً. سمحوا لها بالتّدخين، سألتْ عن سبب إيقافها، إلّا أنّها لم تتلقّ إجابة. ردّدتْ في نفسها: «اللّعنة، كلّ رجال الشّرطة حشراتٌ نتنةٌ! ليذهبوا جميعًا إلى الجحيم!»

بعد ساعتيْن من الانتظار، أقبل شرطيّ في لباس مدنيّ وقادها إلى قاعة كبيرة تقوم مقام ردهةٍ أحيانًا وقاعة رياضة أحيانًا أخرى. في الوسط تمامًا، تحت مصباح كهربائيّ أصفر حقيرٍ، لمحتْ طاولةً وكرسيّين. على كرسيّ منهما، كان يجلس الكولونيل «لياندرو سانشيز سالازار»، ذلك الّذي حقّق معها على إثر محاولة اغتيال تروتسكي في شهر مايو الماضي. أشار إليها رئيس الجهاز السرّي في مديريّة الشّرطة بالجلوس دون أنْ يقف أو أنْ يقوم بحركةٍ تدلّ على بعض اللّباقة.

- هل يمكنكم إخباري بسبب تواجُدي هنا؟ سألت فريدا.

نظر الكولونيل «لياندرو سانشيز سالازار» في عينيها في برودٍ تامّ ثمّ أجابها بهدوء المتسلّط العفويّ الّذي يفرضه منصبه وزيّه. كان يدخّن سيجارته الصّغيرة السّوداء ببطء شديدٍ ليتصاعد خيطٌ من الدّخان في الفضاء إلى أن يتبدّد في سقف القاعة.

- أنت المطالبة بإخبارنا ببعض الأشياء.

- لا أفهم قصدك.

- لكنّك تفهمين تمامًا، سترين. حسنًا، هل يمكنك أن تحدّثيني عن فرانك جاكسون، الاسم المستعار لجاك مورنارد؟

- لا أعرفه كفاية.

- أليسَ واحدًا من أصدقائك أو بالأحرى، من عشّاقك؟

- إن كانت كلّ أسئلتك من هذا النّوع فإنّي أفضّل الرّحيل، قالت فريدا بعد أنّ هبّتْ واقفة لمغادرة المكان.

- تعرّض تروتسكي لمحاولة اغتيال، قال الكولونيل مُتابعًا ردّ فعل فريدا الّتي أصيبتْ بصدمة دفعتها للتمسّك بالكرسيّ ومعاودة الجلوس حتّى لا تسقط. اغرورقت عيناها بالدّموع وظلّت عاجزة عن الكلام. لا أكثر من تكرار:

- تروتسكي؟ ترتسكي؟

- نعم، هل يذكّرك هذا الاسم بشيء.

- من تجرّأ على فعل ذلك هذه المرّة؟

- فرانك جاكسون.

راح الكولونيل يتفحّص فريدا بردود أفعالها وأدقّ حركاتها.

إنّها الصّدمة الثّانية الّتي تعيشها، صدمةٌ لا تختلف عن طلقة رصاصيّة ثانية أطلقها رجلٌ متستّر في الظلام. انتشر الألمُ فضيعًا في كلّ نقطة من جسمها.

- لا يمكن أن يكون هو!

- لم لا؟

- هذا غير ممكن!

- إذا أردتِ رأيي، فهو لم يفعل ذلك بمفرده، لن يخطّط لضربته منعزلًا في إحدى الأركان.

- لا يمكنك أن تُصدّق ذلك...

- أصدّق ماذا؟ أن تكوني متورّطة في هذه الحكاية؟ في وسعك أن تُقنعيني بعكس ذلك إذن...

- متى... وكيف حدث ذلك؟

- في نهاية هذا اليوم. تسلّل «جاكسون-مورنارد» إلى مكتب تروتسكي بتعلّة عرض نصّ كتبها لتوّه. وفي الوقت الّذي انشغل فيه تروتسكي بقراءة المقالة سدّد إليه ضربة فأسٍ من الأمام. سقط تروتسكي وأطلق صرخاتٍ مُرعبة وفق ما أدلى به الشّهود. أقبلتْ زوجتُه ومساعدوه إلى مكتبه. هبّ الحرّاس الشّخصيّين إلى المعتدي وطرحوه أرضًا ثمّ أوسعوه ضربًا بأعقاب البنادق بينما حاول تروتسكي برأسه النّازف شرح الّذي حدث.

- يا إلهي، يا لفظاعة ما حدث! يا لفظاعة ما حدث.

- انهار تروتسكي على الأرض عند وصول الطّبيب.

- هل تمكّن من التّحدّث؟ هل قال شيئًا؟

- قال: «ناتاشا أحبّك». وقال أيضًا: «ينبغي إخبار أصدقائنا بأنّني متأكّد من انتصار الأمميّة الرّابعة... إلى الأمام!»

- وأين هو الآن؟

- في المستشفى. التدّخل الجراحيّ جارٍ في هذه السّاعة بالذّات، نَقْبُ الجمجمة، إلخ.

- لن يموت بهذه الطّريقة، هذا مستحيل... لا علاقة لي بكلّ هذا! قالت فريد قبل أن تضيف شبه صارخة: أريد رؤيته! أريد رؤيته!

- اهدئي يا سيّدتي الكريمة، اهدئي... ألمْ تلتقِ به في باريس؟ التقيته أيضًا في مكسيكو مرّاتٍ كثيرة هذا الـ«فرانك جاكسون»...

- وماذا في ذلك؟

- تعرفين أيضًا سيلفيا أغولوف...

- اسألها هي! هي الّتي ستتروج فرانك جاكسون لا أنا!

- إنّها عاجزة تماما عن الإجابة: مستشفى، سترة مُقيِّدَة، مسكّنات، لا تكفّ عن تكرار أنّها تعرّضت للخيانة، أنّ جاكسون استخدمها وأنّها تفضّل الموت. وأنّها تُريد له الموت أيضًا -هذه كلماتها هي- وأنّ تروتسكي إذا مات سيكون خطأها الّذي لن يُغتفر، لأنّها من جلبت الذّئب إلى الحظيرة...

- كيف تجرؤ على الاعتقاد بأنّي شاركتُ من قريب أو من بعيد في هذه الجريمة النّكراء؟

- تعلمين جيّدا، ما أنا إلّا شرطيّ يعتمد على سبر الحقائق. وماذا تقول لنا الحقائق؟ تقول إنّك التقيت بجاكسون وسيلفيا في باريس، وإنّك التقيت بهما في مكسيكو أيضًا... أمّا روابطك بتروتسكي فهي مثبتةٌ...

في هذه الأثناء، رنّ الهاتف. قال الكولونيل لفريدا إنّه مجبر على مغادرة القاعة وإنّ عليها الانتظار في مكانها، فلن يطول الأمر.

وقفت فريدا وتوجّهت ناحية النّافذة. حول البناية، ثمّة حركة غير عاديّة من الشّرطة. اجتمع حشدٌ كبير من النّاس. ثمّة أيضا صحفيّون مكسيكيّون وأجانبٌ ومصوّرونٌ كثيرون. توافدت سيّاراتٌ ودرّجاتٌ ناريّة لتحدث ازدحامًا صاخبًا لا يكفّ عن التّزايد. بدا جهاز الأمن في قمّة انشغاله.

بعد مضيّ ما يقارب العشرين دقيقة، عاد الكولونيل. كان بوجه شاحبٍ. لقد دخل تروتسكي في غيبوبةٍ تامّةٍ. السّاعة كانتُ تشير إلى السّادسة مساءً.

تمّ إعادة فريدا إلى زنزانتها. بعد أن أكلت ما يسدّ الرّمق، نامت. استيقظت في الفجر على دخول أختها كريستينا الّتي أوقفوها هي الأخرى. كانت في قمّة غضبها. لقد أجبروها على ترك أطفالها لوحدهم، لم يرد رجال الشّرطة الاستماع

إليها، والأدهى والأمرّ أنّهم قلبوا منزليْهما الاثنين رأسًا على عقبٍ! كانت الأخبار تصلها من الرّاديو. تحدّثوا عن حشدٍ آخر عظيمٍ مُجتمع أمام مصحّة «الهلال الأخضر». هي في تلك الزّنزانة لا تعرف شيئًا عن حقيقة ما يجري فيما عدا ما صرّح به جاكسون نفسه في سيّارة الإسعاف الّتي نقلته إلى المستشفى. هناك حيثُ قدّم ما يُشبه الاعتراف للشّرطة فيه كشف عن الأسباب الّتي دفعته للقيام بجرمه كما أعلن أنّ لا علاقة لها بالشّرطة السّريّة الألمانيّة.

- لا يستحقّ المرء أن يكون عبقريًا كيْ يعرف أنّ الاستخبارات الرّوسيّة من تقف وراء العمليّة! قالت كريستينا الّتي صدمتها فكرة أن يكون فرانك القاتل.
- لا أخبار أخرى؟ سألت فريدا.
- عندما أرادت الممرّضات خلع ثيابه قبل أن تنقلنه إلى غرفة العمليّات، قال لناتاليا «بنبرة تجمع بين الحزن والجديّة»: «لا أريد أنْ يخلعن ملابسي، قومي أنت بذلك».

تأثّرت فريدا لسماع ذلك. تخيّلتْ ليون النّازفَ وفاقد الوعي تقريبًا إلّا أنّه ظلّ حريصٌ على الحفاظ على كرامته وراغبٌ في أن تكون زوجته الّتي أحبّها والّتي رافقته في كلّ مكان ذهب إليه بأنْ تكون من تخلع ملابسه.

- هذا فقط؟ لا خبر آخر؟ لا تفاصيل أخرى.

كانت فريدا لا تكتفي بأيّ خبر يصلها. كانت تريد معرفة كلّ شيء وكلّ تفصيل يخصّ تلك الدّراما. ماذا إن لم تر صديقها الرّوسيّ العزيز مجدّدًا؟ تلك إمكانيّةٌ تعجز على احتمال مجرّد التّفكير فيها.

- لا، لا أخبار أخرى. أجابت كريستينا قبل أن تستدرك: آه نعم. لقد اكتشفت الشّرطة الشّقة الّتي قدّمها فرانك جاكسون على أنّها عنوانهُ الرّسميُّ، الشّقة كانت ورشة سيكيروس.

- يا لذلك القذر، الأحمق! ومع ذلك لا يُقبض عليه إلى اليوم.

سريعًا ما جاء دور كريستينا في التّحقيق. مثلما حدث لفريدا تماما، لم يجدوا ما يمكن أنْ ينسبوه إليها. عندما عادتْ إلى الزّنزانة، كانتْ مصحوبة بالكولونيل «لياندرو سانشيز سالازار». بسيجارةٍ في يده، ألقى نظرةً متعاليةً على المرأتيْنِ الباكتيْنِ لفكرة بقائهما في الزّنزانة وبالخصوص كريستينا الّتي تركت أطفالها وحيدين بلا طعام.

- المساكين لا يعرفون حتّى أين أنا. لم أترك لهم شيئًا يأكلونه. قالت كريستينا متوسّلة للشّرطيّ بأن يطلق صراحها. نحن غير متورّطتيْنِ في شيء، لا في الاغتيال ولا في ضربات الفأس.

ابتسم الكولونيل وهو يمضغ عقب سيجارته. كان يرفع سيجارته تلك من فمه ويعيدها إثر كلّ نفخةٍ مثل طفل يلعبُ بمصّاصته. من الواضح أنّه يستمتع بإبقائهما هناك أطول وقتٍ ممكنٍ.

- حسنًا يمكنكما العودة إلى منزليْكما، لكنّكما ستظلّان على ذمّة العدالة.

ثمّ أضاف متوجّها لفريدا: قولي لدييغو الشّجاع جدّا أنّه لم يعد يحتاج للاختباء في سان فرانسيسكو وأنّه لن يتعرّض مجدّدا للإزعاج لا من الشّيوعيّين ولا من التّروتسكيّين ولا من الشّرطة...

51

كانت الكازا أزول موحشةً. لم يطرأ أيّ تغيير على الغُرفة حيثُ رتّبتْ لوحاتها. ظلّ كلّ شيء في مكانه. كان بورتريه تروتسكي بهيبْته يحتلّ مكانًا يتوسّط الورشة في صمتٍ مُثقلٍ. قبل ساعاتٍ معدودةٍ، كانت فريدا تنتظر دخول ليون إلى هذه الغرفة نفسها. ربّما تكون تلك هي المرّة الأخيرة الّتي تنتظره فيها. رنّ الهاتف عدّة مرّات. لم ترفع السمّاعة. السّاعة كانت السّابعة والنّصف. سكبتْ أوّل كأس من الويسكي، ثمّ الثّاني. في السّاعة السّابعة وأربعين دقيقة رنّ الهاتف من جديد. التقطت السّمّاعة هذه المرّة. كانت تحتاج إخماد ذلك الرّنين!

- فريدا كاهلو؟

بدا صوتُ المتكلّم كأنّه قادمٌ من عالمٍ آخر، لكنّه كان صوتًا مألوفًا.

- أنا الكولونيل «ليياندرو سانشيز سالازار».

- هلْ تنوي إزعاجي لوقتٍ طويلٍ.

كان الصّوتُ مُتردّدًا وجادًا في آن:

- أكلّمك في خصوص ليون تروتسكي.

- ماذا أيضًا؟

- لم ينج ليون تروتسكي على إثر العمليّة الجراحيّة. لقد تُوفّيَ في تمام السّابعة وخمس وعشرين دقيقة!

تركت فريدا كأس الويسكي يسقط من يدها ليبلّل جزءًا من فستانها. تحوّلتْ إلى خرساء، وظلّت تُنْصِتُ فيما يُشبه الضّباب للكولونيل وهو يسرد عليها التّقرير الطبّيّ:

- نزيفٌ تحت الجافية... سائل في داخل الأنسجة... فتحة في الجمجمة بعرض سنتمتريْن وعمق سبعة سنتمترات... فقدان المادّة البيضاء من المخ... اجتزاء بسبب المشرط... من المُخيخ والنّخاع الشّوكي...

تابع الكولونيل تراتيله العدميّة في الفراغ لأنّ فريدا تركت السّمّاعة تتدحرجُ من يدها منذ أن استمعتْ للخبر، ظلّت السّمّاعة تتأرجح في الفراغ لزمنٍ طويلٍ قبل أن تُقرّر إعادتها إلى مكانها. أمضتْ جزءًا غير هيّنٍ من اللّيل مطأطأة الرّأس إلى أن قرّرت فجأةً الاتّصال بـ«دييغو القذر، حتّى يدفع الثّمن!». رفع دييغو السمّاعة مع تمام الرّنة الثّانية، لم تترك له فرصة قول أيّ شيءٍ:

- لقد اغتالوا العجوز! صرختْ. أيّها الأحمق! أيّها الغبيّ! هذا خطؤك أنت! لقد مات! لماذا جلبته إلى هنا! أيّها الأحمق! أيّتها القمامة! هذا خطؤك! خطؤك!

فريدا، مثل المجنونة تمامًا، راحت تزعق في الهاتف دون انقطاع. كانت بالكاد تترك بعض الوقت للتّنفّس مع كلّ شتيمة تُطلقها. ثمّ، شيئًا فشيئًا عاد إليها هدوؤها. أمّا دييغو، فكان في النّاحية الأخرى يستمع لتنفّسها الّذي بدأ يتباطأ، ولبكائها الّذي بدأ يتناقص.

- فريدوتشا؟

- ماذا، أيّ فريدوتشا؟

- عديدون هم الّذين سيبكونه!

- أمّا أنت فلن تبكيَهُ؟

- لكي أكون صريحًا، لقد بدأ حضوره يشكّل خطرًا على التّفاهم بين مختلف شرائح المجتمع المكسيكيّ. تحالفاتٌ كثيرة، استبعاداتٌ كثيرة، صراعاتٌ داخليّة كثيرة.

- يليق بك قول ذلك!

- ولماذا لا أقوله؟
- أنت تنعم بالدّفء هناك في فرانسيسكو! إلى جانب عاهرتيْك!
- وماذا في ذلك؟ هذا حقّي! في كلّ الأحوال، هذه المرّة لن يشكّوا في كوني متورّط في الاغتيال. 20 أغسطس، هو يومٌ قضيته بكامله في العمل على جداريّة في مكانٍ واضحٍ من المعرض الدّولي في «غولدن غيت»...
- لكن، لا أحد يتّهمك بشيء!
- على كلّ، يبدو أن الشّرطة قد فتّشتْ منزلي في سان أنخيل. سرقوا السّاعة الحائطيّة الّتي أهديتها لي، سرقوا رسومات وأعمالًا مائيّة ولوحات وحتّى بعض الملابس.
- هناك رجلٌ ماتَ وأنت تُحدّثني عن ساعتك الحائطيّة. رجلٌ كنّا استضفناه عندنا! رجل كان صديقًا لنا، وأنت تصدّع رأسي بذكر ساعتك اللّعينة!

لم يردّ دييغو بكلمة، ترك الصمتَ يخيّم على النّاحية الثّانية، تابعت فريدا قولها:

- على كلّ حالٍ، لا شيء يمنعك الآن من العودة. أنت لم تعد ملاحقًا... لا شيء يترصّدك. بات بإمكانك النّوم ملء جفونك في مكسيكو.
- لم أفرغ بعد من جداريّتي، ثمّ إنّي أخشى الانتقام.
- الانتقام؟ من طرف من؟
- من طرف التّروتسكيين بطبيعة الحال! لقد فهمتُ أنّهم مازالوا يشتبهون في تورّطي في الهجوم الأخير. هذا كيْ أعلمك أنّي كلّفت حارسًا شخصيًا مسلّحًا لا يغادرني البتّة حتّى وأنا أعتلي السّقالة أين أعمل.

لم تعد فريدا قادرةً على التّحمّل. إنّهم يغضبونها جميعًا، اللّعنة عليهم! كلّ ما ترغبُ فيه الآن، هو أمر مستحيل: أن يعود ليون، أن ترافقه بعض الجولات

هنا وهناك، أن يتحدّثا لساعاتٍ طويلة، أن يلامسها الملامسات الّتي وحده يعلم بسرّها، أن يكتب إليها رسائل قصيرة ويدسّ بها في الكتب.

تردّد رنينُ الهاتف لكامل المساء وجزء كبيرٍ من الليل. انتهت برفع السمّاعة. كانت تُريد أن تبقى وحيدةً مع شبح ليون والبورتريه الّذي اعتبرته جُزءًا منه بما أنّها كانت قد أهدته له. مات ليون فصار حزنُها أبديًّا. لن ترسم، لن تحبّ، وستمضي بنفسها إلى الموت. أخذت الدّفتر الأحمر حيثُ يُنقش الحرفان «ج. ك»، آخرَ هديّةٍ من ليون، فتحت الدّفتر وشرعتْ في الكتابة. كتبتْ عن حياتها العاطفيّة المُعقّدة، عن طلاقها من دييغو، عن موت أبيها الّذي جدّ قبل سنواتٍ، عن حَمْلها عديد المرّات دون أنْ تتمكّن من المحافظة عليه إلى آخره، عن مشاكل عمودها الفقري الّتي عادتْ بقوّة. كتبتْ بعد ذلك على صفحة أخرى وبأحرف قرمزيّة كبيرة: «تروتسكي، تروتسكي، تروتسكي، تروتسكي» ثمّ رسمت في إحدى الزّوايا وجهًا أصفر له حوافّ خضراء، ثمّ كتبتْ بالحبر الأزرق على صفحةٍ أخرى وبين مزدوجيْنِ أبياتًا لَخّصَتْ فيها قصّة موت ليون:

«سمح للخائن بالدّخول
إلى غرفة وحدته...
الخائن الّذي نفّذ أمرًا
يقضي بضربه من الخلف
بينما هو منكبّ على قراءة مقالة قذرة
كان الخائنُ عضوًا في المخابرات الرّوسية
كان ذئب أحلامه
خلّف الفأسُ ثُقبا في دماغه
ثُقبا عمقه سبعة سنتمتراتٍ
في سيّارة الإسعاف الّتي شقّت مكسيكو

لمح ليون المصابيح المضاءة- كان اللّيلُ قد حلّ آنذاك.

توفّي في اليوم المولي، دون أن يتمكّن من الاستيقاظ

كانت جيوبه مليئةً بالرّماد».

وفي الفضاء الّذي بقيَ فارغًا أضافتْ كتابة:

عزيزي ليون

«أنا – وددتْ لو كنتُ-

المرأة الأولى

لـ

حيـَ

تِكَ».

52

جرتْ مراسم جنازة تروتسكي من غد يوم وفاته. قدم أكثر من مائتي ألف شخصًا لإلقاء نظرة الوداع على الجثّة المعروضة في قاعة شركة «ألكازار» الكبيرة في وسط مكسيكو. كانت الصّدمة عامّة، لَكَأنّ شعب المكسيك بكامله هبّ لرؤية الزّعيم المغدور. ثمّ ووفق ما يفرضه التّقليد المكسيكيّ، انطلق الموكب وسار الجميع خلف النّعش المفتوح في بطءٍ ليشقّ الشّوارع الرّئيسيّة وأحياء العمّال الفقيرة في اتّجاه المقبرة. كان هناك عدد كبيرٌ من التّروتسكيّين ومن أتباع المذهب الكاثوليكيّ وأكثر منهم كان عدد العمّالُ الّذين جاؤوا مباشرة من المناجم وحقول النّفط. كان هناك حُفاةٌ من الرّجال والنّساء في أسمال بالية وفلّاحون من «ميتشواكان» و«بويبلا»، فقراءٌ ومهمّشون جاؤوا من مناطق بعيدة. بكى شعبٌ كاملٌ وعبّروا عن رغبتهم في التّظاهر في حضرة من يعتبرونه أحد كبار قادة أعظم ثورات القرن. في المقبرة، تعالتْ الخُطَب الدّاعية للانتقام، وأغاني الكورّيدوس، والشّتائم الموجّهة للصّحافة السّوفيتيّة ومراسليها المكسيكيّين الّذين لم يكفّوا عن وصف تروتسكي «بالقاتل الخائن والجاسوس العالميّ» والتّحدث عن «نهايته المُخزية».

وبما أنّ التّروتسكيّين الأمريكيّين عقدوا العزم على نقل الجثّة إلى الولايات المتّحدة، فقد أُعيدَ التّابوت إلى مقرّ شركة «ألكازار» أين بقي خمسة أيّام في انتظار قرار وزارة الخارجيّة الأمريكيّة. كان الرّدّ سلبيّا كما توقّع الجميع: يعدّ منح فيزا لبقايا الثّوريّ بمثابة الدّعاية للشّيوعيّة بطوائفها «الصّبيانيّة»، من شأنها أن تُشارك في ترسّخها أكثر على الصّعيد العالميّ.

يوم 27 أغسطس، تمّ حرق الجثة أخيرًا في إحدى الغرف المخصّصة للغرض في «البانثيون»، ثمّ تمّ دفن رماده في ساحة قلعة شارع فيينّا. في أعلق القبر، رُكّز حجر مستطيل أبيض وإلى ذلك شُدّ علمٌ أحمرٌ. لم تستطع فريدا الّتي غرقت في اكتئابٍ ثقيلٍ المشاركة في أيّ من تلك المراسم.

قضتْ أيّامها تلكَ غارقةً في استهلاك الكحول والمُهدّئاتِ. تواترت أفكارها الانتحاريّة وأسئلتها عن جدوى ممارسة الرّسم. كانت تقضي أوقاتها متنقّلة داخل ورشتها بلا هدفٍ. عادت آلام ظهرها. للتّخفيف عنها ولو قليلا، عمد الأطبّاء إلى نزع كورسيه الجبس وشدّها بآلةٍ رهيبةٍ متركّبةٍ من عصيّ رصاصيّةٍ ودعامةٍ تُثبّت الذّقن والرّقبة. كانت تعيشُ ألمًا من الجحيم، ألمٌ جسديّ ومعنويّ. جحيمٌ كانت قادرة على وصفه بدقّة. نقص وزنها 15 رطلًا وكانت تقول إنّها «تشعر بتعفّنٍ داخلها». والّذي زاد الأمور تعقيدًا، فإنّ الأخصّائيّين الّذي يتابعون حالتها قد أعلنوا أنّها تُعاني من سلّ في العظام، واحدة من المخلّفات البعيدة لحادث التّرام، ممّا يستوجبُ تدخّلًا جراحيّا فوريّا. قبل أيّام قليلةٍ من موعد العمليّة، تلقّت مكالمةً هاتفيّة من صديقها الدّكتور «ليو إلويسير»، رئيس قسم في مستشفى «سان لوكا» بسان فرانسيسكو. حدّثها طويلًا عن دييغو:

- ما الّذي بإمكانه أن يفعل من أجلي؟ أجابت فريدا.
- أعتقد أنّكما غير قادريْنِ على العيش بعيدًا عن بعضكما البعض. تحبّان الرسّم. أنت تحبّين الرّجال والنّساء في العموم بينما هو يحبّ النّساء...
- نعم، لكنّ ذلك يؤلمني كثيرًا يا ليو.
- فكّري. دييغو غير قادر على الاكتفاء بامرأةٍ واحدة، إنّه أمرٌ سخيفٌ ومخالفٌ للبيولوجيا.
- إنّه تيسٌ يسبّبُ مرضي ويثير غيرتي.
- ادفني غيرتك في العمل الدّؤوب والرّسم والتّدريس وأيّ شيء آخر.

اعرضي شروطك على دييغو. أعلميه بالحدود الّتي لا ينبغي عليه تجاوزها. وتابعا علاقتكما على أسس جديدة.

- هل تريدنا أن نتزوّج مرّة أخرى؟

- لا ترغبين في ذلك، أنت؟

- في الحقيقة، لم أعد متأكّدة من شيءٍ. أشعر بألم كبيرٍ في مكانٍ مني، ألمٍ في كلّ الأوقات. قضى عليّ موتُ ليون، والعمليّة الجراحيّة اللّعينة تزيد في حجم دماري.

- لا تسمحي بأنْ يتمّ ذبحك من طرف أولئك الجزّارين. تعالي إلى سان فرانسيسكو. يعاني دييغو بسبب معاناتك. إنّه حزين تمامًا. نهايةً، إنّه مستعدّ لإيوائك في منزله.

- مع مجريّته وتلك «الغودار»، لا شكرًا!

- رحلت «المجريّة» منذ وقتٍ طويل أمّا علاقته ببوليت فقد بدأت تتّجه صوب نهايتها.

في بداية سبتمبر، حطّت طائرة فريدا في مطار سان فرانسيسكو: كان دييغو وليو في استقبالها.

53

مضى وقت طويلٌ على آخر مرّة رأت فيها دييغو. لم يتغيّر البتّةَ: ما يزال على وحشيّته كما كان دائمًا، ما يزالُ صلبًا وطفوليّا ومستبدًّا ومضحكًا في آن. لكنّه بدا لها هذه المرّة أكثر اهتمامًا ولُطفًا. «هل كنتُ سيّئةً إلى تلك الدّرجة؟» انتهتْ بأن سألته. لم يجبها بل اكتفى بضمّها بين ذراعيها كما كان يفعل أحيانًا. أمضيا وقتًا طويلًا على تلك الحال من الصّمت في شقّته الّتي تقع في مرتفعات سان فرنسيسكو. التزم كلاهما بعدم التّحدّث عن تروتسكي والزّواج لكنّها كانا يعلمان أنّ هذيْن الأمرين حاضريْنِ بكلّ قوّة وأنّ عليهما الخوض فيهما في قادم الأيّام. ليتركا الأمور الأساسيّة بعيدةً الآن. ففريدا هنا لتلقّي العلاج قبل أيّ شيء آخر. وكان ليو إلويسير يريد فحصها في أقرب الآجال.

في الأيّام الموالية، تمّ قبولها في قسمه في الطّابق الحادي عشرة بإحدى العمارات المربّعة الشّاهقة الّتابعة لمستشفى سان لوكا، البناية رقم 54 من شارع سيزار تشافيز. بعد الخضوع لعدّة فحوصاتٍ دقيقة- البزل القطني، التّصوير الشّعاعيّ، وحقن اللّيبيدول- انتهى إلويسير إلى نقض التّشخيص المفزع الّذي توصّل إليه زملاؤه المكسيكيّون: لم يكن السلّ العظميّ سوى عدوى بكتيريّة حادّة في الكليتيْنِ سبّب لها تهيّجًا على مستوى أعصاب السّاق اليُمنى. تهيّجٌ تعمّق بالأنيميا الحادّة الّتي كانت تُعاني منها. ما تحتاجه فريدا في الواقع هي الرّاحة التّامّة والتوقّف النّهائي عن تناول الكحول مع علاج كهربائيّ ودواء يعتمد على الكالسيوم أساسًا.

على الرّغم من أنّ المستشفى لم يكن يومًا مكانًا مخصّصًا للبهجة، إلّا أنّ فريدا

كانت كلّ يومٍ تشعر بأنّها وُلدتْ من جديد، تحسّنت حالتها النّفسيّة والجسديّة، عادت إليها رغبتها في الرّسم. لقد تمّ التكفّل بها كأحسن ما يكون. كان مدلّلةً من الجميع ومحبوبةً. حتّى أنّها شعرت بأنّها أخيرا حُظيت بالرّاحة بعد كلّ سنين العذاب والأزمات. كان دييغو يأتي لزيارتها بانتظام، وشيئًا فشيئًا، تسلّلتْ فكرة الزّواج من جديد إلى محاوراتهما، تسلّلتْ عبر بعض الإشارات النّاعمة وكانت صادرةً بالخصوص عن دييغو.

ذات يوم، قال لها إنّه سعيدٌ بعودتها سعادةً لا توصف وإنّه مستعدّ لقبول كلّ شروطها!

- وعندما تقبل بكلّ شروطي، نجتمع معًا إلى الأبد، هذا قصدك؟

- نعم، هذا ما أقصده تمامًا. أجابها مقبّلًا شفتيْها، القبلة الّتي لم تنعم بها منذ زمنٍ طويلٍ.

يوم 4 أكتوبر، دخل دييغو إلى غرفتها في مستشفى سان لوكا ملوّحًا بقارورة شامبانيا بيد وباليد الأخرى يمسك جريدة. كان هو الوحيد، وهو أقلّ ما يمكن قوله، الّذي لم يبك موت رفيقه تروتسكي، وها قد جاء اليوم ليصرخ في الغرفة:

- تروتسكي! تروتسكي!

كانت فريدا تعمل على لوحةٍ من الطّبيعة الحيّة، «طبيعة حيّة من قلبٍ مفعم بالحيويّة»، وضعتْ لوحة الألوان جانبًا ومضت تراقب دييغو الّذي بدا غامضًا. ما الّذي سيقوله لها ملكها الضفدع؟ منذ أيّام عديدة، لم تُفكّر في ليون ولم تمرّ صور حادثة الاغتيال من أمام عينيْها. كان دخول دييغو بمثابة طلقة مدفعية أعادتْ لها كلّ شيء ضربةً واحدةً:

- لقد قبضوا أخيرًا على الوغد!

- لكن، عمّن تتحدّث بالتّحديد؟

عن ذلك الّذي لطالما قدّمته الصّحافة على أنّه «البطل المضطهد من

البرجوازيّين»، عن «نصف المجنون» ذلك، «المغامر المتهوّر»، الخائن الّذي سخّر حياته لملاحقة تروتسكي، تمّ إيقافه أخيرًا.

- دافيد ألفارو سيكيروس، ذلك الوغد!

انهمرت دموع فريدا وطلبت من دييغو أن يناولها الجريدة. كانت تريد أن تلامسها بيديها، وأن ترى المقالة المعلنة عن الخبر الرّائع بعينيْها. هناك عنوان يشغل الصّفحة الأولى: «القبض على سيكيروس في مرتفعات هوستوتيباكيّو». استمرّت المطاردة لأشهر عديدة. وبالصبّر الّذي كان يتحلّى بها الكولونيل لياندرو سانشيز سلازار. بعد تمشيط دقيق لكلّ ولاية خاليسكو، هو وبعض من رجاله المتنكّرين في هيئة تُجّار الحليّ وفلّاحين وعمّال مزارعين، زاروا عديد المزارع ودخلوا إلى كلّ كنيسة بتعلّة الاعتراف. وصل بهم الأمر إلى حلاقة رؤوسهم في المحلّات المجاورة وإلى تمثيل أدوار وكلاء انتخابات بما أنّ ولاية خاليسكو كانت تعيش حينذاك أوج حملتها الانتخابيّة البلديّة. وهكذا، يوم 4 أكتوبر، تمكّنت الشّرطة من إلقاء القبض على سيكيروس بينما كان بصدد النّزول من المرتفعات في قاصدًا القرية للالتقاء ببعض المناضلين الشّيوعيّين في مكتب ضابط الحالة المدنيّة.

- هل قرأت ما قاله ذلك القذر! هل رأيت ذلك؟ كرّرت فريدا بقولها: «أؤكّد مشاركتي في هجوم 4 مايو وفي اغتيال روبرت شيلدون هارت وأعتبر ذلك من أعظم الأوسمة الّتي تلقّيتُها في حياتي!» يا له من وقح، يا له من كلب!

لمّا رأى دييغو غضب فريدا المتزايد، فتح زجاجة الشّامبانيا ليغيّر مجرى الأحداث، لابدّ من الاحتفال بهذا اليوم السّعيد! هذا خبر استثنائيّ يحتاج إلى خرْق تعاليم الطّبيب، أليْس كذلك؟ ابتسمت فريدا وافتكّت الزّجاجة لتشرب من فمها مباشرةً، ثمّ توقّفتْ عندما لمحتْ رجلًا يقف على عتبة غرفتها، بدا شبه متخفٍّ خلف الباب تعوزه الجرأة على الدّخول.

- ادخل، ادخل قال دييغو الّذي نسيَ في غمرة نشوته باللحظة أن يُدخل الشّابّ الّذي كان برفقته.

ظلّت فريدا تُراقبه دون أن تتخلّى عن زجاجة الشّامبانيا، بدتْ مضطربةً بعض الشّيء.

- هاينز بيرغروين تابع دييغو قوله، جامع أعمال فنيّة وتاجر ذائع الصّيت، فرّ من ألمانيا النّازية ويشغل حاليّا منصب منسّق العلاقات العامّة في معرض «غولدن غيت». كان دائمًا يعبّر عن رغبته في الالتقاء بك.

- نعم، هذا صحيح، قال الرّجل في خجلٍ.

ثمّة أمرٌ حِيكَ لها سرّا. أمرٌ يريده دييغو أن يُخلّص فريدا من حزنها، أمرٌ من شأنه أن يخفّف عليها وطأة الملل في المستشفى. كان هاينز شابًّا وسيمًا يكاد مظهره أن يكون أنثويًّا. هو كائنٌ شاعريٌّ وحسّاسٌ ورومنسيٌّ على عكس ما يتّصف به دييغو من صلابةٍ وتعجرف لا يكفّ عن التّباهي بهما. وقعت فريدا تحت سحر ذلك الرّجل النّحيف في اللّحظة الّتي لمحتْه فيها وهو يعتّب الباب، بعينيه الواسعتيْنِ الشّبيهتيْنِ بعيني فتاةٍ. سيكون هاينز صديقًا رائعًا لفريدا يرافقها بلطفه إلى أن يحين خروجها من المستشفى، سيكون مكمن سرّها وعاشقها الخجول والخدوم الّذي لن يخشى دييغو من ناحيته شيئًا. لذلك أوكل إلى هاينز مهمّة الاعتناء بفريدا بشكلٍ رسميّ.

الّذي لم يتوقّعه دييغو في غوايته الشّيطانيّة تلك هو أنّ هاينز وقع فعلًا في حبّ فريدَا فور رؤيتها بالرّغم من أنّها كانت طريحة فراش المرض وذابلةً بسبب الأدوية الّتي كانت تُخدّرها، كما لم يتوقّع أيضًا أنّ فريدا الّتي سعدتْ بكونها ما تزالُ قادرةً على إثارة ذلك الشّابّ إلى تلك الدّرجة قد شعرت هي الأخرى بانجذاب جارفٍ تُجاه هاينز. انشغل دييغو بالعمل على جداريّته تاركًا المجال حرًّا لهاينز الّذي واظب على زيارة فريدا كلّ يومٍ طيلة شهر إقامتها في المستشفى.

وبالرّغم من أنّ المكانَ كان بعيدًا على أنْ يكونَ مثاليًّا كيْ تدور وقائع قصّة حبّ بين شابّين عاشقيْن -كانت في الثّانية والثلاثين وكان في السّادسة والعشرين من العمر- إلّا أنّهما تمكّنا من عيْش أكثر اللّحظات الشّهوانيّة الّتي كانت تزدادُ حدّةً بقانون المؤسّسة الّذي يمنع المرضى من الانغلاق داخل الغرف. كانت ضجّة الأبواب تُثير شعورًا متزايدًا بالخطر ممّا كان يُعمّق في حجم تشبّث العشيقيْنِ ببعضهما البعض وهما يعرفان أنّهما قد يُفَاجآن متلبّسيْنِ في أيّ لحظة من قبل طبيب أو ممرّضة. لم يسبق لفريدا أن عاشتْ إثارة مشابهة أمّا هاينز فقد كان يعيش تلك اللّحظات بعاطفةٍ جارفة وباندفاعِ مجنونٍ لا يُصدّق أنّه يُمارس الحبّ كلّ يومٍ مع واحدةٍ من أيقونات عصره.

مع انتهاء فترة النّقاهة، لم تذهب فريدا إلى شقّة دييغو وإنّما سارعت بالسفر إلى نيويورك بحجة تنظيم المعرض الجديد الّذي كان جوليان ليفي قد وعدها بتنظيمه في السّنة المقبلة. وهي في الحقيقة، كانت تهرع إلى تلك المدينة لتلتقي بعشيقها في «باربيزون بلازا»، النّزل الفاخر الّذي غادرته باكية قبل أقلّ من سنةٍ على إثر إنهاء علاقتها بنيكولاس موراي.

مثّل خريف نيويورك بمناخه الملطّف بما يُسمّى ظاهرة «الصّيف الهنديّ»[1] بألوانه الحارّة بالنّسبة لفريدا فترةً من السّعادة الحقيقيّة خصوصًا في أسابيعه الأولى. أخذها خلاله هاينز المجنون بحبّها إلى كلّ الأماكن الّتي أحبّتها من قبل وجعلها تكتشف أماكن أخرى كان هو يفضّلها بشكلٍ خاصّ. جولات كثيرة في السّنترال بارك، مناقشاتٌ لا تنتهي في شرفات مقاهي حيّ «إيطاليا الصّغرى»، وجباتٌ عشاء بتلك المطاعم الصّغيرة في أزقّة حيّ «لوير إيست سايد»، حضورٌ متكرّر للحفلات الّتي ينظّمها جوليا ليفي ومجمع الفنون. كان تفاهمهما واقعيًّا إلى درجة أنّهما كان يبدوان غامضيْنِ على الأراضي الأمريكيّة. كانا يضحكان

(1) الصّيف الهنديّ: نوبة من الطّقس المشمس الّتي يشهدها شهرا أكتوبر ونوفمبر،

لأيّ شيء مهما بدا بسيطًا. فعلى سبيل المثال، وجدا السّكّان القادمين من جزيرة «جرينلاند» في غاية الغرابة والشّذوذ، فكانا في كلّ مرّة يراقبانهم بالهزل المبالغ في نفسه ومن المسافة نفسها وببعض التّعالي أحيانًا: لا يمكنهما العيش على طريقتهم مهما حدث.

رغم ذلك، بدأ التّوتّر يتسرّب إلى علاقتهما شيئًا فشيئًا. أصبح هاينز غيورًا ومتملّكا دون القدرة على تفهّم فريدا الّتي كانت تحتاج إلى كتفِ صلبٍ تستند إليه. كان هاينز شابّا مرحًا، خفيفًا لكنّه كان ضعيفَ الشّخصيّة ومتقلّب المزاج. بطريقةٍ مّا، كانا كلاهما متقاربيْنِ ومتشابهيْن إلى درجةٍ كبيرةٍ. كانت فريدا تنتظر من هاينز الحماية، وكان هاينز ينتظر من فريدا حبّا أكبر والتزامًا أكثر. «أنت لا تُحبّينني مثلما أحبّك. لست مستعدّةً للتّخلّي عن كلّ شيءٍ من أجلي!» قال لها ذات يوم. اكتفت بالنّظر إليه في شفقةٍ وبرفع عينيْها صوب السّماء. كان هاينز يتألّم. كان هاينز تعيسًا. كان يشعر بأنّ قصّتهما تتوجّه حثيثًا صوب نهايتها.

دييغو هو أيضا، كان تعيسًا على طريقته على بعد خمسة آلاف كيلومترًا. كان يشتاق إلى فريدا. كان يهاتفها كلّ يوم حتّى أصبح شديد الالحاح وعاد إلى غيرته القديمة. حدثتْ مكالمة هاتفيّة ليليّة قلبتْ كلّ شيءٍ. أجرى دييغو عدّة مكالمات مع فريدا طوال النّهار. كانت السّاعة حينذاك في حدود الثالثة صباحًا. وكان هاينز وفريدا قد عادا لتوّهما من حفلةٍ نظّمها الرّسّام الكوبيّ «جيدو ليناس» المعروف بلوحاته السّوداء الّتي تتعقّب سرّ الدّيانة السّانتيريّة[1]. كان هاينز من رفع السّمّاعة هذه المرّة:

- نعم دييغو، هي هنا نعم، أحوّل لها السّماعة حالًا.

(1) السّانتيريّة: ديانة توفيقيّة نشأت بغرب إفريقيا ومنطقة الكاريبي، عرفت فيما بعد انتشارًا واسعا في كوبا.

في البداية، كانت فريدا تُجيب بكلماتٍ مقتضبة، ثمّ بـ«نعم» و«لا». سريعا ما أدرك هاينز الّذي شعر بأنّ حضوره يحول دون حريّة مخاطبتها لدييغو. لم تفعل فريدا ما يدحض شعوره ذلك. لذلك، غادر الغرفة مكتئبًا. لجأ إلى حمّام إلى أين وصلته بعض كلماتها الّتي جعلته يفهم فحوى المحاورة. كانت فريدا تضحك ملء شدقيها وتطلق تنهّدات مثيرة وتتحدّث أحيانًا بصوتٍ هامس. قبل أنْ تعيد السّماعة، سمعها تكرّر لعدّة مرّاتٍ: «أحبّك أنا أيضًا، وأشتاق إليك أيضًا». عندما ذهبت إليه في الحمام، قرأ على وجهها نهاية كلّ شيء.

- ستذهبين للالتقاء بدييغو، أليْس كذلك؟

- وهو أمرٌ غير مفهوم بالنّسبة لك. أعرف.

- ألم يتسبّبْ لكِ في أذى كبير؟ عمّ تبحثين بالتّحديد؟ ما الّذين ترغبين فيه؟ لن تعيدي الزّواج به على كلّ حال؟

- نعم، ربّما...

امتلأت عينا هاينز بالدّموع تقريبًا. كان عالمه ينهار أمام عينيْه. يا له من أحمق لمّا اعتقد أنّه قادرٌ على مجابهة ذينك الوحشيْنِ. فريدا ودييغو، رأسان ينتميان لنفس الدابّة الشرسة الّتي تحطّم كلّ أولئك الّذين يقتربون منها.

اقتربتْ فريدا من هاينز، لامسته بكلّ جسدها وهو جالس على حافّة خوض الاستحمام تحت ضوء باهتٍ منصبٍّ من المصباح.

- سنبقى أصدقاء، هاينز. أنا بحاجةٍ لأن نبقي أصدقاء.

- مثل أليخاندرو، مثل ناغوشي، مثل نيكولاس، مثل مدام بروتون. لا إذا ما انفصلنا أفضّل ألّا نلتقيَ أبدًا.

- لا تقل أشياء غبيّة مثل هذه، غمغمت فريدا الّتي لمْ تدرك أنّ عشيقها الشّابّ قد وصل إلى ذروة غضبه.

- أنت تحتاجين إلى أنْ يعبر الجميع من سريرك، رجالًا ونساءً!

- هلّا كففت عن هذه الوقاحة؟
- مثل تروتسكي، مثل حارسه الشّخصيّ، وحتّى قاتله بحسب رواية الجميع!
- إذا لم تصمت أيّها الأحمق الصّغير، إذا ردّدت اسم تروتسكي مرّة أخرى، سأبقر بطنك بهذا السّكّين، قالت فريدا الّتي سارعت إلى أخذ سكّين من الطّبق الّذي جلبه نادل النّزل إلى غرفتهما.

كانت اللّيلة خاطفة. نامت فريدا وحيدةً على السّرير، بينما قضى هاينز ليلته على الكنبة. خرجتْ في ساعةٍ مبكّرة. تركتْ هاينز نائمًا. كان عليها أن تلتقي بجوليان ليفي الّذي توصل لبيع عدد كبير من لوحاتها. عندما عادت إلى النّزل في بداية الظّهيرة، كان هاينز قد غادر بعد أن سدّد الفاتورة. لم يترك أيّ رسالةٍ.

هاتفت دييغو لتعلمه بأنّها ستصل إلى سان فرانسيسكو قريبًا وإنّ «عليهما التّحدُّث». أرسلت برقيّة للدّكتور إلويسير أين طلبت منه أن حجز غرفةٍ من أجلها في «نُزلٍ غير فاخر» لأنّها لا تملك الكافيَ من «المُلْكِ» إلى يوم 28 نوفمبر. كما طلبت منه عدم الإدلاء بيوم قدومها لأنّها لا تريد لأيّ سبب من الأسباب أن تحضر في حفل افتتاح «جداريّة دييغو السّخيفة» ولا تريد من أيّ شيء آخر الالتقاء ببوليت أو غيرها من عاهراته. ردّ عليها إلويسير بأنّه ينتظرها وبأنّه يضع منزله على ذمّتها.

54

يمكننا التّساؤل عن الّذي تفاجأ أكثر، فريدا أم دييغو الّلذان وجدا نفسيْهما وجهًا لوجهٍ في شقّة سان فرانسيسكو. كانت فريدا سعيدةً. فقد قضت أسابيع من الحريّة المُطلقة في نيويورك، التقت خلالها بأصدقاء قدماء، وبيعت خلالها بعض لوحاتها، حتّى آلامها اختفتْ بشكل مؤقّت، أمّا انفصالها عن عشيقها الوسيم اليهوديّ الألمانيّ الّذي يقول بينه وبين نفسه أنّه «ليس فرنسيًّا ولا ألمانيًّا ولا حتّى أوروبيّا مع أنّ الجنسيّة الأوروبيّة تظلّ حلما بالنّسبة لي» فلم يكن الانفصال الأوّل ولن يكون الأخير.

- لقد اشتقتُ إليكِ كثيرًا، يا حبيبتي فريدوتشا.

- اشتقت إليْك أيضًا، أجابتْ فريدا مُستنتجةً أنّ دييغو أكثر إخلاصًا منها.

- أحتاج إليكِ حقًّا.

ظلّت فريدا تتفحّصُ دييغو كما لم تتفحّصه من زمنٍ طويلٍ. بدا لها في عُمقه شخصًا حزينًا يحتاج إلى حضنٍ دافئٍ يلجأ إليه، يحتاجُ إلى نبعٍ حيويٍّ. فهو الطّفل أحيانًا، والعشيق أخرى، والزّوج أيضًا، ليس من أولئك الّذين يكتفون بمن يحبّهم أو بمن يخصّهم بالعناية. إنّه يحتاج إلى رفيقة دربٍ، ذلك ما كان يحتاجه تحديدًا. لماذا عادت إليه؟ أليست بصدد حَبْسِ نفسها من جديد داخل علاقة كادتْ بالأمس القريب أن تُدمّر حياتها؟

- نحن هنا لنتحدّث عن زواجنا ثانيةً، أليس كذلك؟

- نعم.

- إذن أريد أن أملي شروطي.

- يا حبيبتي أنا سعيد بعودتك لذلك فإنّي سأقبل كلّ شروطك.

ابتسمت فريدا:

- أوّلا، أريد أن أتكفّل بنفسي ماليًّا بفضل عملي الخاصّ.

- موافق.

- أريد أن أدفع نصف مصاريف المنزل.

- حسنًا.

- لا أريد أن يكون بيننا أيّ اتّصال جنسيّ.

تردّد دييغو قبل أن يُجيب. فعلى ما يبدو هذا الشّرط لا يلائمه تمامًا. كان يتمنّى بعض اللّين، لا أكثر.

- لا يا دييغو. لن تقترب منّي مُجدّدًا.

قال ملحّا:

- أنت تُبالغين، لكن، لماذا؟

- لماذا؟ لأنّي في كلّ مرّة أمارس فيها معك الحبّ، ستعود إليّ كلّ صور النّساء الأخريات اللّواتي ضاجعتهنّ وستخترق تلك الصّور روحي. سيكنّ هنا حاضراتٍ يسخرن منّي وسيقانهنّ مشرعة في الفضاء. ابتداء من أختي.

- كريستينا، قصّةٌ من الماضي البعيد.

- لن أنسى ذلك أبدا، يا دييغو. أريد أن أعود زوجتك الّتي كنتُهَا من قبل لكنّ تلك القصّة الّتي حدثتْ مع أختي لن أنساها ما حييتُ.

- طيّب. لا جنس بينا.

- في المُقابل، يستعيد كلّ واحد منّا حرّيّته. أضاجع من أريد من النّساء -هذا طبعًا لا يهمّك كثيرًا، حتّى أنّي أعتقد أنّه أمرٌ يثيرك- ومن الرّجال دون أنْ تطلق عليهم الرّصاص من مسدّسك!

- لك كلّ ما ترغبين فيه، فريدوتشا.

وتقرّر زواجها الثّاني ليوم 8 ديسمبر في مكسيكو، بعد أن تمّت تبرئة دييغو من محاولة اغتيال تروتسكي ومن اغتياله أيضًا بعد أشهر قليلةٍ، لذلك بإمكانه العودة متى يشاء. لم يعد يخشى لا الشّرطة ولا المناضلين التّروتسكيّين الرّاغبين في الانتقام.

عندما حطّت طائرة «دي سي 2» التّابعة لخطوط «بان أمريكا العالميّة» على الأراضي المكسيكيّة، بالكاد تمكّنت فريدا من الخروج من حالة الخدر الّتي أصابت طول السّفرة. فقد عادت إليها آلام ساقها أجبرتها على التهام المسكّنات الّتي أدخلتها في حالةٍ من السّبات العميق. تخيّلت نفسها على هيئة عجوز مكسيكيّة تعيش وحيدةً وتقوم بتلك الأشياء العاديّة الّتي لا يلتفتُ إليها أحدٌ: سقيُ أواني الزّهور، إطعام العصافير، الذّهاب إلى سوق «ميرسيد»، التوقّف لأداء الصّلاة في «زوكالو» الأمر الّذي يبدو لها مجرّد عبث، إعداد وجباتٍ بسيطة-فاصلوليا مقليّة، طماطم، تورتيلّا، شرائح الفلفل المملّح.

عندما حطّت «الدّي سي 2» في مطار مكسيكو، كانت نصف واعيةً. لمحت رجلًا لابدّ أنّه زوجها الّذي راح يقترب منها. كان يشبه دييغو ريفيرا كثيرًا، قال لها ضاحكًا:

- كأنّني أمام ملكة عجوز ووحيدة، منسيّة من لدن الجميع!

55

يقابل الثّامن من ديسمبر 1940 الذّكرى الرّابعة والخمسين لميلاد دييغو، في ذلك اليوم تزوّج اللّذان يُطلق عليهما الأصدقاء اسم «الوحشيْنِ المقدّسين» للمرّة الثّانية. جاء «نيكولاس موراي» خصّيصًا من نيويورك بلا زوجةٍ كيْ يتكفّل بتصوير الحفل. على واحدة من تلك الصّور، لنا أن نرى فريدا في فستانها الهنديّ «التّيهوانا»، إلى جانب الّذي هجرها لسنتيْنِ كاملتيْنِ دييغو الحيوان الهائل الهائج، وهو يمسك في يده القناع الواقي الّذي كان يضعه دائمًا عندما يعتلي سقالاته.

كانت الهدنة قصيرة بينهما. فبينما كان يسيران على طريقٍ رماديّة بسبب الغبار، قاصديْنِ بناية من الآجُرّ الأحمر أين سيلتقيان ببعض الأصدقاء للاحتفال بالحدث، نشبتْ بينهما خصومةٌ. خطر لدييغو أنْ يُمازح فريدا بتعداد أسماء النّسوة اللّائي يسعيْنَ وراءه مُؤكّدًا أنّهنّ يعدن مُهمّات بالنّسبة إليه ولا يَعْدِين أن يكُنَّ «مُجرّد تسليةٍ من ضمن تسلياتٍ أخرى كثيرة»- هنّ غجريّاتٌ يصلحن لأن يكنّ موديلات يساعدنه «بجديّةٍ»، وهنّ مريداتٍ «مهتمّات بفنّ الرّسم»، وهنّ شابّاتٌ مهووساتٍ برفع الإثارة إلى أقصاها- ثمّ انجرف الحديث بلا سبب إلى الخوض في السيّاسة: رأى دييغو أنّ فريدا لم تعد تُناضل بما فيه الكفاية في حين أنّها عضو في الحزب الشّيوعيّ، في حين أنّه هو المستبعَدُ من الحزب ظلّ معنيّا أكثر منها ألف مرّة بسياسة البلاد. تخلّل مناقشاتهما جَمْعُ التّواقيع الجاري وقتئذٍ من أجل عريضة تحت اسم «طائر السّلام» تهدف إلى فضح المظالم الّتي ما تزالُ جاريةً في المكسيك. في تلك الأثناء، احتدّ النّقاش ونحا منحى مُرعبًا. كان يمكن لأيّ شخصٍ لا ينتمي لحلقة أصدقائهما أن يعتبر العنف اللّفظيّ وحتّى

الإيمائيّ إنّما هو دليلٌ على خلاف عميق يسكنهما. لكنّ الحاضرين كانوا يعرفونهم جيّدًا، يعرفون أنّ الزّوجيْن ريفيرا يعيشان أزمة دائمةً. متزوّجيْن كانا أو مطلّقيْن أو متزوّجيْنِ من جديد، ذلك ليس مهمّا، لأنّ الأمر لم يخصّ يومًا الحبّ الّذي يجمعهما بل يخصّ صحّتهما أو وضعيّتهما الماليّة أو حياتهما الجنسيّة أو الرّسم أو أيّ شيء آخر...

في النّهاية، دارت السّهرة وفق المُنتظر. شارك كلّ سكّان الحيّ في الحفل. انطلقتْ ألعابٌ ناريّة وأغانٍ، تدفّقتْ التّكيلا تدفّق الأمواج، وعمدتْ فريدا كما تعوّدت إلى تحريف كلمات إحدى الأغاني الشّعبيّة فردّدتها على طريقتها، قالت فيها إنّها تُحبّ رَجُلَها أكثر من جلدتها بالرّغم من أنّ رجلَهَا ذلك لا يحبّها بالطّريقة نفسها، وإنّها تعرف أنّه يحبّها قليلًا وذلك يكفيها، لكنّها مهما حدث لن تفتح له سريرها وإنّه قبل ذلك عليه أنْ يُطَهّر أيره بغمسه في طستٍ من الكحول!

عندما بزغت أولى خيوط الفجر، أدّت فريدا رقصة «زاباتيدو» مسعورةٍ أخيرةٍ مع دييغو ثمّ ذهبت للجلوس تحت نظراتٍ مذهولةٍ من شابّ لم يرفع عنها عينيْهِ منذ بداية الحفل دون أن يقول كلمةً واحدةً. لا أحد يعلم عنه شيئًا فيما عدا أنّه مدرّسٌ للّغة الفرنسيّة له محاولاتٌ في كتابة الشّعر وأنّه وصل إلى المكسيك منذ فترةٍ قصيرةٍ. دعاه دييغو الثّملُ كما هي عادته إلى الرّقص. لمّا عبّر الشّابّ عن رفضه في كنف اللّياقة سحبَ مسدّسه ووضعه تحت أنفه قائلًا إنّ «الزّاباتيدو» رقصةٌ سهلةٌ يمكن أن يتعلّمها سريعًا. احتاج الأمر لأن يُطلق طلقاتٍ على الأرض بين قدمي الشّابّ حتّى يتنازل ويمتثل لمقترح العريس. في نهاية الرّقصة، شدّه دييغو من يديْهِ وأماله سائلًا إيّاه عن اسمه كما جرت العادة أن يفعل الرّجل مع الفتاة في نهاية الرّقصة. «بنجامين بيريت» أجاب الشّابّ قبل أن يغادر المكان ومن حوله ضحكاتٌ ساخرةٌ وتعاليقُ سخيفةٌ. بتلك الحادثة أنهى دييغو الحفل. كانت فريدا مُرتعبةً. لا شيء تغيّر فيه العمق: ما تزالُ هيَ على غيرتها وما يزال دييغو على عجرفته مع الشبّان الّذين يبدون أيّ إعجابٍ بها.

بدلًا أن يُمضيا ما تبقّى من اللّيلة معًا، عاد كلّ واحدٍ من العروسين إلى منزله. قام دييغو بزيارة خاطفة إلى منزله بسان أنخيل قبل أنْ يسافر إلى «جزيرة الكنز» كيْ ينهي جداريّته، أمّا فريدا فقد تمّ إيصالها إلى حدود منزلها. هناك وأمام اللّوحة الّتي أهدتها لتروتسكي، رفعت زجاجة الويسكي عاليًا وصرخت به عاليا «في صحّتك يا ذا العثنون، قمتُ لتوّي بحماقة لا تُغتفر!»، ارتمت بعد ذلك على الأريكة وأخذتْ دفترها. على الصّفحة اليُمنى، رسمت عروسًا لها جناحان وحفرة حمراء كبيرة مكان القلب ثمّ كتبتْ على الصّفحة اليُسرى: «لا أؤمن بالوهم. إنّ الحياةَ مجرّد مزحةٍ كبيرةٍ».

خلال الأسابيع الموالية، انطلقت أشغالٌ كبرى. تمّ توسيع ورشة فريدا على حساب الغرف المجاورة، تمّ تجهيز غرفة لدييغو وطلاء كلّ الجدران مرّة أخرى بأزرق الكوبالات.

عندما عاد دييغو من كاليفورنيا، وبعد أن انطلق في أعماله في «جزيرة الكنز» من غد ليلةِ زواجه، استقرّ أخيرًا في شارع لندن تاركًا منزله في سان أنخيل على الذمّة. ثمّة حياةٌ جديدةٌ انطلقت. اكتشفت فريدا في نفسها عدّة فضائل لم تكن تشكّ فيها. راحت تتصرّف مثل أيّ ربّة بيتٍ. وجّهتْ اهتمامها إلى شؤون منزليّة عاديّة، من تنظيفٍ وطبخ والتّسوّق صحبة أختها أو إحدى صديقاتها لشراء الفواكه والخضراوات وإعداد أطباق دييغو المفضّلة. وصل بها الأمر إلى تزيين غرفته بالورود وتطريز وسائده والاستماع إلى «موسيقاه الكلاسيكيّة المملّة». أمّا من ناحية دييغو فكان يرافقها إلى مباريات الملاكمة الّتي تُحمِّسُها بينما هو يكرهها.

هنالك حياةٌ مشتركة ابتدأت. أصبح دييغو وفريدا يتناولان إفطار الصّباح سويّة ويتبادلان الزّيارة لورشتهما كيْ يطّلعا على آخر أعمالهما ويطّلعان سويّة على الرّسائل الّتي تصلهما ويقرآن الصّحافة ويعلّقان عليها. في العموم وكما قد يرى البعض، ثمّة نوعٌ من السّعادة الدّائمة الّتي تسلّلت إلى الكازا أزول،

نوعٌ من مُتعة العيش. يعود ذلك لفريدا أساسًا، بعد أنْ زيّنت المنزل بشرائط ملوّنة وركّزتْ طاولات مُخصّصة لاستقبال الأصدقاء. كانت تضعُ أوانيَ من الغلال وباقات من الزّهور هنا وهناك. وكانت تتعلّلُ بأيّ شيء لتُخْرِجَ مُعدّات الاحتفال ولتفتح قارورة من النّبيذ الجيّد ولتعدّ أكلة مكسيكيّة مقويّة. وكانت تُجيب كلّ من يسألها عن مجرى الأمور بالخطاب نفسه: «زواجنا الثّاني سائرٌ على نحو بديع. لم نعد نتخاصم كثيرًا، أمّا من ناحيتي، فقد اقتنعتُ أخيرًا بأنّ الحياةَ هي الحياة وليس علينا سوى أن نقبلها بحلوها ومرّها أمّا الباقي فلا يعدو إلّا أن يكون هراءً».

لكنّ تلك السّعادة كانت سعادةً ظاهريّةً. فوضعيّة فريدا الماليّة لم تتحسّن البتّة، كان بيع اللّوحات أمرًا صعبًا للغاية. أمّا صحّتها، فقد ظلّت كما هيَ مترنّحةً تُغرقها بين الحين والآخر في «فتراتِ مرّةٍ». لم تكفّ عن النّحول بسبب إرهاقها وأجاع ظهرها وأطرافها الحادّة، بالإضافة إلى التهاب جلدة يديْها. صارت تعيش حالاتٍ كثيرةً من الوهن واضطرابٍ متزايدٍ في دوراتها الشّهريّة. لم تستعد عافيتها إلّا بتدخّل من الدّكتور «كارباخوسا» الّذي وصف لها علاجًا هرمونيًّا عدّل دورتَهَا وخلّصها من الطّفح الجلديّ الّذي سبّب لها اهتراءً في أصابع يدها اليُمنى.

كتبتْ في دفترها، على هامش رسمةٍ تمثّل جسد امرأةٍ ممزّق تشدّ أجزاءه شرائط جلديّة تحول دون تفجّره على شاكلةٍ فاكهةٍ ناضجةٍ: «1000 عمليّة جراحيّة - كورسيهاتٌ من الجبس- أدوية بمذاق البول - هبوط الرّحم - يدان مليئتان بالفطريات- هلْ يعطيني كلّ ذلك الحقّ في أنْ أكون تعيسةً؟»

كان دييغو قد أبقى على منزل سان أنخيل كيْ يعمل على لوحاته هناك، لكنّه كيْ يجلب عشيقاته أيضًا عندما تبلغ حاجته إلى ممارسة الجنس أوجها. لم تدم سريّة ذلك طويلًا. فقد اكتشفت فريدا الحقيقة لمبالغة دييغو ذي الطّبع الطّائش في الّذهاب إلى ورشته. كان يذهبُ لا كيْ يحاور وكيلة أعماله «إيمّا هورتادو»،

حول موضة سوق الفنّ وإنّما لمضاجعة الّتي يُسمّيها «الهورتادورا»- الكلمة الّتي تعني «السّارقة». في الأسبوع الموالي، عادت فريدا للتّواصل مع «ريكاردو أرياس فيناس»، عشيقها الدّائم الّذي لم تنفصل عنه بصفةٍ رسميّةٍ، وأقامت معه علاقة جديدةً. لقد تمّ إذن احترام بند الاتّفاق القائل: لكلّ منهما الحقّ في ممارسة الجنس مع من يريد. أمّا سعادة فريدا بذلك من عدمها فتبقى شأنًا آخر. إذ عادةً لا نجد أيّ علاقة للتّوقيع على الاتّفاقيّات مع تطبيقها على أرض الواقع.

في الواقع، كان الشّيء الوحيد الّذي يصنع فرحة فريدا الفعليّة هي الكازا أزول. كانت تعيش داخل ذلك المنزل نوعًا من العزلة الإراديّة الّتي تحقّق لها شكلًا رائعًا من السّكينة. لطالما كان ذلك الملجأ بمثابة امتدادٍ لجسدها الخاصّ. يرافقُ كلَّ حجر وكلَّ قطعة أثاثٍ وكلَّ غرفة وكلَّ شجرة ووردة وحيوان الحنينُ لذكرى مّا أو علامةٌ على ألمٍ مّا وأحيانًا سعادةٌ مّا تعيد إليها توازنها الّذي تحتاجه. فجذوع المنغولية وأوراق أشجار «الأهوهويتي» والنّباتاتُ المتسلّقة والعصافير والكلاب والأيقونات العائدة لفترة ما قبل كولومبوس والحماماتُ الّتي تصيب الزوّارَ بذَرْقها وتماثيل يهوذا وزوجا السّعدان العنكبوتيّ والغزال القزم والدّجاجة والقط والنّسر، كلّ الحديقة بحيواناتها ونباتاتها وبهندستها وروائحها هي عالمٌ حيّ تراه يوميًا وتحتلّ مركزه، كلّ الحديقة تحوم حولها وتسرّب إلى روحها سعادة غامرةً.

يوم السّبت الأخير قبل حلول عيد الميلاد، استفاقت فجرًا بسبب عاصفةٍ هوجاء راحتْ تهزّ أوراق الأشجار، دامت العاصفة إلى أن بدأت الشّمسُ بالشّروق لامعةً من بين الغيوم الصّفراء، حينذاك تذكّرت ليون. في العام الماضي، وفي هذه الفترة نفسها، أمضيا معًا وقتًا طويلًا في تأمّل زهور شجرة «اليورفوبيا» الكبيرة بحمرتها النّاصعة والصّافية في زاوية شارعيْ «هامبورغ» و«نابولي». لم يكن ليون يعرف تلك الشجرة ذات الزّهور البديعة ذات اللّون المائل للأرجوانيّ والّتي يسمّونها «ليلةً سعيدةً» وهي زهورٌ تُنتسب لنويل. «إنّها أفضل ما تعوّضُ

نباتات البهشيّة بكلّ اختصارٍ...» قال. «تمامًا» أجابت فريدا. في ذلك اليوم، كان ليون قد أهدى فريدا باقة من زهور «الهلْيُوتْروب» اشتراها بخمسة عشر سنتافو. بيدٍ أمسكت بتلك الباقة نفسها وقد صارت يابسةً الآن وبالأخرى هاتفت ريكاردو أريا فيناس تدعوه للقدوم فورًا: فهي تريد مضاجعته.

بالرّغم من أنّ دييغو متغيّبٌ لعدّة أيّام، إلّا أنّها لم تعد ترغب في ممارسة شيء مع عشّاقها في الكازا أزول. إنّه مكان مقدّسٌ لا يمكن لأيّ شخصٍ أنْ يعتّب بابه. لذلك طلبت من ريكاردو أن يأخذها إلى فندق صغير في «سان أوغسطين أكلومان»، القرية الّي تقع على بعد أقلّ من أربعين كيلومترًا شمال شرق مكسيكو. على الطّريق الصّخريّ الّذي جرفته مياه الأمطار، كانت السيّارة تهتزّ من حفرةٍ إلى حفرةٍ. هنالك بركٌ ماءٍ تركد هنا وهناك وأزهارٌ صفراء وأخرى ورديّة تطلُّ بغتةً كأنّها السّحر. في البعيد، تتحوّل الكثبان إلى كتلٍ خضراء غامضة. بعد ما يزيد عن السّاعة، مرّت خلالها السيّارة من قرى مبنيّة بين بين أشجار الليّمون ومساحات جرداء صخريّة، وصلتْ إلى «سان أوغسطين أكولمان». انطلاقًا من ساحة الكنيسة، ثمّة متاهةٌ من الشّوارع المنحدرة والمدارج والفسحات الصّغيرة المحاطة بمنازل منخفضةٍ. في واحد من تلك الشّوارع الّتي يعود إنشاؤها إلى الحقبة الاستعماريّة تختبئ غرفُ فندق ريمو خلف واجهةٍ جميلة بلونيها الأزرق والورديّ.

نظر صاحبُ الفندق إلى فريدا مليّا دون أن ينبس بكلمةٍ. انتبه ريكاردو لذلك لكنّه خيّر الصّمتَ معيدًا الأمر إلى إمكانيّة أن يكون الرّجل قد تعرّف على العظيمة فريدا كاهلو، زوجة دييغو ريفيرا. لكنّ الحقيقة كانت غير ذلك تمامًا. احتفظت فريدا مثلها مثل صاحب الفندق بالسرّ في عمق نظراتهما تلك: كانت فريدا قد لجأت إلى هذه الفندق مرّاتٍ عديدةً مع ليون.

– الغرفة 501 ستلائمكما تمامًا. فهي فسيحةٌ ومطلّة على أشجار المانجو الهائلة الّتي تنشر أورقها على شكل مظلّات.

- هذا مثاليّ، قال ريكاردو منتظرًا ردّة فعل مماثلة من فريدا.

أومأت برأسها موافقة. فتلك الغرفة هي نفسها الّتي كانت تحجزها في كلّ مرّة تأتي إلى هنا مع ليون.

كان ريكاردو وفيًّا لما كان عليه دائمًا، كان حذرًا وفعّالًا في آنٍ. فبعد أن رأى الكورسيه الّذي تضعه، تصرّفَ بشكلٍ لا يُسبّب لفريدا أيّ ضررٍ كأنْ يقوم بحركة قويّة تحوّلُ نشوتها إلى ألمٍ. أمّا فريدا فقد كانت مُستسلمةً بالكامل، واثقةً، تاركةً المجال مفتوحًا للمضيّ أبعد ما يمكن. وعندما بلغت الذّروة أخيرًا، أغمضت عينيها وابتسمت من تحت الرّجل المستغرق في النّظر إليها. لكنّ الرّجل ذلك لم يكن يعلم أنّها لم تكن تراه هو ولا أيّ رجل آخر. ما كانت تراه، هو مشهدٌ شبيهٌ بحلمٍ. رأت نفسها وهيَ تضع مفرشًا أبيض ناصعًا في بستانٍ مليء بنباتات الفلفل ذات الجذور المدبّبة، هناك أين تشدو الطّيور. تُخرج في طمأنينةٍ سِلَالا وتنشر على المفرش صحونًا مليئة بلفائف «التّامال» المغلّفة بأوراق الموز والكوسى المشويّة والتّين الشّوكيّ البانيه وعددا من زجاجات النّبيذ، انظمّ إليها ليون وناتاليا وسييفا حفيدهما في ملابس السباحة ضاحكين. كان مشهدًا من السّعادة الخالصة الّذي جعلها تبكي وهي بين ذراعي ريكاردو الّذي اعتقد لوهلة أنّه عشيق رائعٌ مستمدّا من ذلك نوعًا من الكبرياء المؤقّتة. بعد ذلك، انفجرت فريدا ضاحكةً. ضحكت كثيرًا إلى أن تحوّل ضحكها ذلك إلى ما يشبه القهقهات الجنونيّة الّتي يصعب إيقافها. عندما تملّصتْ من بين ذراعيْ ريكادو، شعر الرّجل بنوعٍ من الإهانة لذلك سأل فريدا عن سبب ضحكها المبالغ فيه. لم تتمكّن من إجابته. كيف يمكنه فهم ذلك؟ لقد رأت لتوّها ليون متجلّيًا من ماضيها، من تلك النّزهة الماضية بمضلّته القشيّة المُضحكة الّتي كان يضعها على رأسه دائمًا في مثل تلك المناسبات، وشيلدون الّذي كان يمسك بكاميرته ساعيًا بكلّ ما أوتي إلى تخليد تلك اللّحظةِ: عندما قبّل دييغو جبين ناتاليا راسمًا على وجهه تقاسيم منفّرة وعندما عمد سييفا إلى إخراج لسانه بينما اصطفّ الحرّاس

الشّخصيّون في الخلف على شاكلة فريق لكرة القدم، ناظرين بأعينَ متوحشة وعاضّين على سكاكين بأسنانهم، أمّا فريدا وليون فقد كانا مُتلاصقيْن بحبّ وكان كلّ واحد منهما يرفع اصبعيْه خلف رأس الثّاني على شاكلة أذنيْ أرنبٍ.

- فيم كنت تفكّرين؟ سأل ريكاردو. هل يمكنك إجابتي؟
- لن تفهم إذا أخبرتُك.
- أخبريني دائمًا.
- كنت أفكّر في تروتسكي وفي مظلّته القشّية على رأسه، في تلك السّعادة الرّائعة الّتي كانت سعادته خلال ذلك اليوم.
- أنت محقّة، لا أفهم ما تقولينه، قال ريكاردو بنبرة خالية من العدائيّة وهو يرتدي ملابسه.

56

في يناير 1941، لم يبق أمام فريدا سوى ثلاثة عشر عامًا لتعيشها. في الوقت الّذي انهمك فيه دييغو في تأسيس ما يُشبه الضّريح المنزليّ تحت مُسمّى «متحف أناهواكالي»، متحفٌ لتخليده وتخليد تُحفٍ فنيّةٍ تعود لحقبة ما قبل كولومبوس ظلّ يجمعها على مدى حياتها، في ذلك الوقت كانت فريدا تُشارك في عديد المعارض الجماعيّة في المكسيك وخارجها. كانت سنواتٍ غزيرةَ الإنتاج، أنجزت خلالها عددًا كبيرًا من لوحاتها المُهمّة: لوتشا ماريّا، بورتريه ذاتي بضفيرة، العمود المكسور، أشدّ تلك اللّوحات قتامة كانت: القناع، بلا أمل، الفرخ. لكنّها تأكّدتْ مرّة أخرى أنّ تلك السّعادة إنْ هي إلّا سعادةٌ هشّةٌ.

لذلك أقنعت نفسها بالتّالي: تحوّلت حياتُها إلى حملٍ ثقيلٍ. فبالرّغم من التدخّلات الجراحيّة المتكرّرة، لا تحسّن يلوح في الأفق. ففي سنة 1944 وحدها اضطرّت لوضع كورسيه فولاذيّ جديدٍ، وخضعت لعمليّة بَزْلٍ قطنيّ واستئصال صفيحةٍ فقريّة وزرع للعمود الشوكيّ، ذلك ما تطلّب بطبيعة الحال مجابهة عمليّاتٍ لنقل الدّم الّتي كانت ترهقها وحقن اللّيبيدول الّذي كان يدخلها في حالة من الفتور التّامّ وتناول أدوية أكثر ثقلًا تقوم أساسًا على مادّة الزّرنيخ.

في العام الموالي تمّ استبدال الكورسيه بآخر حديديّ. كانت حالة فريدا تزدادُ سوءًا. إلى انهيارها الجسديّ انضاف الانهيار النفسيّ. ما انفكّ الكره والحبّ المتراوحان على حياتها الزّوجية يُميتانها شيئًا فشيئًا. في تلك الأثناء، انتقل شَغَفُ دييغو إلى الفاتنة ماريا فيلكس، شغفٌ زاد في حجم دمارها لم تُشْفَ رغم المغامرة الّتي عاشتها مع «دولوريس ديل ريُو» ولا التأمت جروحُهَا العاطفيّةُ

الّتي انفتحتْ عميقًا. في سنة 1950، بعد سلسلة من الحقن تحت الجلد لبعض الغازات الخفيفة، انتهت بها الحالُ إلى نقلها إلى المستشفى لتخضع للعمليّة السّابعة خلال السّنة نفسها. مكثتْ عامًا بكامله في المستشفى هذه المرّة، أقامت في غرفة تحوّلت إلى ما يُشبه «كفر ناحوم»[1] أين يمكن لمن هبّ ودبّ أن يأتي للحديث أو لإعادة تشكيل العالم أو للشّرب أو للغناء أو حتّى لحضور عرض سينمائيّ. بين اللّحظات المخصّصة للأصدقاء والأخرى المخصّصة للأطبّاء، كانت فريدا ترسم لمدّة خمس ساعاتٍ في اليوم. كانت تستلقي على ظهرها لتضع حامل لوحاتها الّذي طُوّع للغرض وتتلقّى حقنة مضادّاتٍ حيويّةٍ كلّ ثلاث ساعات. عندما غادرت المستشفى، كان عليها أن تتكيّف مع المعطيات التّالية: ستضعُ الكورسيه دائمًا حتّى تسند عمودها الفقريّ ولن تتنقّل إلّا على كرسيّ متحرّك. حتّى أنّ دييغو رسمها على تلك الشّاكلة الأخيرة في لوحته المعروضة في قصر الفنون الجميلة، عنوان تلك اللّوحة: «كابوس الحرب، حلم السّلام».

لكنّ فريدا الّتي لا تزالُ تتذكّر أنّها عادتْ للمشي سريعًا بعد حادث التّرام، رفضتْ تلك الحياة الذّليلة وتقيّأتْ نظرات الّتعالي الّتي كانت تتوجّه إليها. ففي أبريل سنة 1935، التأم المعرض الأوّل الّذي يستعيد مجمل أعمالها في قاعة «الفنّ الحديث»، وبينما توقّع الجميع عدم مقدرتها على حضور الافتتاح، دخلت القاعة بشكلٍ مسرحيّ. دخلتْ وهي تتربّعُ في سريرٍ مُقبّبٍ في أبهى زينتها بأقراطٍ ذهبيّة وملابس زاهية الألوان وعباءة من المخمل على كتفيها. تعاقب الأصدقاء على المرور من أمام سريرها. ظلّ الجميع إلى ساعة متأخّرة من اللّيل يشربون ويمرحون ويؤدّون أغانيَ مكسيكيّةً قديمةً على نقر الطّبول وأدوات إيقاعيّة خشبيّة وضرب الأقدام، بينما كان عددٌ من «الكونشيروس» في أزيائهم المؤلّفة

(1) كفر ناحوم أو تل ناحوم: مدينة كنعانيّة تقع على بحيرى طبريا شمال فلسطين، تُعرف بأنّها المكان الّذي ألقى فيه المسيح خطبته الشّهيرة «موعظة الجبل»، يتركّب من ديرٍ ومدافن ومعاصر وخربة إلخ... تُستخدم الكلمة للإشارة للفوضى.

بالصّدف ورؤوسهم الحليقة وقبّعاتهم الهائلة المصنوعة من الرّيش يهتزّون على أصوات الفُلُوت والطبّول. شربت فريدا قارورة براندي وتوصّلت إلى الإيقاع بشابّ أشقر، التقت به على سريرها بعد يومَيْنِ اثنَيْنِ. دامت علاقتهما ثلاث أسابيع عاشتْ خلالها متخيّلة أنّ السّعادة عادتْ لتغمرها من جديد.

لكن، ما جدوى ذلك؟ ما تزالُ قادرةً على إقامة الاحتفالات، حياتها تزداد قتامةً، صارت رماديّة أكثر من الصّخرة البُركانيّة الّتي استخدمها دييغو لبناء «هرمٍ» له. كان الحقيقة الخامّ هنا، قاسيةً مثل الجرانيت. حقيقة العمليات الجراحيّة والانتكاسات الّتي تقودها إلى غرفتها-الورشة في المستشفى. حقيقة ذلك الجنين الّذي تمكّن أحد الأطبّاء من الحصول عليه فظلّ طافيا في آنيةٍ من «الفُورمالين» ركّزتها على إحدى رفوفها في محاولةٍ تعويض الطّفل الّذي لم تُحْظَ به. حقيقة المخدّرات الّتي استهلكتها بكميّاتٍ هائلة فدفعتها إلى إطلاق الشّتائم الأكثر فظاعة في وجه كائنات أحبّتْهَا، مثلما حدث خلال ذلك اليوم عندما أسرّت لصحفيّ في جريد «الإكسلسيور» بأنّ تروتسكي جبان وسارق و«مخبول»، والّذي لو لم تكن هي من آوت ذلك «الثّوريّ»، وبأنّها منذ وصوله مكسيكو عرفت أنّه يخادع نفسه!

بعد أيّامٍ من ذلك، فتحت الجريدة لتقرأ نتيجة تلك المقابلة اللّعينة قائلة في نفسها إنّها تأكّدت الآن «من كونها تتفوّه بأيّ شيء عندما تكون ثملةً». في صفحاتٍ لاحقة من الجريدة نفسها وقعتْ على تصريحاتٍ أدلى بها دييغو الّذي كان حينذاك في الولايات المتّحدة، تصريحاتٍ أغرقتها في حالةٍ من اليأس العميق. كانت واعيةً دائمًا بأنّ الرّابط الّذي يشدّها إلى دييغو يظلّ غير مفهومٍ في نظر أغلب النّاس، لكنّها أحيانًا وعندما تقع على تصريحات بفداحة الّتي كانت بصدد قراءتها، تشعر بالخزي: «كيف أمكنها العيش مع مثل ذلك الرّجل!». فدييغو الّذي انطلق في إجراءاتٍ تمكّنه من العودة إلى الحزب الشّيوعيّ، وذلك بهدف التّقرّب من أعضائه المتنفّذين دون شكّ، صرّح بالطّريقة الأكثر سذاجةً

أنّه جلب تروتسكي للمكسيك من أجل الإيقاع به، وأنّه المناصر الأوّل للقضاء على ذلك المُنشقّ الخطير! قالت إذن إنّها أصابتْ في رفضها أنْ يستخدم ذلك القذر قلم تروتسكي للتّوقيع على طلب إعادة إدماجه في الحزب قُبيْل مغادرته في اتّجاه الولايات المتّحدة!

مكتبة ياسمين
telegram @ yasmeenbook

اتّصلت بدييغو وهي في قمّة الغضب:

- لا يمكننا الإساءة بتلك الطّريقة إلى ذكرى أحد المتوفيّن.

جاءت إجابة الرّجل العظيم معسولةً كعادتها:

- بالخصوص، عندما تكون زوجتنا المصون قد ضاجعته!

- في سنة 1937، لم أكن على ذمّتك دييغو، قالت فريدا مغلقة السّمّاعة كيْ تضع حدّا لمحاورة لا طائل منها.

قضتْ بقيّة اليوم ناعسةً على كرسيّها المتحرّك، حالمةً بجولةٍ مع ليون على حافّة بحيرة غوادلاخارا. رأت نفسها على متن قاربٍ صغيرٍ. بدت لها مياه تلك البحيرة الصّافية حاملةً لشيءٍ مريحٌ. توغّل القاربُ في المياه بعد ذلك، بشراعه المجوّف الأقرب إلى محارةٍ. تراءتْ لها مقدّمة القارب النّاتئة وهي تهتزّ فوق المياه. كان في حوزتها خبران تريد إطلاع ليون عليهما، خبر جميلٌ وآخر سيّء. اختار ليون التّرتيب التّالي: الجميل أوّلًا ثمّ السّيء. أمّا الجميل فكانَ التّعرّف أخيرًا على هويّة قاتله. لم يكن اسمه لا جاك مورنارد ولا فرانك جاكسون إنّما رامون ميركادير ديل ريو. لا تظهر الصّورة الّتي تمّ نشرها في الصّحف رجلًا متعبًا، بملامح غزتها الشّيخوخة، بجبينٍ يخطّها تجعيدان عميقان، وبمظهر مهملُ يدلّ إن دلّ على واقعه المرير المتمثّل في القبض عليه بل تُظهر صورة شابّ بشعر غزير أسود وجبين ناعمٍ وعينين لوزيّتيْنِ وبثغر منتفخٍ ومغرٍ وبطبع حيويّ، إنّه الرّجل الّذي كان في خدمة الميليشيّات الشّيوعيّة الّتي جنّدته للقتال في إسبانيا.

- والخبر السّيء؟ سأل تروتسكي.

- اكتسحتْ الغرغرينا ساقي اليُمنى. قالوا لي إنّه سيكون من الأفضل بترها إلى «حدود الرّكبة»...

57

بعد انتهاء العمليّة الجراحيّة، كانت عودتها إلى الكازا أزول شاقّة. في فبراير 1954، بعد عدّة أشهر من العمليّة، عادت فريدا لتتحدّث عن الانتحار. أبدًا، لم تُعانِ كما عانت هذه الأيّام. ذلك ما كانت تقول لأصدقائها. ذلك ما كانت تقوله لدييغو. ذلك ما كانت تقوله لليون عندما تختلي به كلّ ليلةٍ. من حسن الحظّ أنّ الرّسم كان دائمًا هنا على ذمّتها. كانت اللّوحات الّتي أطلقت عليها اسم «الطبيعة الحيّة» هنا، كانت الطّبيعة بنداءاتها وشغفها هُنا. هناك أيضًا لوحاتٌ «سياسيّة»: «فريدا وستالين»، «الماركسيّة تُسعف المرضى بالشّفاء». أرادتْ بإنجازها لهاتين اللّوحتيْنِ أن تُقيم علاقةً عميقةً بين السّياسة وحياتها الخاصّة. أطلعت ليون على تلك الأمنية عندما وجدت نفسها بمفردها معه في غرفتها- الورشة: «للمرّة الأولى تحاول لوحاتي تشجيع الخطّ النّضاليّ الّذي رسمه الحزب. تحيا الواقعيّة الثّورية...» ابتسم تروتسكي. إذا كان أحبّها بذلك الجنون، فذلك لا يعود بالطّبع إلى تحاليلها السّياسيّة الثّاقبة. كان يحترم فنّها والتزاماتها السّياسيّة الواقعيّة والصّارمة. لكنّ الرّسم إن كان قادرًا على تغيير شيء في خطّ الحزب النّضاليّ لكان ذلك قد عُلِمَ. هل كانت محاوراتها تلك حقيقةً أم حلمًا؟ في أيّ مساحةٍ تضع تلك المحاورات؟ لم تعد فريدا تُميّز شيئًا. كانت أيّامها ولياليها تمضي في نوعٍ من الحِمَمِ الغريبة، تمضي ملء الضّباب. وكان الجدار الفاصل بين المساحتيْنِ واهنًا. الأمر الوحيد الّذي ظلّت تعرفه حقّ المعرفة هو أنّ رسمها أصبح أكثر جنونًا وعشوائيّة، بما تستخدمه من ألوان متضاربة وساطعة وبدائيّة، وبما تتّبعه من تقنياتٍ أقلّ ثقة لكن أكثر أصالةً تخضع لما تُمليه عليها روحها من حركات واهتزازات فكريّة وارتعاشات من جسدها المكدوم. أمام

صمت تروتسكي وابتسامته، أعادت صياغة الجملة غير مهتّمة بها في فحواها من تناقض: «رسوماتي ليست ثوريّة. لماذا عليّ أنْ أقنع نفسي بأنّ لوحاتي، إنّما هي لوحات معارك؟ ما الّذي قد يجمعني مع الأهداف التّعليميّة الّتي يفرضها الحزب على الفنّ؟»

أصبحت حركات فريدا شحيحةً أكثر فأكثر، لذلك حبست نفسها في الرّسم وأضاعتْ عمقها. أصبحت الثّمار الّتي ترسمها في لوحات «الطبيعة الحيّة» مخترقة بعامود حادّ أو بعلمٍ ومغطّاةً بأقوال نضاليّة وبحمامات مبالغ في رمزيّتها. لم تعد تقوم بجولاتها في حدائق «سوتشيميلكو» العائمة وفي سوق «تولوكا» من أين تشتري شرائط الهنديّين المنشورة على حصائر صغيرة إلّا في خيالاتها الّتي صارت تعتبرها واقعًا. وكانت الكازا أزول بصدد الانغلاق عليها مثل فخّ يعجز حتّى الرّسم على تخليصها منه.

58

كانت فريدا كلّما اقترب الصّيف أكثر إلّا وشعرتْ أنّها تعيش أيّامًا من الوساوس والاضطراب. أحيانًا، كانت تقضي ساعاتٍ طويلة وسط الحديقة بين النّباتات وبرفقة حيواناتها المفضّلة، وكانت نظراتها مسكونة بالرّعب وأصابعها تحاول لمس حياةٍ باتت تشعر أنّها بصدد الابتعاد أكثر فأكثر.

بعد عودتها من المستشفى، أوصاها الأطبّاء بالرّاحة المطلقة والهدوء التّام. ذلك ما لم تعرفه طوال حياتها. من المؤكّد أنها لم تعد تخرج إلّا قليلًا، وأنّها صارت دائمة الغياب، إلّا أنّ النّار الّتي كانت تلتهم داخلها ما تزالُ مسعورةً كما هي. يوم 2 يوليو، شاركت في مظاهرة ضدّ تدخل الـ«سي آي أي» في شؤون غواتيمالا الدّاخليّة، كانتْ لافتةً ترفع قبضتها عاليًا وهي على كرسّيها المتحرّك الّذي تكفّل دييغو بدفعه. في ذلك المساء نفسه، لازمت فراش المرض: عودة الالتهاب الرّئويّ الحادّ الّذي ألمّ بها منذ أسابيع بأكثر عنفٍ.

بعد أربعة أيّامٍ من ذلك، رسمت على عدّة صفحات من دفترها وكتبتْ نوعًا من النكتة السّاخرة: «أتمنّى أن يكون الخروج سهلًا- وأتمنّى ألّا أعود أبدًا»، ثمّ شرعت في إنجاز لوحة غريبة، وهي تجلس في سرير المُقبّب، أسندت اللّوحة إلى صدرها ووضعت لها عنوانًا: «ما يفيدُ الحركة الثّوريّة». على خلفيّة صحراويّة مقفرة، يطلّ تروتسكي على هيئة شابّ مفعم بالنّشاط، على يمينه حشدٌ من الهياكل العظميّة وعلى يساره جيش من الرّجال والنّساء، يحمل بعض من يتقدّمون ذلك الجيش سلاحًا ويحمل الّذين خلفهم مباشرةً آنية من «الفورمالين» أين يسبح جنينٌ. مكثتْ أيّامًا تنتظر أن تجفّ اللّوحة تمامًا لتُخفي رأس تروتسكي وتضع مكانه رأس

ستالين. عندما حدّقت في اللّوحة، كانت الوحيدة الّتي تعلم أنّ تحت ستالين تختفي حقيقة الرّجل الّذي أحبّتْه بشغفٍ. ستكون تلك مزحتها الأخيرة، وسخريتها من أولئك الدّغمائيّين الّذي كما تصفهم «ينفخون خصيتيْنِ لا تمتلكها!» كان ذلك ما تعيشه بعيدًا عن واقعها اليوميّ. عندما دخلت «دافني» الغرفة وهي الممرّضة الّتي رافقتها منذ مغادرتها المستشفى، انفجرت بضحكةٍ عاليةٍ بعد أن أطلعتها على سرّ اللّوحة. سألت فريدا بما فيها من حيويّة وحسّ راق من شأنها أن يعطيا معنى للحياة لماذا «تمّ تعويض السيّد تروتسكي بذلك الجزّار المدعوّ ستالين؟»:

- كيْ أجعلك تتكلّمين يا دافني، قالت فريدا.

- قولي إنّك بالأحرى لا تريدين للسيّد دييغو أن يكتشف ذلك لأنّه أمر يثير غيرته...

- هو شيء من هذا القبيل، قالت فريدا، لكنّ ثمّة سبب آخر أكثر وجاهة: كلّ الّذين سيشاهدون هذه اللّوحة لن يروا سوى ستالين، وهذا أمر طبيعيّ. أمّا إذا اشترى أحدهم اللّوحة تعاطفا مع ستالين فإنّه في الحقيقة سيشتري ليون تروتسكي!

صحيحٌ أنّ دييغو لم يكن حاضرًا أكثر ممّا عليه في هذه الأيّام، حتّى أنّه كان أحيانًا يقضي اللّيلة في غرفة فريدا كيْ لا يتركها وحيدةً. يوم 11 من الشّهر نفسه، أعادت له الخاتم الّذي أهداه لها بمناسبة ذكرى زواجهما الخامسة والعشرين: «لن يعد يفيدني في شيء، الآن...» يوم 12 وبعد أن شربت زجاجة براندي بكاملها، على أمل تسكين آلامها المُزمنة، وبعد أن استهلكت كمّيات كبيرة من حبّات «الديميرول» المخدّرة ومن «السّيكوباربيتال» استلقت على سريرها قائلةً لدييغو ودافني إنّ كلّ شيء على ما يرام. ليس من قبيل الصّدفة أنّها كانت تصف نفسها أحيانًا بـ«المُخادعة». عادت إليها في استلقائها ذلك استعارةُ ليون: «الحياة أقرب إلى ميدان لسباق السيّارات، أين يؤدّي كلّ واحد منّا عدد الدّورات

المخصّص له، عدد دورات لا أحد منّا يعلم كمْ هي بالتّحديد». من ناحية فريدا: هي لم تعد تشكّ أنّ سباقها قد وصل إلى نهايته- لم تعد هناك مسافةٌ لتقطعها، لم تعد هناك وقود في محرّكها.

كلّ ما عليها فعله هو أن تنتظر مغادرة دييغو وأن تطلب من دافني جلب الصّندوق الحديديّ الأبيض المطليّ بالألوان المكسيكيّة الموضوع في ورشتها بجانب أوعيتها المليئة بالفُرُش. تنتمي فريدا لتلك الكائنات الّتي تحتفظ بكلّ شيء، لتلك الكائنات الّتي ترفض اختيار ما تستغني عنه من أشياء حياتها، تلك الكائنات المسكونة بماضيها، الغارقة في ذاكرتها، الّتي تعيش مغمورةً بموجة من الأحاسيس والعواطف والأسئلة والأجوبة والفضلات والخردوات والأشياء المهشّمة والملابس الرثّة والدفاتر المليئة بعناوين منازل لم تعد آهلة بأصحابها. وعندما يُفتَحُ واحد من صناديقها يمكن لأيّ ذكرى لا منتظرة أن تطفوَ، يمكن لأيّ جزء من ذاكرة أليمة أن يبرز مثل حزنٍ كبير أو موت مُباغت أو عاطفة قديمة خلنا نسيانها وضياعها إلى الأبد، لذلك تصعب مقاومتها. ولذلك فقط تتعكّر تلك الكائناتُ. تنفجر رؤوسها بتلك الذكريات الّتي عجز العقلُ عن فرزها. لم تستطع فريدا فتح الصّندوق. شربت آخر كأس براندي، وابتلعتْ حفنة من الحُبوب وألقت نظرةً أخيرةً على بورتريه ستالين أين كانت لا ترى سوى تروتسكي الّذي اخترق بوجهه الوجه الأوّل، ثمّ غرقت في نومٍ عميقٍ وهي تدندن بالأغنية «الكورّيدو» السّاذجة المليئة بالحماسة الشّعبيّة الّتي صدحت بها الجماهير المرافقة للموكب الجنائزيّ للزّعيم الرّوسيّ وهو يشقّ مكسيكو: «مات تروتسكي مقتولًا/ بين ليلة وضحاها/ مساء يوم ثلاثاء حدثت تلك المأساة المحتومة/ مأساةٌ هزّت البلاد/ والعاصمة بأسرها». مستغلّة لهذا المقطع، شتمت الموت، تلك المومس الصّلعاء، «البيلونا»[1]، حسناء الحفل تلك، كاترينا

(1) بيلونا Pelona: كلمة اسبانيّة تعني صلعاء.

نصف المحروقة تلك، الخبزةُ المحمّرة تلك، خالة البنات الشّريرة في فيلم «تيا دي لاس موتشاتشا»، سنّا الأرنب الأماميّتان النّخرتان تلك، ماريا ديوناتا المرعبة تلك، شينغادا المُغتصبة...

ثمّ، تسلّلت إلى الغرفة نسمةٌ خفيفةٌ، نسمةٌ مثل تلك الّتي تهبّ على حدائق «زوتشيميلكو» العائمة، يوم مارست الحبّ لأوّل مرّة مع ليون وهما مُحاطان بقوارب مليئة بالورود والأغاني. بعد ذلك توقّف كلّ شيء بنعومة كما تتّجه سهرة صيفيّة إلى نهايتها ببطء. راحت برودة البحيرة المنعشة تختفي ببطء. كانت فريدا تتمشّى وحيدة على إحدى الطّرقات. على يمينها، كان الجبلُ يرتفعُ بشكلٍ حادّ، كان ملتهبًا وأصفر منه تنبعث حرارة شمس حارقة لتمتلئ الأجواء برائحة طفيفةٍ للجفاف الخاصّ بأرض المكسيك وحدها. كان الأمر شبيها بتبخّر أرض تزداد تفحّمًا كلّ يومٍ. على يسارها، صفّ من الحمير المُثقلة وهي تشقّ الغبار. كانت طبقة التّربة الحمراء السّميكة الّتي في الطّريق تحرق قدميها. كانت تسيرُ في اتّجاه جسر صغيرٍ مضيء، جسرٍ بلون أبيض ناصع إلى درجة الإبهار. تساءلت في نفسها إن كانت حقّا تحتاج قدميْن لتمشي ما دامت تملك جناحيْنِ؟

يوم 13، دخلت دافني الممرّضة الغرفة لتكتشف فريدا بعينيْها المفتوحتيْنِ ويديها المصقّعتيْن. فريدا ماتت لتوّها، وذلك يعني أنّها قامت بخروج أسطوريّ غايةً في الهدوء. أخفت دافني زجاجة البراندي وعُلب الأدوية، نقلت اللّوحة إلى غرفة أخرى، فتحت النّافذة كيْ تسمح لخيطٍ من الهواء بدخول الغرفة. دار حديثٌ حول الانسداد الرّئويّ. قطع دييغو عروقها بواسطة مشرطٍ كيْ يؤكّد موتها. حُمِلَ التّابوت مفتوحًا تحت مطرٍ غزير إلى حدود ساحة «الفنون الجميلة». وضع على التّابوت علم أحمرٌ حيثُ يرتسم المنجل والمطرقة، وهو ما أدّى إلى نشوب مخاصمة سياسيّة انتهت برفع القبضات عاليا وبترديد الجماهير للنّشيد الأمميّ.

نُقلت فريدا إلى المحرقة الوطنيّة «دولوريس»، فريدا الّتي كما كتب أحد الشّعراء، «منتصبة كأجمل ما يكون، جالسة في الفرن، بشعر محترق مثل هالةٍ، ابتسمتْ لأصدقائها قبل أن تختفي إلى الأبد». ثمّ وضع دييغو رمادها في جرّة صغيرة، أغمض عينيه والتهم حفنةً من رمادها.

عندما فتح عينيه، كانت الأمطار قد توقّفتْ نهائيًّا. فكّر: «قريبًا، تعود الطّيور المهاجرة من الشّمال».



telegram @yasmeenbook

جيرارد دي كورتانز

عُشّاقُ كُويُوَاكان

تكشفُ هذه الرواية عن خبايا إحدى أروعِ قصص الحبِّ التي شهدها القرن العشرين أو ربَّما أتعسها وأكثرها وحشة. تروتسكي، الثائر الذي غيَّرَ وجهَ روسيا في فترة ما وقلب موازين التَّفكير السياسي والمفاهيم السِّياسية وانتهى بِهِ الأمر فريسة لفأس الغدر والتنكر. أمّا الطرف الثاني ففريدا كاهلو، الرَّسامة المكسيكية التي قاومت عرج الحياة برقصاتها البهلوانية معها ومع زوجها ريفيرا والتي انتهى بها المطاف رمادًا في رياح الحياة العابرة أمّا الشخصية الثالثة فريفيرا، الزوج الفوضوي والبدين والمهووس بالبحث عن أبشع الخيانات. هذه الشخصيات الثلاث هي مدار هذا العمل الروائي المكتوب بأسلوب شعريٍّ عالٍ وبرؤية ثاقبة ضاربة في التَّاريخ الخفي لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية.

رواية تعالج موضوعات كثيرة مسكوت عنها من قبيل الخيانة والحب والعلاقة بين ما هو سياسي وما هو عاطفي. رواية تعدُّ شهادة كُبرى عن قرن الانحرافات والخيبات والانكسارات الكُبرى.

WWW.PAGE-7.COM
ISBN: 978-9938-989-19-9
9 789938 989199
Designed by Tawfiq Omrane
صفحة